آلهة مصر

تأليف
فرانسوا ديماس

ترجمة
زكى سوس



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٨

الفهـــــــــرس

الفصل الأول

● مصادر معرفتنا

تعجز المخلفات المادية وحدها عن تعريفنا بالآلهة التى تعبد لها أحد الشعوب ، وانه لأمر هام ، دون مراء ، أننا مازلنا قادرين على تأمل أبولو أو زيوس على الصورة التى شكلها لهما الاغريق . وقد كان من الممكن أن تكون معرفتنا خواء لو لم نتملك بعد الأناشيد الهومرية والنصوص الأدبية المتعددة ، أو ما يتصل منها بعلم النقوش ، تلك التى تسمح لنا بتصور الفكرة التى كان الأقدمون يشكلونها عن آلهتهم، وما كان من الممكن ـ مهما كانت القرائن القوية ـ أن نجزم بأن الميسينيين(١)كانوا يعبدون آلهة الأولمب الكلاسيكية، قبل أن يتاح لنا فهم كتابتهم ؛ على أن مصر القديمة قد تركت لنا لحسن الحظ الى جانب العدد الوفير من الآثار المغطى أغلبها بالنقوش كثيرا من الوثائق الأدبية ، بفضل جفاف مناخها الفريد ، وهى تشمل : أدراج البردى ، ولفائف رق الغزال والألواح الخشبية ؛ التى نستطيع عن طريقها ، أن ننفذ الى حد كبير الى عالم معتقداتهم وآرائهم الدينية .

ومع هذا ، فلن يكون هذا الكتيب عجالة عن الديانة المصرية أو بيانا عن أساطير آلهة النيل . بل اننا سنقتصر على بذل محاولة لوضع شىء من التصنيف لجماعة آلهة مصر القديمة Panthéon (٢) الوفيرة العدد ثم فحص طبيعة كل

(١) الجزء الجنوبى من بلاد الاغريق القديمة وفيه نشأت أقدم حضاراتهم (المحرر) .

(٢) معبد كان يخصصه الاغريق والرومان لكل آلهتهم ويطلق على مجموع كل آلهة قطر ، فيدل على علم أساطير مكتمل ـ (المترجم) .

اله على حدة ، ونحن نجتاز البلاد ، على قدر ما يستطيع المرء ان ينبينها • وسيكون للأساطير شأن فى ذلك كما يكون لعلم اللاهوت فى معناه الصحيح • وسنحاول فى فصل ختامى أن نرى الى أى حد استطاع الكهنة المصريون ان يذهبوا فى معرفتهم بالعلم الالهى(١) •

★★★

ومن الخير ، بادىء ذى بدء ، أن نتساءل : كيف نقلت الينا المصنفات الدينية القديمة التى نستحوذ عليها ؟ • فان لهذه التنصيلات آهمية بالغة فيما يتعلق بتفسيرها • ونحن نعرف من النصوص ومن الآثار ، أنه كانت توجد مكتبات فى حيازة المعابد • وقد كان بعضها فى متناول أيدى الكهنة كمكتبة ادفو التى توجد فى غرفة صغيرة ، على مقربة من

---

(١) من الصعوبة بمكان كتابة اسماء الآلهة على الوجه القويم او اسماء الاعلام التى نسخت من لغة اجنبية وسنسير هنا وفق بعض المبادىء البسيطة ، الهدف منها تسهيل استخدام الكتاب • عندما يكون النقل بالاغريقية موجودا فاننا سنستخدمه لانه وضع فى الزمن الذى كان المصريون انفسهم لا يزالون ينطقون به • ولكن من الواضح ان هذا كان نطقا فى عهد متاخر لا يسمح لنا ان نصل – على الاقل مباشرة – الى الصيغة الصوتية فى العصور القديمة • اما فيما يتعلق بالاسماء الاخرى ، فانه على الرغم من البحوث الحديثة التى لا تكف عن عرض نظريات جدد ، فى بعضها استغواء عظيم ، فاننا سنتبع اسلوب الكتابة الذى ينتهج فى الكتب الفرنسية حتى لتحاشى مضايقة القارىء او ايقاع المنت بالقائم على الطباعة • ولقد وحدنا النهج بالتزام القواعد الاتية : العين السامية (تذكر المؤلف انها occlusive laryngal sourde اى : صوت انفجارى حلقى مهموس والواقع انه متوسط بين الشدة والرخاوة وهو Spirante laryngal sonoure السيابى حلقى مجهور – المترجم) تبينها النبرة accent circonflexe على حرف اللين المجاور • وقد نسخت النفخات البسيطة بالحرف (هـ) h والنفخات القوية بالحرف (خ) kh الذى يقابل Ch فى الالمانية • وحرف القاف وهو occlusive velaire sourde شديد لهوى مهموس ادى بالحرف q ,dj ,dj يطابقان الحروف الاسنانية التى تختص بها اللغة قبل ان تضعف هذه الحروف فى لغة العصر المتاخر • ان حشو كتبنا بعلامات الطباعة التى يقصد بها تعديل اصوات الحروف ، diacritiques والتى يعسر على معظم القراء تميزها ، لا جدوى منه • ولا يلقى الاخصائيون اى عناء فى الوصول الى صيغة الاصول •

ملحوظة – لقد حرصت على كتابة صيغة الاسماء الاصلية كما وردت فى الاصل المصرى الى جوار الصيغة اليونانية الشائعة فى الكتب العربية وذلك لقرابة الصيغة الاصلية للغة العربية كما سيجىء – (المترجم) •

مدخل بهو الأعمدة • والبعض الآخر كان يودع فى أكثر الأمكنة خفاء فى المعبد كما هى الحال فى دندرة ، حيث يوجد مخبأ السجلات الذى يقع مدخله على ارتفاع ثلاثة امتار فى أحد الهياكل التى تحيط بقدس الأقداس ، كانت المكتبات المفتوحة تضم على الأخص كتب الصلوات التى كان الكهنة يحتاجونها عدة مرات كل يوم • بينما كانت المكتبات الأخرى تغلق فى حرص عظيم على البرديات الدينية او القانونية التى تحدد امتيازات الكهنة المالية • وقد كانت هذه البرديات وثائق اصلية أو نسخا منها أعدت فى زمن لاحق • وفى عهد الرومان كان يحتفظ فى اسنا بنصب لتحوتمس الثالث توضح نقوشه نظام تقديم القرابين •

★★★

وأيا كانت طبيعة النصوص او قوامها المادى ، فانها كانت تصدر عن « بيت الحياة » • وهو تلك المؤسسة الرائعة التى يرجع تاريخ ظهورها الى عصور سحيقة • ولكننا لم نعرف القليل عن وجوه نشاطها الا منذ منتصف الألف سنة الثانية — ففى العصر المتاخر ، كان كل معبد فى مصر يملك بيت الحياة الخاص به والمتصل ببيت حياة معبد العاصمة أو المعابد الكبرى والمعابد المجاورة أو تلك التى كانت ترتبط به بروابط متصلة ، كتلك التى كانت على وجه خاص تربط بين كهنة ادفو وكهنة دندرة ، اذ أن حاتحور وحورس اللذين درجا على تقديم العبادة لهما ، كانا يعتبران فى الأساطير زوجين ، ولا يستطيع المرء أن يفسر — الا بفضل وجود جهاز موحد — تطابق صيغ الأسرار المحجوبة (١) التى تتعلق بالمولد الالهى والتى كانت تتلى فى الدير البحرى ثم فى الأقصر بعد ذلك بمائة عام وكذلك النصوص التى توجد فى هيكل ميلاد « نخت نبف » (نختنبو الأول) فى دندرة

---

(١) mystère — مجموعة المبادىء العقيدية او الشعائر التى لا يجب ان يعرفها غير الذين تلقنوها •

وتلك التى توجد فى هيكل ميلاد فيله ، وهما يكادان يكونان معاصرين ولكن تفصل بينهما مسافة تقرب من ثلاثمآئة كيلومتر • وقد كانت هناك هيئة لادارة بيت الحياة كان من أخص مهامها العديدة العكوف على دراسة الآلهة • وقد كانوا يعرفون كيف يحددون للفنانين أشكال هذه الآلهة والمواد التى تصور منها • وقد حرص المصريون دائما أشد الحرص على تشكيل صور الآلهة واقامة المعابد وفق الارشادات التقليدية • وكانوا كذلك على معرفة بعلم اللاهوت الذى كان يحاول النفاذ الى طبيعة الآلهة وتحديد وظائفها وخصائصها • وكانوا يضعون الصلوات التى تقوم بالحفاظ على وجودهم، وشغلوا انفسهم بكل العلوم الملحقة اللازمة لوجوه نشاطهم حتى الطب الذى كان هدفه حماية الانسانية • وكانت « بيوت الحياة » هذه تقوم كذلك بنسخ الكتب المقدسة وتوزيع نسخ متقنة منها على مكتبات المعابد • لقد كانت نوعا من مؤسسات التعليم العالى ، تنهض بنفسها بوضع طبعاتها ، بعد أن تكون قد رجعت الى أعظم الادراج (١) صحة وأكثرها جلالا •

وعلى هذا كانت توجد فى مصر حركة نقل مباشرة بالغة الأهمية للنصوص الأدبية والدينية ، ومع أننا لا نعرف الكثير عن تاريخها الا أننا نستطيع التكهن به • وكما أنه يوجد نوع من الصور الرسمية للمخطوطات الأدبية فى المدارس ، فقد كانت توجد فى « دار الكتب » الملحقة بكل معبد ، مخطوطات دينية تسترعى الانتباه على وجه خاص • ومن سوء الطالع لم تصل الينا أية مكتبة كهنوتية عتيقة ، كاملة • وليس لنا الفرصة المتاحة لعلماء اليونانية أو اللاتينية ، لأن التقاليد الاغريقية واللاتينية استمرت دون انقطاع حتى وصلت الينا • وكم من نصوص اغريقية ثمينة لم نعرفها الا عن طريق مخطوطات ترجع للقرن الخامس

(١) جمع درج بمعنى ما يكتب فيه وهو « ملف » البردى •

عشر ! وعلى هذا فان علم لاهوت مصر القديمة يجب ان يعاد تصنيفه من عناصر متفرقة هياتها لنا الصدفة خلال الحفائر التى تجرى خلسة او الحفائر الرسمية او الصدف التى لا ضابط لها – صدف الحفظ والصيانة – ان مدنا كانت على درجة عظيمة من الاهمية من وجهة النظر الدينية مثل ممفيس أو هليوبوليس قد توارت بطريقة تكاد تكون تامة لأنها كانت قريبة جدا من التجمعات السكنية الحديثة الكبرى • فلم يصل الينا من هذه المراكز الدينية كبيرة الأهمية سوى القليل جدا من النقوش ، بل انه لم تبق لنا بردية واحدة منها • وعلى النقيض من ذلك فانه توجد فى حوزتنا بردية فى الجغرافية الدينية والأسطورية ، فى حالة من الصون رائعة ، عثر عليها فى المقاطعة الثامنة عشرة ، ضئيلة الشأن ، فى مصر العليا • ويجب أن تكون هذه الحقائق ماثلة أمام أذهاننا ، عندما نريد أن نعرض صورة شاملة لآلهة البلاد •

★★★

ما هى الوثائق الأساسية وما الوسيلة الملائمة لفحصها ؟ هذان هما السؤالان اللذان يجب أن نبذل الآن محاولة للاجابة عليهما فى ايجاز •

ان النعوت التى تصاحب أسماء الآلهة ، فى اللوحات التى تزخرف جدران المعابد تتيح فى الكثير الغالب ، اعادة تشكيل علم أساطيرها بل وعقيدتها الدينية • وتتضمن نصوص أعظم استطالة أناشيد صلوات وشعائر ، على الأخص عن آمون أو أوزيريس ، ومسرحيات دينية مثل الشعائر المحجوبة التى تتصل بالمولد الالهى أو تلك التى تدور حول انتصار حورس ، وتقاويم عن الصلوات فى دندرة وادفو وكوم امبو وكذلك عناصر تتيح لنا اعادة وضع مصنف عن الجغرافية الدينية بعنوان : « كتاب البلدان الواقعة فى مصر ووصف كل ما له اتصال بها » • وهكذا كانت رغبة المصريين القدماء فى تخليد عبادتهم بتوضيح قصصها على الحجر ، هى

التى اتاحت لهم ان ينقذوا للخلف كثيرا من الكتب التى كان من الممكن آن تتوارى الى الأبد • وفى حالات استثنائية اجتمعت لنا شذرات من النص المنقوش على الحجر وشذرات من النص المخطوط ، كما هى الحال فى موضوع « حماية المهد الالهى والملكى » •

من الملائم ان يميز جيدا الموضع الذى تحتله النقوش فى المقابر • وعندما يكون الموضوع هيكل العبادة وتطوره ، فاننا لا نستطيع أن نجد غير الشعائر العامة او مشاهد الحياة اليومية ، التى لا يستطيع أن يصل الى مغزاها الرمزى ، الا من تلقنوا العلم به ، ان وجدوا • وعندما تظهر شعيرة فتح الفم فى مقبرة الوزير رخميرع ، فى طيبة ، فانها تكون فى موضع لا يتيسر فيه للزائر أن يقرأها دون أن يصعد اليها على صقالة واذا كان رئيس كهنة تحوت فى هرموبوليس الحكيم والقديس بتوزيرس ، يريد أن يحفر فى الموضع الآساسى فى هيكله الجنازى ، الشعيرة المحجوبة الأوزيرية عن البعث بواسطة الذهب ، فانه يضعها فى صيغة رمزية تماما ويشوه النقوش التى تصحبها ، الى حد لا يستطيع معه آحد فهمها الا من تلقن سرها ، وذلك هو ما فعله بالتحديد فى بداية الأسرة الثامنة عشرة واضع أنشودة آوزيريس المحفوظة فى متحف اللوفر : فقد دفعه وجوب اقامة النصب الذى يحملها فى مكان يمكن آن يصل اليه عدد ما من غير المؤمنين ، الى العناية بحذف كل ما كان يشير اشارة بينة الوضوح لشعائر بعث الاله ، المحجوبة •

آما فى المواضع التى عرف آنه لا يمكن الوصول اليها ، من الأبنية الجنازية وغرف الدفن فى الأهرام والقبور المنحوتة فى الصخر فى وادى الملوك ، Syringes (١) آو

(١) اطلق الاغريق لفظ syringe ومعناه Flute de Pan « ناى الاله بان » على القبور المنحوتة فى الصخر تحت الأرض فى طيبة لملوك مصر الاقدمين • وقد تعرفوا على الاله «من» فى الاله بان الذى كان اله القطعان والرعاة • يرسم بقرنين على راسه وبوجه ملتهب والجزء الأسفل من جسمه يشبه نظيره فى التيس بما فيه الذيل ، يرقص ويعزف على الناى syringe — syrinx - (المترجم) •

المدافن الملكية المتأخرة المقامة فى افنية المعابد كتلك التى توجد فى تانيس ، فانهم لم يترددوا فى نقش الكتب اللازمة لبقاء الملك الى الأبد او نقش أجزاء منها • ولهذا فانه مازال يمكننا أن نقرأ نصوص الأهرام والكتب الجنازية الملكية التى ترجع لعهد الامبراطورية الحديثة : كتاب الأبواب ، كتاب الكهوف، كتاب ذاك الذى يوجد فىالآخرة ، كتاب النهار والليل وأوراد الشمس •

والواقع ، أن مشكلة العبادة الجنازية التى كانت ضرورية للخلود لم توضع بالنسبة للملوك كما كانت توضع بالنسبة للأفراد • فقد كانت الاوقاف الملكية الباذخة تطمئن الى أن الملوك لن يحرموا بتاتا من هذه الخدمة الدينية • ولكن عندما أدرك المرء أن الفراعنة أنفسهم لم يكونوا قط فى حمى من النسيان كما لم تكن معابدهم بمنأى من الدمار أو النهب ، فقد اتجه الظن الى أن العبادة التى تؤدى للسلف وتقام فى المعابد الحاضرة يمكن أن تكون بديلا فى مثل هذا الموقف البغيض • ولاشك فى أن اعتبارات من هذا القبيل ـ الى جانب ظروف الدلتا الجغرافية ـ هى التى دعت فى العصور المتأخرة الى دفن الملوك فى أفنية معابد الآلهة حتى يستطيع أولئك وهؤلاء التبرك بالعبادة(*) • وكان الأمر على نقيض ذلك فيما يتعلق بالأفراد العاديين ، فقد كان من اللازم أن يلج الكهنة أو أشخاص أولو علم وتقوى هياكلهم لتلاوة الصيغ المخصصة ، مع ذكر أسمائهم حتى يمكن جلب القرابين • وكذلك كان من اللازم أن يكون الوصول الى هذه الهياكل ميسورا وألا تشى بأى سر من أسرار شعائر أوزيريس المحجوبة التى وجدت منذ زمن باكر جدا • ولقد عنوا بأن يصوروا على تابوت الميت الكتب الخفية الهامة لبقائه • ولدينا مجموعة طويلة جدا يطلق عليها « نصوص

(*) امتد هذا الى الأفراد الذين حرصوا على وضع تماثيل لهم فى الفنية •

النواويس(١) » أخـذت من كتاب (نصـوص) « الاهرام الملكيـة » ووضعت بحيث تلائم الافراد ، وهـذه المجموعة كاملة بفضل النسخ العديدة المتماثلة التى توجد بين ايدينا على عدد كبير جدا من التوابيت الخشبية المغشاة بالجص التى ترجع للدولة الوسطى • وتتصف هذه المجموعات من الصيغ الموضوعة للميت بالثراء الكبير ، لأنها مأخوذة عن اصول جد متباينة : فعندما تحاول أن تطابق بين شـخصيتى الميت والاله الخالق للبدايات الأولى (٢) ، فانها تنقل مقتبسات من مصنفات تتعلق بالخلق • وعنـدما تلحقـه بنمـوذج الاله حورس فانها تسـتخدم شعائر محجوبة دينية قديمـة تشيد بانتصار هذا الاله • وهـكذا نستطيع أن نكـون فكرة عن اللاهوت والأساطير فى هاتيك العصور القديمة •

ولو أن كمية أدراج البردى التى عثرنا عليها لا تمثل ، دون أى ريب ، الا نسبة ضئيلة من تلك التى كانت توجـد فيما مضى ، وعلى الرغم من أن بعضها جاءنا بالغ التشويه ، فانها مازالت تؤلف مصدرا عظيما لمعلوماتنا عن آلهة قدماء المصريين • ومع هـذا ، فان ملاحظة تفـرض نفسـها من البداية : فبينما وصلت الينا كمية عظيمة من مصر العليا ومن الفيوم فاننا لا نكاد نملك منها شيئا من الدلتا وذلك لأن المناخ فيها أكثر رطوبة ولأن سكانها ، وهم فى جميع الأزمنة أكثر كثافة قاموا بالكثير من أعمال النهب فى المواقع الأثرية • وقد بقيت معارفنا محدودة من الناحيـة الدينيـة

---

(١) فى كتاب « الهرم الدفين » خصصت لفظ ناووس ليؤدى معنى Sarcophage للتفرقة بينه وبين لفظ Cercueil-coffin تابوت •

(راجع الهرم الدفين ـ ص : ١٦) وذكرت ان اللفظ الالمانى ناوس Naus أخذ عن العربية ـ (المترجم) •

(٢) Démiurge ـ الاله الخالق ورد فى الفلسفة الافلاطونية • وفى القرون الأولى من المسيحية ظهر مذهب فلسفى كان اشياعه يضعون المعرفة فى المرتبة الأولى من بين الفضائل الدينية ولهذا اطلق عليهم Gnostics • وكانوا يؤمنون بالهين عظيمين : الاول هو الاله المتعالى والثانى هو الاله الخالق demiurge ـ (المترجم) •

عن مراكز مثل (صا الحجر) (سـايس) و (تل بسـطه) (بوباسطس) وابو صير ، التى اختفت معـابدها أو كادت رغم ضخامتها ، والتى لا يوجد أى درج من البردى يوضـح لنا لاهوتها ، لان مصادرنا تتالف بصمه فريدة من تلميحات الى الهتهـا جاءت فى وثائق عثر عليها فى امكنـة اخـرى أصابها ضرر اقل ٠

لقد توافرت نسخ كتاب الموتى حتى العصر المتأخر وان يكن من الضرورى اصدار طبعة كاملة دقيقة لها ٠ وما اسرع ما تتيح محتويات فصوله المتغايرة التعمق فى معرفة الالهه المصرية التى تشكل على الدوام النماذج التى يسعى الميت الى التوافق معها أو اذابة كيانه فيها !٠ ويجد المرء فيها أناشيد وبحوثا عن الخلق تمليها تفسيرات متعاقبة ، وإشارات عن مختلف الآلهة التى يطمح الميت فى إتخاذ سلطاتها ٠ ولـكن هذا الحشو ، المأخوذ جزئيا عن نقوش النواويس ، يتضاءل أمام كتابات أكثر أصالة ٠

ومن بين أعظمها أهمية الأناشيد التعبدية : تلك التى كانت تتلى للاله «حعبى» وهو النيل الذى يغمر مصر بفيضه، فى عيد الفيضان ، والأنشودة التى كانت تغنى لآمون اله طيبة ، ملك الآلهة ، المحفوظة فى مخطوط جميـل بمتحف القاهرة ، والأناشيد التى كان المرء يترنم بها للاله بتاح ، اله الحاضرة القديمة ممفيس ، فى المعبد الذى خصص له فى الكرنك على مقربة من آمون ٠ ولو أن غزارة علمها اللاهوتى لا تضارع ، فانها تتعمق الى غـور أقل فى المعـرفة الالهية بالموازنة بمصنفات آخرى مماثلة يرجع مصدرها ، عـلى الدوام ، الى كهنة طيبة ولكن تتجاوز فى طولها الحد الذى يمكن أن تنشد معه فى الأعياد ٠ مثل بردية ليدن الشـهيرة التى تتضمن « مائة نشيد لآمون » فهى تبدأ باستغلال المعنى الرمزى للأرقام التى تسـتهل بها المقطـوعات ، لتنفذ الى مجموعة من تفسيرات مجملة غالبا ما تكون ذات عمق عظيم

وسمو عظيم ، عن الإله « الحمي » و « الاحد » • وتكملهـا أناشـيد بـرديان تشسـتر بيتى Chester Beathy ، التى لم يتردد جاردنر في وصفها بأنها تنتمى الى «مذهب التوحيد» • وفي استطاعتنا أن نضفى عليها اسم القصائد اللاهوتية او الفلسفية •

تملك متاحفنا عـدة نسخ رائعة الجمال من الشـعيرة الالهية اليومية لآمون وقرينته «موت» وكذلك شعيرة لامنحتب الأول المؤله • وتمثل مراثى ايزيس ونفتيس أمام جسـمى أوزيريس و « كتاب صد ابوفيس » التنين الذى يحاول ابتلاع مـركب الشـمس وبردية هاريس Harris السحرية وعناصر مسرحية دينية تؤدى أدوارها عند التتويج الملكى ، مجموعة من الوثائق الهامة التى تعين على تعمق جوهر الالهة ، عـلى وجه أفضل ، عن طريق العبادة التى كانت تقـدم لنـا • وهنالك قصص قد لا تبدى احتراما للآلهة آكثر مما يفعـل أحيانا هوميروس أو أرسـطوفان ، لكنهـا تسرد مغـامرات أسطورية متتابعة ، مثـل قصـة حورس و « ست » (Seth) أو قصة رع وايزيس • وهى بذلك تجنبنا الاقتصار عـلى القصص الاغريقية ، عنـدما توجد ، كعجالة بلوتارخ عن ايزيس وأوزيريس •

وليست البرديات التى يطلق عليهـا برديات بحـيرة موريس وبرديات تبتونيس Tebtynis (١) أو بردية يوميلهاك Jumilhac سـوى كتب دراسـية عن الجغرافيـة الدينية المحلية ، وتعدد بردية هاريس الكبرى ـ التى يتجاوز طولها أربعين مترا ـ منشـآت رمسـيس الثالث الدينية ، بينما تستهل المراسيم الكهنية التى تتعلق ب « بانجم » أو ب « نسى ـ خنسو » بأناشيد لآمون التى تمثـل جـزءا من اللاهـوت الخالص •

---

(١) أم البرجات بالفيوم •

ويجب ان يضاف الى هذا مصنفات تكاثر عـددها في عهد الامبراطوريه الحديثة : كمجموعه القطع المختارة التى كان الهدف منها تدريب الكتاب الاحداث على صوغ الاسلوب الجميل . وهي تحوى عددا لا باس به من الشذرات الدينيه · وتوضح حتى قصص الحروب ورحلات الصيد الملكية كيف انها وضعت من خلال منظور ديني ، لقد كان الشعب بأجمعه اسير شبكة اسطورية ترغمه على تنظيم كل وجوه نشاطه حتى اكثرها بساطة ودنيـوية في ظاهرها ، بحيث تتناسـق مع النماذج الالهية ، فقد كانت هذه الوسيله الوحيدة التى تتيح لها فرصة للنجاح · ووصل الامر الى انه لا توجد وثيقة مهما كانت ضئيلة ، لا يمكن ان تهيىء عنصرا يفيد منه بحثنا · وكثيرا ما تتيح لنا شـذرات من تمثال والقـاب أشـخاص منقوشة على الجزء الخلفي من تمثال مهشم ، وكل هذه المواد التى تودعها المتاحف فى المخازن، أن نقوم بعمل أبحاث دقيقة قيمة وقد تقودنا . على سبيل المثال ، الى أصغر معابد الدلتا التى لا نعرف عنها الا القليل · ويعرف المرء الأهمية التى يمكن أن توجد فى أيامنا فى القيام بدراسة منظمة لأمكنـة العبادة . التى مازال المرء فى أوربا يغشاها فى أوقات معلومة من السنة للاحتفال بعيد · وقد يستطيع المرء الرجوع أحيانا الى أبعد أزمنة ما قبل التاريخ ·

★★★

وكذلك فعلى الرغم من الخسائر الهائلة التي لحقت بالأدب القديم والفجوات العظيمة في معلوماتنـا ، فاننا بالحـرى نرزح تحت كوم الوثائق الأدبية والجنائزية ، أو التى تعالج الحياة اليومية والمنقوشة على الأحجار فى الوقت الذى نضع فيه قائمة لآلهة مصر · وما أكثر الصور المتناقضة التى قدمت لنا عنها فعلا منذ ما يقرب من مائة عام ! · وقد ذهب أوائل مترجمى النصوص الدينية من آمثال دى روجيه De Raugé وبروجش Prugsch ــ الذين تأثروا بما خلفه لنا الكتـاب

الاغريق فى العصر المتأخر واستمدوا علمهم بطريق مباشر على الأخص من نقوش المعابد التى أقيمت فى العصر اليونانى الرومانى ، الى أن الدين المصرى عقيدة بالغة السمو ، باله أوحد وخالق يتجلى فى طائفة من الآلهة الثانوية التى تتساوى مع البشر فى أنها من خلقه • ولا شىء أعظم مغزى فى هذا المجال من كتاب صغير وضعه بيريه Pierret ونشر فى عام ١٨٧٩ بعنوان « عجالة عن الأساطير المصرية Essai sur la mythologie égyptienne » حيث تسترعى الانتباه تلك النصوص التى يذكرها المؤلف والتى مازالت ترجمتها ، فى مجموعها ، قيمة ، وقد حدث فى ختام القرن رد فعل عنيف بتأثير المذهب الوضعى (١) • لقد حاول ماسبيرو ـ كقارىء للنقوش العتيقة وعلى الأخص نصوص الأهرام التى كشف عنها ونشرها ، أن يوضح ان الديانة المصرية لم تكن الا نوعا من عبادة أشياء مؤلهة Fétichisme (٢) • وأن تلك الآلهة التى كانت لها رءوس وحوش كانت حيوانات تتصورها أخيلتهم • وكان مما يبعث الرضى فى النفس أن يراود المرء التفكير أنه فى عصر فى مثل هذا القدم ، كان ذكاء الانسان أقل تقدما وأنه ظل سائرا فى مدرجة الرقى دون انقطاع حتى وصل فى النهاية على أيدى الاغريق الى تصور آلهة ذات خصال انسانية خالصة • واختلط بهذا مذهب فريزر عن الطوطمية « totémisme » (٣) •

---

(١) Positivisme : الوضعية ـ مذهب « اوجست كونت » الذى ينكر الميتافيزيقا ويقيم المعرفة على الوقائع والتجربة ـ (المترجم) •

(٢) fétichisme ، هو فى مبدئه الاعتقاد بان الاستحواذ على شىء ما يمكن أن يجلب للحائز عون او حماية الروح أو الملاك الحارس الذى يستقر فى ذلك الشىء • واللفظ fetiche, fetich, fetisch الذى أطلقه البرتغاليون على آلهة غربى افريقيا ، عن feitico ، اصطناعى المشتق من اللفظ اللاتينى facere factitius يصنع ـ (المترجم) •

(٣) فريزر : (الطوطمية والزواج بغير ذوى القربى ١٩١٠) •
الطوطم اى نوع من الأشياء الحية أو الجماد تعتبره بعض العشائر وعلى الأخص فى امريكا الشمالية الرمز لرابطة وثيقة غير منظورة • و totémisme استخدام الطواطم كأساس لنظام اجتماعى فيه التزامات ومحظورات •

كانت مصر حقل أحلام لهواة الطواطم بشارات كل واحدة من مقاطعاتها . وعلى هذا النحو كان التفكير الدينى المصرى يتناول بالشرح ، عن طريق تفسيرات صاغها المحدثون لفهم عادات غير معروفة تماما على الوجه الصحيح فى كثير من الأحيان ، عند شعوب متأخرة فى أيامنا ! وفى غضون هذا الزمن كانت تتراكم وثائق ، نشرت ، فى أناة ونسخت وعلق عليها . لقد كشفت ومازالت تكشف فى اطراد لا ينى يتزايد ، عن لغة مرنة ومعقدة مازلنا حتى الآن على شوط بعيد من تعمق كل ظلال معانيها ، وعن تفكير فى نهج عقلى لا يختلف فى جوهره عن تفكيرنا ، وعن فن فيه دقة بالغة ، قادر على أن يلج بنا فى عالم من المعانى والرموز كثيرا ما تكون دقيقة ، وعن أدب رائع فى لطف معانيه النفسية واشراق ديباجة أسلوبه ورفعته الخلقية ، وعن فكر سياسى وفكر قضائى نجحا فى خلق حضارة استطاعت خصائصها الذاتية أن تقوم بالحفاظ على نفسها خلال تطور دام ثلاثة آلاف عام ونيفا . فما وجه العجب اذن فى أن يتمشى الدين الذى يتكشف بالبحث المطرد ، مع الصورة التى تقدمها لنا وجوه النشاط العقلية الأخرى فى مصر القديمة ؟

انه من غير المجدى أن نغامر بأنفسنا فى نظريات عنى بوضعها الفلاسفة منذ عهود التاريخ المتعددة . وعلى شريطة أن نظل متواضعين أمام النصوص والآثار وأن نهيىء أنفسنا ليلهمانا ـ دون أن ندرى ـ المعرفة بدلا عن أن نفرض عليهما ، بأى ثمن ، تصوراتنا التى سبق اصطناعها فاننا نرى أن صورة تتشكل فى أنفسنا شيئا فشيئا ، قد تصححها قراءاتنا اليومية والوثائق الجديدة أو تكملها، ولكن خطوطها الأساسية تظل باقية .

على ان علينا ، ونحن نتشكل معارفنا ، ان نشير من الآن الى وجود بعض العقبات ، ذلك انه على الرغم من وفرة المصادر الا انها تكون احيانا فى شذرات متناثرة حتى ان معلوماتنا تكشف عن فجوات محيرة محزنة ، فنحن نملك . على سبيل المثال ، نقوش معبد اقيم خصيصا للاله « سبك » sobek ، ومجموعة من الاناشيد تتغنى بحمده • ومع هذا فاننا نجهل من كانت الاساطير تجعله أبا له حتى أن الاشارة الواحدة التي توجد لدينا عنه فى درج من البردى ينتمى الى الأدب وليس للكهنوت ، مازالت بالنسبة لنا اشارة بالغة الغموض •

ان مسألة الترتيب الزمني مشكلة رئيسيه • ولكن لا يكاد يوجد حل لها ، لعدم وجود وثائق متتابعه • ومن الجلى ان معاصرا لهوميروس لم يكن يفكر فى الالهة تفكير معاصر لبركليس • ولكن كيف السبيل الى معرفة ما اضافه كل جيل الى الايمان الذى يتعلق باله ؟ فعندما يظهر نعت الهى لأول مرة ، لا يوجد شيء يبرهن على أنه لم يكن له وجود زمنا طويلا قبل ذلك • فقد يكون سحيق القدم • وبخلاف هذا ، كان يعاد انتساخ نصوص عتيقة ويحتفظ بها لانها تؤلف جزءا من الثروات الدينية التقليدية حتى لو آن الرأى عن الموضوع قد تطور • ومن المؤكد آن نصوص الأهرام تتضمن صيغا عتيقة تماما لم تعد تمثل العقلية المتطورة عند أولئك الذين اشاروا بنقشها ، وما كان مصرى الأسرة الخامسة محب البذخ والباحث عن آدب سلوك لا يقوم على العدالة وحدها بل وعلى الاحسان أيضا وواضع فكرة عن الاله بالغة السمو ، بالغة التهذيب ، ما كان ليقوم بنسخ الاهانات المنحطة الموجهة لبعض آلهة الملحمة الأوزيرية ، فى فقرات معينة ، الا لأنها كانت تقليدية • على نحو ما تفعل الكنيسة الرومانية فى زمننا عندما تدمج فى صلاتها شذرات من التوراة ؛ لم تعد تتطابق مع عاداتنا ولكنها استخدمت فى الواقع ؛ لأنها تنتمى الى قواعد الايمان التى

جاءت فى التوراة والانجيل ويجب أن تفسر فى معنى مجال النص الذى استخدمت فيه ٠

وعلى هذا يجب ان نحاول وصف تطـور المعتقـدات ٠ فاذا لم يكن هذا فى استطاعتنا ، فيجب على الأقل بذل الجهد لتاريخ الخصائص البارزة التي نتبينها ٠ ولـكن فى هـذا أيضا ، ما اكثر ما يوجـد من صنوف عدم التيقن ! لم يكن أفلاطون يرى فى الآلهة ما كان يقره معاصروه ٠ وليست البحـوث الدينية للمهندسـين المعماريين « سوتى » Souti وحور Hor أو التطورات الخلقية التى قدمهـا « بكى » Beki الا أعمال حكماء وأناس بذلوا الجهد لفهم عقيدتهم والحياة وفقا لها على قدر ما يستطاع من التعمق ٠ انهم لم يكونوا سوى اقلية ، دون اى ريب ٠ وكذلك كما يرى فى أيامنا يجب ان نضع موضع الاعتبار ان ما هو الهى يتركز فى الضمير الدينى فى أسمى صوره ؛ فلا يتبدد الى نثار من الصور التى تستحيل أحيانا الى مجرد خرافة خالصة ٠ وهنا نعبر حدود الدين والآلهـة ونهبط الى تلك الأرواح وتلك الشـياطين التى ملأ بها خيال المصريين المحمـوم فى زمن الامبراطورية الرومانية المتأخر ، أدراج البردى السحرية ٠ وليس لنا أن نغامر بأنفسنا هنا فى ولوج تلك الأصقاع التى تكتنفها الشكوك ٠

الفصل الثانى

● كيف نعالج موضوع جماعة الآلهة المصرية
مناهج علماء اللاهوت القدامى

عندما يتصل المرء لأول مرة بعالم الآلهة فى مصر القديمة ، فانه يقع فى شىء من الحيرة أمام هذه الوفرة من المعبودات والحيوانات الالهية او المقدسة والآلهة التى تتخذ، فى كثير أو قليل ، شكل الحيوان • ويدور فى خلد المرء تجاه مثل هذا الخليط المتراكم من الأوصاف والنعوت والشعارات المميزة ، فى حدود متفاوتة ، ان يفكر فى « ديانات مصرية » وتلك نظرة سطحية تماما للأشياء ، يمكن أن تؤدى كذلك للتحدث عن « ديانات مسيحية » • وليفكر الانسان لحظة فى الدهشة التى تلم بصينى ، عالم بالأمور التى تتصل ببلده ولكنه يجهل كل ما يتعلق بنا ، حين يكون عليه أن يدرس الدين الكاثوليكى الرومانى فى فرنسا •

سيدرك بادىء ذى بدء مقدار العبادات المحلية • فكم عدد كنائس العذراء الذى لا يستطيع المرء احصاءه وكم عدد القديسين الذين تطلق أسماؤهم على أكثر كنائسنا تواضعا فى الريف ، والذين يستحوذ كثير منهم على خصائص محددة تمام التحديد ؟ منهم من يعيد الرشد الى أولئك الذين فقدوه بشرط أن يولجوا رءوسهم خلال ثقب منحوت فى بلاطة فى كنيستهم • وآخرون يشفون أمراض الأطفال خاصة ، وسكان القرى يحجون الى كنائس منعزلة فى الخلاء ، تقع قريبا منهم

وذلك فى اوقات معلومة من العام · ان اكثرها هياكل للعذراء جاءت فى اعقاب معابد للآلهات ـ الامهــات التى ترجع الى عهد ما قبل المســيحية · واذا كانت العبــادة التى تؤدى فى هذه الكنائس تتشابه تقريبا ، فان كلا منها يحتفظ مع ذلك بمراسم خاصة به ، وترجع الى ازمنة لا تعيها الذاكرة · انه لحق أن الاشـــارات والرموز الدينيـــة هى التى تحتفظ الانسانية بذكراها أطول زمن ·

هل يمكن ان يكون ذلك سببا للتحـــدث عن « ديانات » بصيغة الجمع ؟ · اننا نعلم ان الأمر ليس كذلك لانه يوجد كثيرون بيننا مازالوا يعيشون ذلك الدين بطريقة شخصية وروحية · أن صورة حمل او حمامة او وعل لا تزعجهم كما كان المصريون المثقفون والمهذبون لا يضيقون بالعجل «أبيس» أو كبش خنـــوم · فلنحاول اذن فى البـــداية أن نرى كيف تنتظم جماعة الآلهة المصرية · واذا كنا لا نستطيع أن نعيش ذلك الدين روحيا ، فانه فى قدرتنا على الأقل محاولة فهمه ·

★★★

وفى البداية نقول ان ما يلفت النظر فى مصر ، هـــو الدور الذى تقوم به الألهة المحلية · فقد كان لكل مدينـــة الهها أو الهتها · كانت مدينة بوتو (١) فى أقصى الشـــمال تعبد الهة لها شكل ثعبان وتستوى على ساق بردى · وفى منديس كان يسود اله له مظهر تيس · وفى هليوبوليس كان أتوم يتخذ شكلا آدميا على الأقل فى العصر التاريخى · وفى اطفيح كان لحاتحور الهة الحب وجه امرأة ، وان برزت من شـــعرها المســـتعار ، أذنا بقـــرة · وكانت هيراكليوبوليس (اهناسيا المدينة) تقدم عبادة للاله الكبش حرسافس (حرى شف) · وكان تحوت وله رأس أبى منجل رب هرموبولس (الأشمونين) · وفى أسيوط كان افويس (Ophois) (أو بواوات)

---

(١) ابطو بالقرب من تل الفراعين ـ احتفظت بالاسم ·

يبدو في مظهر ابن آوى . وكان لحورس ادفو حيوان مقدس هو الصقر الذى هيأ مصوروه وضع راسه على جسمه البشرى . وكان خنوم فى اسنا او فى الفنتين يبدو براس كبش . أما الآلهة المسماة بحورس بالنوبة فكانت دائما تتميز بمدنها التى نشأت فيها . وعلى هذا ، فان لهذه الجغرافية الدينية بالغ الأهمية . لقد قامت الأمكنة المقدسة فى مصر بدور جد عظيم . ولابد أنها وجدت منذ أبعد عهود ما قبل التاريخ ، وحتى اذا كانت الآلهة التى تعبد فيها تغيرت . فانها ظلت عزيزة لدى القوى غير المرئية وواصل الناس ــ على الرغم من حركة التاريخ الدائمة ــ تقديم العبادة لها .

على أننا نكتشف هذه التغيرات أكثر مما نعرفها . فنحن نخمن أن أوزيريس حل محل عنجتى (Andgety) فى أبى صير (أبوصير بنا) ، فى الدلتا ومحل خنتى منيتو Khenty Amentyou أى الذى يرأس سكان الغرب » ، فى ابيدوس بمصر العليا . وفى ابان العصر التاريخى ، فى الدولة القديمة ، استعلى رع على اتوم فى هليوبوليس . ولكن حتى فى هذه الحالة الممتازة ، لا نصل الى ادراك السبب الذى دعا مدينة معينة الى اتخاذ اله جديد . يجب ان يكون هناك شىء فى امكانه تقديم العون لنا . انه الأصل المشتق منه أسماء الآلهة . ان بعضها ينتمى ، فى جلاء ، الى اللغة المصرية . ان رع هو الاسم الشائع للشمس . وآمون مستمد من الأصل « امن » أى الخفى ، وأتوم من « تم » ، أى الكامل ، وأفويس معناه فاتح الطرق . ونفتيس سيدة المسكن ، وحاتحور مسكن حورس ، وفى الواقع أنه لا يوجد ما يؤكد لنا أن هذه ليست الا البسة مصرية أضفيت على آلهة سابقة . وعلى أية حال ، فان بعض الأسماء الالهية ينم عن أصل سابق للمصرية : ان حعبى (HAPY) اله النيل فى الفيضان ليس مصريا على اليقين(١) .

(١) لدى من الأسانيد ما يجعلنى أخالف المؤلف فى هذا . وقد أوردت حاشية فى آخر الكتاب عن مرجع هذه الأسماء للغة العربية ــ (المترجم) .

و « مين » اله قفط يبدو انه جاء من الاقاليم الصحراوية ، التى يقطن بها الزنوج في الجنــوب ، واحتفظ دون ريب باسمه الاجنبى • ويبـــدو من غــير الممـــكن تفسير نايت وأوزيريس باللغة المصرية •

ولــكن ملاحظــة يجب ابداؤها هنا • هي ان كثيرا من الآلهة لا تحمل اسمها الحقيقى • وقد كان الاسم يحمل عند الاقدمين ذات الشيء وجــوهره ، ويمنح من يعــرفه بعض القدرة على هذا الشيء • وعلى هذا كان من الاهمية البالغه آلا يباح باسمه الحقيقى الى اى كائن مهما كان • وقد عرف التاريخ كيف يتكشف اسماء آلهة وعبادات مازالت متشابكة الخيوط • وقد قدم « لاكو » افتراضا بارعا لو تاكدت صحته لألقى الينا ببعض الضوء • فقد لاحظ أن الكتابة الصحيحة القديمة لأسماء خنوم واتوم وانوبس (Anubis) وآمون وسبدو (Sopdou) ومنتو (Montou) وما اليها كانت توجد فى اخرها (و) ، من شأنها أن تجعل حامل الاسم ينتسب بالقــرابة لحيوان معين • وعــلى هــذا يكون معنى خنومو « ذاك الذى ينتسب للكبش » ، وأنوبو (Anoupou) « ذاك الذى ينتسب لابن آوى » وهكذا •

ومن ســوء الطالع أن أصــل الأســماء الالهية ــ فيما عدا اسم خنوم ــ لا يطابق اسم اى حيوان معروف فى اللغة المصرية أو في آية لغــة أخرى من مجموعتهــا الحاميــة ــ السامية (١) •

لنقلع عن الأمل في أن نصل الى حالة عتيقة ، سـابقة للغة المصرية ، يمكن أن يكون فيها القول الفصل (٢) • ان الدين الذى نعالج موضوعه ، قد بلغ الغاية فى تطوره كمـا

(١) انها تطابق اسماء الحيوان كما جاءت فى المصادر العربية كالدميرى والجاحظ والقزوينى وهكذا • أو اسماء الاصنام التى عبدها العرب فى الجاهلية أو لها معنى واضح فى اللغة العربية • وقد اصبح انتساب اللغة المصرية للحامية خرافة ــ (المترجم) •

(٢) فى اللغة العربية حل لجميع مشكلات اللغة المصرية القديمة ــ (المترجم) •

أن الخصائص التي كانت له في الدولة القديمة ، خلال الالف سنة الثالثة ، تماثل في مجموعها الخصائص التي بدا فيها في العصر المتأخر في وقت مولد المسيحية .

من الأفضل ان نحاول ان نتبين بعض ملامح هذه الكتلة الضخمة من الآلهة المصرية . وتبدأ بالطائفة العظيمة ، من الآلهة المحلية التي قمنا بتقسيمها والمعروفة جيدا في كل مدينة أو حتى في الصحراء . ثم هناك مجموعة ثانية من المعبودات شائعة في مصر بأكملها . ولها سمات جغرافية مثل حعبي (Hâpy) ، النيل ، أو زراعية مثل : أخت (Akhet) أي المرعي ، ونبري (Nepri) ، الحنطة وارموثيس (Ermouthis) (رننوث ، رنوت ، رننت) أي الحصاد ، وغيرها مألوفة ، تويرس (Touéris) (تا ــ ورت) ، أي فرس النهر الانثي ، وهي تحمي الحبالى ، ومسخنت (Meskhenet) وتحمي حالات الوضع ــ وبس (Bès) قزم عجيب الشكل ، يحمي من المؤثرات الخبيثة .

وقد انضم الى هذه الآلهة الوطنية ، في غضون التاريخ ، بعض المعبودات الأجنبية التي استعيرت من الشعوب المجاورة وتمصرت الى حد ما : ووصل من العالم السامي بعل وعنات Anat (١) وعشتاروت . ووصل من سكان أعالي النيل ، ددون (Dedoun) وانوكس (Anoukis) (عنقت) . ووصل غيرها من ليبيا . وأحيانا رفع بعض الناس وبعض الملوك الى مرتبة الآلهة السماوية : اموثيس (امحتب) ، المهندس المعماري ذائع الصيت للملك زوسر ، وامنوثيس (امنحتب) بن حابو وزير امنوفيس (امنحتب) الثالث وسيزوستريس (سنوسرت) الثالث أو امنوفيس (امنحتب) الأول .

---

(١) كتبت « عنت » في اللغة المصرية واقدم ذكر لها يرجع لعهد الامبراطورية . (المترجم) .

وأخيرا اذا ولجنا المعابد وسمح لنا أن نقرأ النقوش التى تزخرفها ، او فتحت لنا المكتبة المقدسة ، فان امرين يكون لهما وقع فى نفوسنا : الامر الأول هو أن الآلهة المحلية فى بعض المدارس اللاهوتية العظيمة توجد فى اسمى رتبة فى جميع المصنفات اللاهوتية : فرع اله هليوبولس ، وتحوت (Thot) اله هرموبولس ، تقدم لهما العبادة فى كل مكان ·

وعندما يلم المرء بعلم لاهوتها فانه يتبين خصائص لها فى كل مكان · ثم اننا سنجد معبودات ليست لها أية عبادة محلية محددة وقديمة · ولكن اسمها جلى فى اللغة المصرية ، وهى العناصر الأربعة التى ألهت : الأرض والسماء والهواء والماء والمحيط الأزلى تصوروها فى أشكال مختلفة ، نون (Noun) ومثير (Methyer) ، ومعيار العالم : ماعت (Maât) والتصور العقلى ، سيا (Sia) ، والكلمة الخالقة حو (Hou) .

وأخيرا نخص بالذكر آلهة الامبراطورية العظام ، بتاح (Ptah) وآمون وأتون · وقد ارتقت بتطور التاريخ الى أعظم المصائر رفعة ، رأت الكهنة يعمقون أغوار طبائعها وينسبون اليها علم لاهوت المراكز (الدينية) العظيمة ، التى عرفت كيف تضع الآراء عن الطبيعة الالهية وتنصب فى النهاية فى تيار علم لاهوت عظيم ، يمكن أن يقال عنه انه شائع لدى كل الانسانية المتاملة · وقد استطاع احد الملوك أن يقدم لواحد من هذه الآلهة ــ آتون ــ فى آدعيته التى كرسها له كامل تجربته الدينية الشخصية ، دون أن يجعل له ميتافيزيقا أصيلة ·

ومع هذا ، فاننا اذا أردنا التوغل فى خفايا فكر دينى كامل يلزمنا أن نقوم بخطوة أولى · يجب أن نبذل جهدا لفهم المناهج العقلية فى التفكير المصرى القديم ·

لم تكن اللغة المصرية فى العصر القديم تعرف التجريد وعندما كانت تريد التعبير عن فكرة ، كانت تستخدم لفظا

معينا محسوسا . وعلى ذلك فان فكرة التفكير والذكاء كان يعبر عنهما بلفظ « قلب » الذى كان يظن المصريون انه مقرهما . ان جزءا كبيرا من ألفاظنا المجردة يرجع الى هذا المصدر عينه : ان ألفاظ فكرة (idée) وفهم (comprendre) وعقل (raison) كانت في الأصل أمورا أو عمليات معينة محسوسة تماما . وفى عصر قطع شوطا فى التقدم ، فى آخر الألف سنة الثانية ، حاول المصرى صوغ اسماء مجردة ، substantifs abstraits بأن درج على أن يسبق الاسماء المعينة المحسوسة substantifs concrets أو الصفات بلفظ « شيء » ، الغامض كل الغموض . وعلى هذا فان عبارة «كل شيء ميت» كانت تعادل «الموت» و « كل شيء سيىء » تعادل كل «السوء» ولكن هذا النهج لم يبلغ الغاية حقا الا فى اللغة القبطية . وتظل اللغة المصرية حتى النهاية تركيبية وليست تحليلية . وعلى هذا فان التفكير الذى تترجم عنه سيكون له القليل من صفة التجريد . انه لا يزال قريبا جدا من التجربة ويبدو بالحرى من خلال صور ورموز أكثر منه في تعابير تحليلية ، فلا توجد ألفاظ لقول : قوة وعناية الهية .. ولهذا كان على المصرى أن يبحث عن صور لتأدية آرائه . وقد لجأ للتعبير عن قدرة اله ، الى القول بأنه ثور ، دون أن يزعجه عدم توافق الصورة مع مجال النص : وعلى هذا النحو قال عن تحوت اله القمر انه «ثور النجوم» ، كما لجأ للايحاء بالعناية الربانية لاله الى تصويره فى صورة راع . ولكن المرء يرى فى الحال أن هذه الصور ، مع ما فيها من ايحاء ، يصيبها العرج على الدوام فى ناحية ما . فالثور رمز القدرة ، وفى ايجاز ، بهجمته وقوته . غير أنه يمكن أيضا أن يكون رمزا للقدرة التناسلية . وعلى هذا يعدل الوضع بصورة قريبة فيقال ان الاله هو أيضا أسد .

ان هذا المنهاج هو الذى يفسر الغـرابة الظاهرية فى كثير من النصوص الدينية • ويصف شاعر لاهوتى امون فى منظومة تتحدث عن قدرته المطلقة المخيفه على التعاقب بانه أسد ذو نظرة متوحشة ، وثور فى حالة انتصاب ، وتمساح يسرق ويذهب بمن يهاجمه • وهذه الصور المتعاقبة تصحح الواحدة الأخرى ثم تكملها لتشكل لوحة نهائية تثير المشاعر • « أن الجبال تهتز من تحته فى ثورة غضبه • والارض ترتعد عندما تسمع زئيره » (ويمكن ايضا ان يترجم اللفظ : خواره) (١) • • • انه كفء بقرنيه » •

وعلى هذا ، فانه من خلال عدم التماسك ، الذى أريد وسعى اليه ، فى هذه الصور التى تضمنها تأليف جد رائع وبذل الجهد فى وضعه ، يجب علينا ان نبحث عن الحقيقه التى لا تنقلها على الوجه الاكمل واحدة منها والتى توجد فى ناحية ما بين الرسوم المتعاقبة ، غير القابلة للتراكيب ، التى عرضناها •

وعلى هذا فان المصرى لم يحاول اطلاقا ، على نقيض الاغريقى ، ان يحدد الحقيقة اللاهوتية بطريقة تحليلية ومن الداخل • بل يحاول الاحاطة بها من الخارج بواسطة صور موضوعة الواحدة الى جانب الأخرى ، تكمن هى خلفها • كان الاله الخالق ، عند علماء اللاهوت القدامى يستحوذ على الأبدية ، وتفسير هذا بالنسبة لنا أنه لم تكن له على الاطلاق بداية ولن تكون له نهاية قط • وفضلا عن هذا فانهم لم يكونوا يتصورون تلك الأبدية كأنها غير متحركة • لقد كانت بالحرى تنعكس فى حركة السماء التى لا انقطاع لها ولكن لا حيد عنها والتى يثير انتظامها فكرة تطور مستمر متعادل ومتماثل مع ذاته • ثم شبهوا الخالق بالشمس وعرضوا الفكرة على هذا النحو فى منهج معين محسوس :

---

(١) اللفظ فى اللغة المصرية هو خرو ، ويقابل فى اللغة العربية خوار - (المترجم) •

سيد الأبدية ، الذى لا ينقطع عن عبور الأعوام •
الذى ليس لزمن حياته حدود •
الهرم الذى يعاوده الشباب والذى لا ينقطع عن عبور الفراغ اللانهائى •
الاله المسن الذى دأب على جعل نفسه شابا ،
أمام العيون العديدة وأمام الآذان الوفيرة •

اننا لا نستطيع أن نعرف بدقة لفظ فراغ ــ لا نهائى الذى يترجمه المرء فى غالب الأحيان بلفظ ابدية ، وليس من المؤكد على اية حال ان يكون له معنى فلسفى بما ان المؤلف يشعر بالحاجة الى تحديده بصور حين يقول : انه لا ينقطع عن عبور الأعوام ، ولكنه يردف ، دون حدود • ثم يدخل بعد ذلك موضوع العودة الدائمة لشباب الكوكب دون أى تلميح الى حمل أمه نوت (Nout) به فى بطنها ليلا : وهنا نجد صورة الهدف منها الاحاطه بفكرة وليست مجرد قسمة أسطورية • ولما كانت الأبدية تدل ليس على حدث زمنى لا نهاية له وحسب ، ولكن على امتداد كلى ، فانه يضيف فى الحال صورا توحى بحضور الله فى كل مكان وهو الذى يرى ويسمع كل شىء وعلى هذا يكون فى كل مكان •

لا توجد جدوى فى مضاعفة الأمثلة لهذا المنهاج فى التعبير • وستتاح لنا الفرصة لمصادفته عندما نحاول معرفة علم لاهوت بعض آلهة معينة • ومع ذلك ، لا يوجد أى فيلسوف لم يحس الحاجة الى أن يكمل بالصورة ، وفى بعض الأحيان بالأسطورة ، ذلك الذى يكون فيه الوصف المجرد للتجربة الداخلية رسما مجملا ، فى معظمه • ان الذى يتميز به الأدب الدينى المصرى هو فقط اسهاب واسع فى الشرح بالصور والسعى فى تجميعها ، وعدم تماسكها ، فى كل مرة يرغب فيها عالم اللاهوت تعمق الطبيعة الالهية • ولكن

توجد وسيلة اخـرى لمعـالجة الحقيقة ، كانت شائعة عنـد المصريين وتدهشنا كثيرا • انها تلك التى نطلق عليهـا فى لغاتنا ، التورية أو التلاعب بالألفاظ •

ليست الألغـاز عندنا الا نوعا من الدعابة التى كثيرا ما تكون سخيفة • ولكن قدماء المصريين كانـوا يظنون أن الأسماء كانت تعبر عن جوهر الأشـياء عينه • وفى قصـة أسطورية تسعى ايزيس ، الى معرفة اسم رع للاستحواذ عـلى قدرته ومن الواضح أن الاله يرفض الافصـاح عنه • انه يعرف أن كيانه يرتبط باللفظ الذى يدل عليه • ان الجدال الذى قام حول الكليات (١) فى العصور الوسطى بين أشياع حقيقـة الافكار في العقـل الالهي وبين اصـحاب مـذهب الاسمية(٢) الذين كانوا يرون فيها مجرد ألفاظ ، يبين تماما أن الفكر المصرى كان يسير فى دائرة بلغت درجة كبيرة من الرقى • لقد اقام فى سمو نظـرية عامة ، تصـورا ذائعـا يصـادفه المرء لدى كثير من الشـعوب القـديمة • حتى ان ادراكهم لتماثل الحـروف الأصـلية فى كلمتين لم يجعلهـم يستبعدون أن يكون أمرا وليـد الصـدفة فحسب ، بل كان يكشف لهم كذلك عن وجـود ارتباط رئيسى بينهما ، فاذا كانت الحروف الأصلية فى اسم أتوم (Atoum) الاله الأزلى، هى بعينها الحروف الأصلية فى الفعل تم (Tmm) « كمـل » فيكون مرجع ذلك الى أن أتوم (Atoum) هو الاله الذى « أتم نفسه » بذاته ، بخلق نفسه أولا ثم خلق العالم بعد ذلك • واذا كان أصل لفظ « خفى » يشتمل على الحروف الأصلية التى ترد فى اسم آمون ، فان سبب ذلك هو أن المعبود ، عـلى

---

(١) Universel, universaux.

الاسم الذى كان يعبر به (السكولائيون) المدرسيون عن الآراء أو التعابير العامة التى كانت تستخدم لتصنيف الكائنات والآراء • والمدرسى (سكولائى) يطلق على كل ما يتعلق بفلسفة المدرسة أى تلك كانت تدرس فى العصور الوسطى — (المترجم) •

(٢) nominalisme الاسـمية •

المذهب القائل ان الكليات ليست الا أسماء أو الفاظا وهو يقـابل الواقعية والتصويرية — (المترجم) •

القول الصحيح ، « لا يمكن معرفته » • ان أفلاطون فى محاوراته وبلوتارخ ، لم يفتهما ان يضعا وجوه مقابلة من هذا النوع • انها تشرح وحدها بعض التطورات فى علم اللاهوت المصرى •

ان امون ، كما كانت تعلم طائفة الكهنة فى طيبة ، كان الواحد • وليس غيره من الآلهة الأزلية الا بعض اسمائه ، التى تعبر عن صفة من صفاته فحسب . وهكذا كان يمكن أن يقال : خالق الانسانية طرا (تم و) (Tmm W) . اوجد (سخبر) (Skhpr) كل موجود باسمك الذى يحمله اتوم — خبرى (Atoum-Khepri) .

واستنادا الى الألفاظ « الانسانية طرا » و « أوجد » يتكون علم اللاهوت فيما يخص قدرة آمون الخالقة ، التى يعبر عنها الاسم الذى يحمله فى هليوبولس : أتوم (Atoum) الذى اتخذ شخصية اله الشمس الذى يتطور الى خبرى (Khepri) •

وكانت مدينة طيبة تحمل اسم « مدينة أمون » وفى ايجاز « المدينة » كما كان الرومان يسمون روما Urb; بما أنها كانت تقع فى الموضع عينه الذى ظهر فيه تل الأرض الجرداء خارج المحيط البدائي فى الأزمنة القديمة جدا ، فقد صارت بهذا ، الطراز الأول لكل البلدان التى استعارت منها اللفظ عينه الذى استخدم لتسميتها : وهو لفظ مدينة •

وكذلك من الجائز أن مكان العبادة الأصلى لحاتحور كان يدل عليها فى الأزمنة القديمة : «تلك التى تنتمى الى أمبوس (Ombos) ولكن فى اللغة المصرية ، كان لهذا اللفظ نفس الحروف الأصلية التى تجيء فى لفظ « ذهب » • وكان ذلك لأن الالهة كانت من الذهب ، كما كان لحم رع نفسه ، مادة الجسوم الالهية • ويرى المرء بجميع الآراء التى يمكن أن

ترتبط بهذا التماثل فى الحروف الأصلية التى تجى فى لفظين ·

ويجب أن يضاف الى هذه الوسائل الغريبة فى نقل المعرفة أو انارتها ما درجوا عليه من عادات نفسية تزعجنا فى البداية · كان قدماء المصريين يضفون على ما نطلق عليه مبدأ تماثل الشخصية افاضة أوسع مدى عن مفهومنا ، بما لا يقاس · وفيما يبدو ، لم يفصلوا فكرة المشاركة التى تسمح ، دون سواها ، بتوطيد الروابط بين الجواهر المتميزة · وعلى هذا فقد كان يذهب ظنهم الى ان كائنين يمكن أن يستحوذا على شخصية واحدة · ان أتوم يمكن أن يكون خبرى والاثنان معا يمكن ان يكونا آمون · وهم يذهبون بعيدا فى مجال تماثل الشخصيات هذا حتى يصل الأمر بهم فيه الى ضمان المحافظة على كل التفسيرات الدينية التى يضعونها جنبا الى جنب فى رعاية ، دون احلال بعضها محل البعض الآخر · ان هذا يؤدى بنا الى الظن بأنهم كانوا يعتبرون كلا منها صالحا ، على طريقتهم · ان عاداتنا فى أن نستعير فى اطراد متزايد القواعد التى توجه فكرنا نحو العلوم الوضعية ، تنكر علينا هذا النوع من العمل ولكنها تمنعنا فى الوقت عينه من استشعار ما يكون آمرا عارضا فى معارفنا وعلى الأخص فى معارفنا الميتافيزيقية ، وأبعد من هذا ، فى التعبير عنها ·

فلنأخذ هنا مثالا ، يبلغ من الصعوبة ما يجعله يعبر دفعة واحدة عن مصطلح متخيل عن الحقائق العقلية وعن تصورات أديت فى ألفاظ معينة محسوسة · منذ العهد البدائى ، تصور علماء اللاهوت فى هليوبوليس الههم أتوم فى صورة خالق ذاته · انه نجح بادىء ذى بدء فى خلق نفسه بنفسه وكان هذا نهجا للتعبير عن أبديته · وكان من صفاته « ذلك الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته » · غير أن سيطرة الشكل الانسانى التلقائية على الفكر قد دفع بالكهنة الى

تصور عملية القران بوصفها حلا لخروج الاله من عزلته واحاطة نفسه بكائنات أخرى • ولما كان أتوم وحده ، فقد استتبع هذا أن ينسبوا اليه القيام بعملية استمناء أصيلة • ذلك ما تدفعنا الى قوله الأساطير ، وعلينا ألا نرى فيه خروجا عن الخلق القويم ولكنه التعبير غير اللبق عن فكر تراعى فيه الفكرة العميقة وحدها • وقد نسب أحيانا ايضا الى اتوم القيام بعملية أخرى أقل ايذاء للشعور ولكنها فجة أيضا وهى أنه لفظ من فمه اول زوجين الهيين • والعاقبة لا تثير صعوبة وهى عندنا أقل أهمية أيضا •

حدث بعد زمن وجيز ، ودون ريب فى عهد الأسرة الثالثة ، فى مستهل الألف الثالثة ، بعد أن قام كهنة بتاح (Ptah) ، اله مدينة الجدار الأبيض وهى التى اصبحت منف (فيما بعد) بتحليل الوسيلة التى اتخذت لتنظيم الأشياء والناس وعلى الأخص الملك ، أن بدءوا بوضع نظرية تامة للمعرفة ، وفى نهاية الأمر عرفوا نهجا خالقا أصيلا حقا : تحمل الحواس المعرفة الى القلب • وهو يشكل فكرة وينفذها باصدار أوامر نافذة تدرك نتيجتها المادية بالحس • وعلى هذا فالخلق يبدأ بالفكر ويتجلى بالكلمة الخالقة • والاله بتاح ، يفكر ، فى قلبه ، فى الأشياء والكائنات ثم يعطيها أسماء فتظهر للوجود • وهذا الخلق بالكلمة الالهية كان لابد أن يلقى نجاحا باهرا • ويبدو لنا أنه كانت فيه كفاية ذاتية وأنه حل بجدارة محل الفكرة القديمة التى كانت سائدة فى هليوبوليس • ولكن بالنسبة للمصريين ، لم يكن الأمر على هذا النحو اطلاقا • لقد ظنوا بكل تأكيد أنه على الأرجح لم يكن الا صورة أكثر قربا للحقيقة ، من الصورة السابقة • وقد كان فى هذه الطريقة لمواجهة المعرفة فضلا عن ذلك ، ارضاء لغريزتهم فى المحافظة على التقاليد الدينية. • ان رأيا يطبق على الآلهة يحمل نوعا من التقديس ويفرض نفسه بصفة نهائية • ولا يمكن دحضه فيما بعد • كيف يتاح لهم أن يفسروا منذ ذلك الحين أن التصور الأخير

ليس الا نهجا جديدا للوصول الى الحقيقة وان التصور القديم يظل صالحا ؟ انها صور متشابكة تبدو لاول وهلة بلا معنى ، ولكنها حين حللت طريقتها للمعرفة وللتعريف بالحقيقة بدت تامة الوضوح ٠

« ان تاسوع بتاح امامه كأسنان وشفاه أى أنه بذرة ويدا أتوم ٠ أن تاسوع أتوم فى الواقع ، جاء للوجود ببذرته ويديه ٠ ولكن التاسوع هو الاسنان والشفتان فى فم ذلك الذى سمى كل شيء ، والذى خرج منه شو (Chou) وتفنوت (Tefnout) اللذان جاءا بالتاسوع الى العالم » ٠

والتاسوع هو جمع الآلهة الذى أوجده الاله الخالق Démiurge والذى واصل عمله فى خلق العالم ٠ وقد خلق بتاح آلهة التاسوع بأن دعاها بأسمائها واستخدم فى هذا الأسنان والشفتين ٠ ان هذين اللفظين المعينين يوضحان الوسيلة الخالقة التى استخدمها الاله ، ولذا فانهما يعادلان الأعضاء التى استخدمها أتوم ، فيما سبق ، للقيام بالخلق ٠ ان كل صورة من هذه الصور حفظت على هذا النحو ولا تستبعد واحدة منها ، بصفة نهائية ، لصالح أخرى ٠

ويجدر بنا تذكر هذه الاعتبارات اذا أردنا ألا ننكر كلية قدر الفكر المصرى وأن ندرك مدى تأثيره فى نطاق علم اللاهوت ٠ لقد تمكن من أن يفرض نفسه على حكماء العبريين وعلى عدد معين من فلاسفة الاغريق ، ذلك لأنه كان يستحوذ على معارف قيمة ٠ ولكن بعد فقدان التقليد الحى الذى كان من شأنه أن يسمح باقرار المعنى الدقيق للنصوص والأساطير ــ كما يرى فيما يتعلق بالفكر الهندى الحالى ــ يتحتم علينا أن نبذل مزيدا من الجهد البالغ ، ودون معاونة ، لرفع القناع السميك الذى ألقته اللغة واتجاه عقلى يختلف اختلافا عن اتجاهنا ، على هذه المكاسب العقلية القديمة ٠

الفصل الثـالث

● الآلهة المحلية فى مصر العليا

وهكذا اصغ الى ما يتعلق بالآلهة وتلقته من اولئك الذين يفسرو
الاسطورة فى تقى وفلسفة ، انجز على الدوام الاساليب المسمو
بها فى المراسم المقدسة ، على ان تضع فى ذهنك انه لا شيء
اضحية او اى عمل يمكن ان ينجزه المرء فيه رضا للآلهة اعظم
ان يكون له عنهم رايا صادقا • وعند ذاك تصل الى الفرار
شر ليس اقل من الالحاد وهو التطير •

بلوتارخ (ازيد / ١٢

ان خليط الآلهــة المحلية الوفير هــو آكثر الأشياء التي تسترعي انتباه ذاك الذى يسعى الى فهم ديانة مصر القديمة • ولا ريب فى أن النصوص القديمة لم تحدثنا دون انقطاع عن آلف اله للقطر ، كما تفعل النصوص الحيثية فى التحدث عن آلف اله لخيتي • ولــكن لم تكن توجــد قرية لهــا شيء من الأهمية ، دون أن تكون لها آلهتها الخاصة • ولم تكن حاضرة كل اقليم أو مقاطعة nome هى وحدها التى لها آلهتها ولكن كذلك كان للتجمعات الصــغيرة فى داخــل المقاطعــة آلهــة مختلفة • ومن المؤكد أن هــذه الآلهة كانت تغــرس دعائم قوية لنزعة حب الوطن المحلية ، ان لم نقل لنزعة الحرب ، ويدور هذا فى حدسنا عن آكثر من مدينة صغيرة • ولــكن عندما كان الاله المحلى ، عقب ظروف سعيدة ، يرفع الى رتبة اله الامبراطورية ، فان الوثائق كانت تتضــاعف ويتمــدى زهو المدينة التى ينتمى اليها ، كل حد • وعلى هذا النحو ، أعلنت طيبة عندما اصبحت الحاضرة فى عهد الأسرة الثامنة

عشرة ، انها المثال الأعلى لـكل المدائن ، المدينة الأصيلة ، المدينة التي يجب أن يقدم لها الطاعة العالم بأجمعه : «يجب أن تنتمى اليها مصر العليا ومصر السفلى • ويجب أن تكون السماء والأرض والجحيم طوع أوامرها • وأن تكون لهـا الأمواه والجبال ونون مع مخلوقاته وحعبى (مع) زرعه وكل ما يحمله جب (اله الأرض) • وكل ما تسطع عليـه الشمس ينتمى الى « كاها فى سلام » •

ويرى المرء من هذا المثال وحده ، أن النمو السياسى لمدينة أو لاله قد خلق فى الحـال مبدأ خضوع أو بعبـارة أخـرى ، مبدأ وحدة • لقد سبق أن رأينـا ما كان « لبيت الحياة » من أثر على تنظيم علم اللاهوت والعبادة • لقد كان له نفوذ فعال بالغ بنسبة ما كان للملكية من قوة عظيمة • وقد أدى نشاط الكهنة المحليين دورا هاما أيضا ، وقد أخذوا شيئا فشيئا ، يسعون الى اقامة نظام لذلك الجمع من الآلهة ، وايجاد تماثل بين الآلهة الذين يربطهم الجوار ، بعضهم الى البعض الآخر ،والى أن يجعلوا من كبير آلهتهم الاله الأوحد • ويمكننا أن ندرك نتيجة تلك النزعة فى العصر المتأخر فى ادفو ودندرة واسـنا • حتى اننا لا نكاد نعرف عن هـذه الآلهة الا ما وصلنا من كتابات كهنوتية رسـمية تمثل ذروة عمل لاهوتى رسمى متتابع التطور يحجب عنا الآلهة المحليـة الأصلية • ان تنـوع الاضـافات التى أتت بهـا العصـور والكهنة تحول بيننا وبين اعادة تكوين الحالة القديمة • اننا لم نعد نعرف ديانات مصرية ولكن آلهة متباينة لدين موحد فى مجموعه •

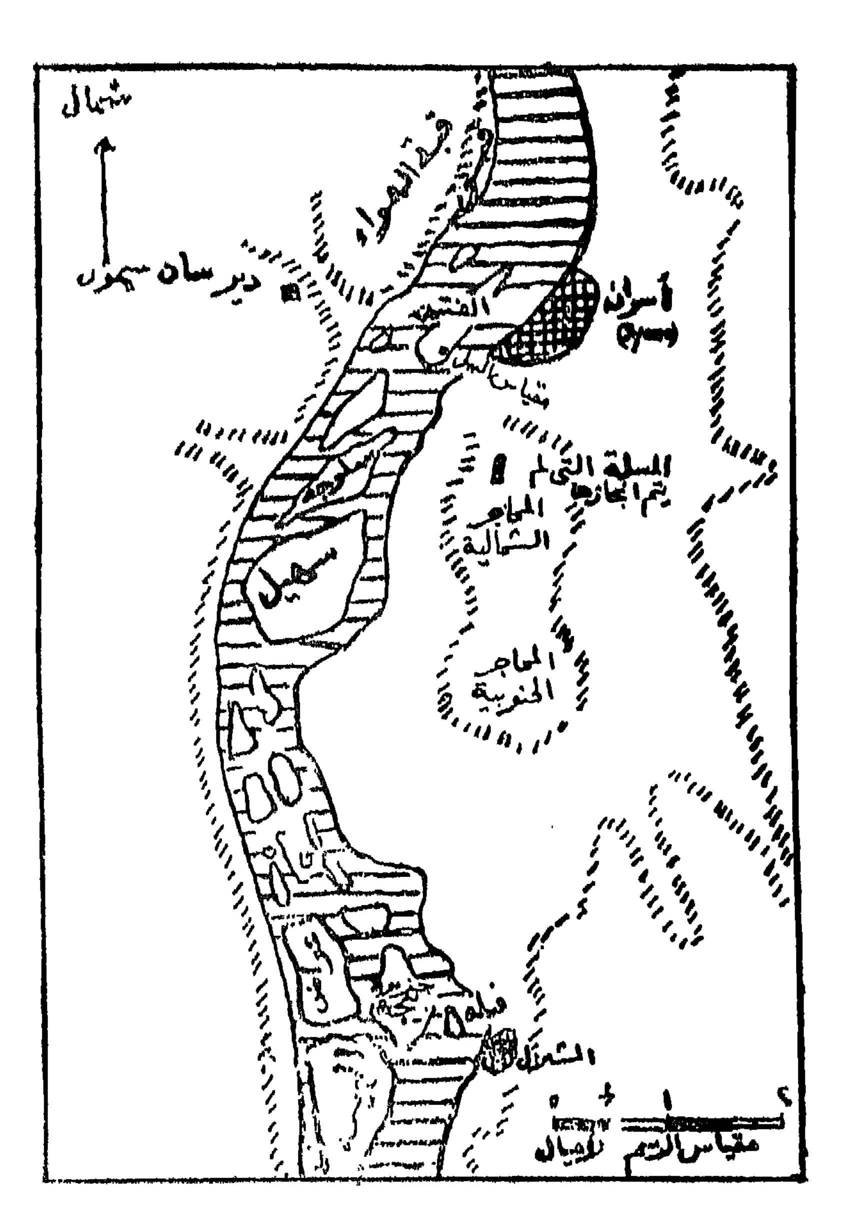
ومما يسترعى انتباه المرء عنـدما يزور معبدا مصريا تنظيم المعبودات فى مجموعات يتالف كل منهـا من ثالوث • وقد يرغب المرء فى ارجـاعها الى عهد بعيد القدم • لكنـه يتبين أنها تشكيلات متأخرة نسبيا وغير مستقرة ، عنـدما تواتيه فرصة ليرى كيف تطورت ــ وهو أمر نادر ــ • وعلى

سبيل المثال ، نجد فى زمن الملوك الاغريق ثالوث حاتحور دندرة وحورس ادفو واحى ، مكونا تكوينا يبلغ حد الكمال. ومع هذا، يلاحظ المرء الزيادة التى تقع مرارا عديدة في معبد حورس ، سيد خادى (١) الذى كانت حاتحور تغشاه بنفسها فى خلال عام الصلوات • وفى الواقع ، فى بداية الدولة الوسطى ، كانت الالهة التى تصحب حاتحور فى هيكل منتو حتب هى حراختى الذى يدعى ببساطة سيد دندرة فى نفس مرتبة حاتحور ، وحورس سيد خادى وهو يظهر فى المكان الذى شغله بعد ذلك بزمن احى الاله الابن • ولا يظهر حورس ادفو • ان فصلا طويلا من نصوص التواويس ، فى نفس العهد ، مخصص لاحى • ويبدو فيه احى تماما كابن لحاتحور ولكنه ابن أيضا لنفتيس وايزيس وأبوه رع • ان الخصائص التى يتجمل بها فيه تختلف اختلافا بينا عن تلك التى يبدو فيها ، على وجه عام ، فى دندرة فى العهد الاغريقى • ويرى المرء أن عمل علماء اللاهوت قد قطع شوطا بعيدا منذ تلك الحقبة القديمة ، ولم يعد فى استطاعتنا الرجم بالحالةالقديمة التى كانت عليها المعبودات المحلية ، سحيقة القدم • وتتطلب الحال أعمالا عديدة مفصلة وحتى عند ذاك ، لا يكون من المتيقن أن غاية مداها يصل الى شيء أكثر من افتراضات فيها الكثير أو القليل من الحذاقة ، من الضرورى أن تثير فينا المطابقات الغريبة بين العبادات المحلية الكثير من التبصر • والواقع ، أنه لا يمكن أن يفوت المرء ملاحظة أن التصور الثنائى الذى يبدو أنه كان يلازم التكوين العقلى عند قدماء المصريين ، قد قام هنا بدور عظيم • وكما نرى على جانبى المحور ، فى مختلف ردهات معبد ، قيام المزخرفين بوضع الآلهة التى تتطابق فى نفس الأمكنة ، فاننا نتخيل كذلك مطابقات غريبة بين مصر الشمال ومصر الجنوب ، واذا كانت توجد أون الشمال (هليوبوليس) وأون الجنوب (أرمنت) فقد لا يستطيع المرء

(١) النابة المقدسة فى المقاطعة السادسة ، دندرة •

الشعور بالمطابقة • لأن الالهين جد مختلفان • ومع هذا يجب أن يلاحظ أن قرينة منتو هي مؤنث رع ، الشمس ، سيد هليوبوليس ولقد بذلت الجهود لتوثيق الصلات بطريقة مصطنعة • غير أنها في حالات أخرى ، تظهر واضحة أمام العيون • فأوزيريس يتولى الحكم في (أبو صير) في مصر السفلى وفي أبيدوس في مصر العليا • ويستحوذ آمون على ديوسبولس ماجنا وديوسبولس بارفا في مصر العليا • ولكن جعلت مطابقة لهما ديوسبولس الوطيئة في مصر السفلى • ويمتلك حورس « بحدتى » في مصر العليا و « بحدتى » أخرى في مصر السفلى • ولتحوت « هرموبولس » في مصر العليا وهرموبولس أخرى في مصر السفلى • ويستبين الانسان في الحال ما كانت عليه من اصطناع مثل تلك الوسيلة في عرض الأمور • لقد أجبرت آلهة على اتخاذ دور أحد زملائها ، كان في الأصل مختلفا عنها كل الاختلاف ، وذلك لتوطيد التعادل غير الطبيعي بين شطرى القطر •

اننا أحيانا نلحظ قيام أنواع من استبدال المعبودات • فقد حل أوزيريس في أبيدوس محل اله قديم يدعى « ذاك الذى يرأس سكان الغرب » ، كما حل في بوصيرص محل اله آخر يدعى « عنجتى » • فما سر ذلك ؟ في بلاد الاغريق ، كانت تحمل أمثال هذه التغيرات ، في معظم الأحوال دلالة على غزو • وهنا لا يبدو أنه كان يوجد شيء من هذا القبيل، وفي أبيدوس على وجه اليقين ، واننا لنجهل تماما السر الذى دعا الى أن يكون لرع المكانة العليا هليوبوليس بدلا من أتوم • ولماذا وصل الأمر بآمون في النهاية الى ابعاد مونتو عن طيبة؟ وقد لا تكون هناك الا مسائل دينية خالصة ولاهوتية ، هى التى أحدثت ذلك • ولكن يتحتم اقامة البرهان على ذلك •• ان الأمر الوحيد المتيقن منه هو أنها ليست الوقائع العسكرية هى التى تفسر معظم هذه التغيرات •



منطقة فيلة (H. Keen An. Eq.)

فلنذرع اذن مصر من الجنوب الى الشمال ، وفقا للنهج القديم فى البحث ، ولنطالع مادا كانت العبادات التى تقدم فيها • وسيكون ذلك مجرد وصف تاريخي ولن نتمهل طويلا حتى عندما يكون الانتاج الادبى فى احد المراكز الدينية وفيرا ويسمح بتقصى الخطوط العريضة لاحدى العقائد ، وان كان لنا ان نرجع للموضوع فى أحوال خاصة جدا • وبعد كل تقدير ، فان هذا على التحقيق هو المنهج الذى يمكن أن نطبقه اليوم لمعرفة الدين المسيحى فى فرنسا • ان علم اللاهوت يجب ان يدرس فى ذاته وخارجا عن العبادات الخاصة • ومهما تكن خصائص سان ــ جن Saint-Gens أو سانت ــ آن ــ دوراى Sainte-Anne-d'auray ومقادس لورد Lourdes أو لا سالت La Salette (١) ، فانها لا تمس فى شىء صفات الله (عز وجل) أو حتى علم اللاهوت الخاص بالعذراء •

فى أقصى جنوبى مصر ، كما تنطبق التسمية ، فى المكان الذى يشق فيه النهر ، لآخر مرة ، طريقا عبر سد من الجرانيت صوب ارض طليقة وصوب البحر ، كانت توجد مدينة استعارت اسمها من تجارة العاج التى كانت تمارس فيها وهى مدينة الفنتين • وكانت تتخذ مأوى لها أقصى جزيرة الى الشمال من الشلال ، وقد ورد ذكرها فى أقدم الوثائق المعروفة • وكان يعبد فيها الاله خنوم • وكان حيوانه المقدس الكبش • ويرسم الاله على الدوام برأس هذا الحيوان (شكل ١٢) • وكانت تعقد له الرياسة فى الشلال وكان أحد الأعمال التى تتصل بالشعائر والذى يجد فيه الرضى بصفة خاصة ، يتألف من سكب الماء الذى يأتى بالخصب أمامه ــ وهو الذى كان يظن أنه يتفجر من الصخور فى هاتيك الأنحاء ــ بجرة كانت تحمل اسمه • وقد ألحق به فيما بعد الهتان يبدو أنهما كانتا ترجعان الى عهد بعيد فى

(١) بعض المزارات التى تنسب لها معجزات خاصة فى فرنسا وخاصة لورد التى اذيع ظهور العذراء بها فاصبح الناس يحجون اليها طلبا للبركة أو الشفاء من الأمراض • (المراجع) •

القدم ودون ريب يرجع أصلهما الى أقطار تقع على مسـافة نائيـة الى الجنـوب • (هما ساتيس وعنقت) ومن الراجح أن الالهة ساتيس كانت ترتبط بحاملى الأقواس النوبيين •



(اشكال الآلهة من ١ ـ ٩)

وبعد ذلك بزمن ، أدى تشـابه اسمها مع اسم سوتيس Sothis :: وهو نجم الشعرى الى أن تتمثل هذه الالهة فى هـذا

النجم (١) وفي ايزيس · وقد قدم اليها كغطاء رأس تاج الوجه القبلي الأبيض يحف به قرنان (شكل ٢٤) ، وكانت أنوكس (عنقت) تمتلك وحدها جزيرة سهيل احدى أعظم الجزر اتساعا ، تلك التي تقع في وسط الشلال على وجه التقريب · وكانت لها قسمة أفريقية بارزة تجلت واضحة في غطاء رأس من الريش (شكل ٢) · ولكنها مصرت باعطائها مثل ساتيس ، شخصية «عين الشمس» ، الالهة التي انسحبت وهي غاضبة الى الأقطار الجنوبية وكان يتحتم على آلهة مصر البحث عنها ، أن صلتهما بخنوم ليست واضحة بصفة قاطعة · كانت ساتيس على وجه اليقين زوجته ، أما انوكس (عنقت) فربما كانت ابنتهما ، وهذا أرجح من أنها كانت زوجته الثانية · ولكن تاريخ كل هذه التنسيقات ، في الوقت الحاضر ، غامض كل الغموض ·

لسنا نعلم متى جاء أوزيريس (شكل ٢١) ليقيم في هذه الأنحاء · ومع هذا فقد كان له في العهد المتأخر قبر في جزيرة بيجه وهو الذى سماه الاغريق اباتون Abaton (٢) · ويقع مباشرة الى الغرب من جزيرة فيلة الصغيرة حيث سادت ايزيس (شكل ١١) · ولم يكن في قدرة أى أجنبي أن يجوس خلالها ، وكانت تحذيرات عديدة تحمي راحة الاله · وكانت ايزيس تذهب ، كل عشرة أيام ، في موكب لتؤدى على قبره شعيرة سكب اللبن · وفي فيلة كانت تعبد مع أوزيريس وحربوقراط (حر باخرد) ومعنى اسمه في اللغة

---

(١) اشار بعض المؤلفين الى ان عبادة الشعرى كانت شائعة عند العرب فى الجاهلية · وذكر ابو الفرج والدمشقى قبيلة قيس على الاخص راجع : M, Paul Casanova
Quelques Légendes Astronomiques Arabes, considérées dans leurs rapports avec la mythologie égyptienne , Imp. I.F.A.O. 1902.

وجاء فى القزوينى : « وكان قوم فى الجاهلية يعبدونه لانه يقطع السماء عرضا دون غيره من الكواكب » وذلك قوله تعالى : « وانه هو رب الشعرى » — (المترجم) ·

(٢) Abaton — الاسم الذى اطلقه الاغريق على قبر أوزيريس فى جزيرة بيجه ومعناه « الذى لا يمكن الوصول اليه » ·

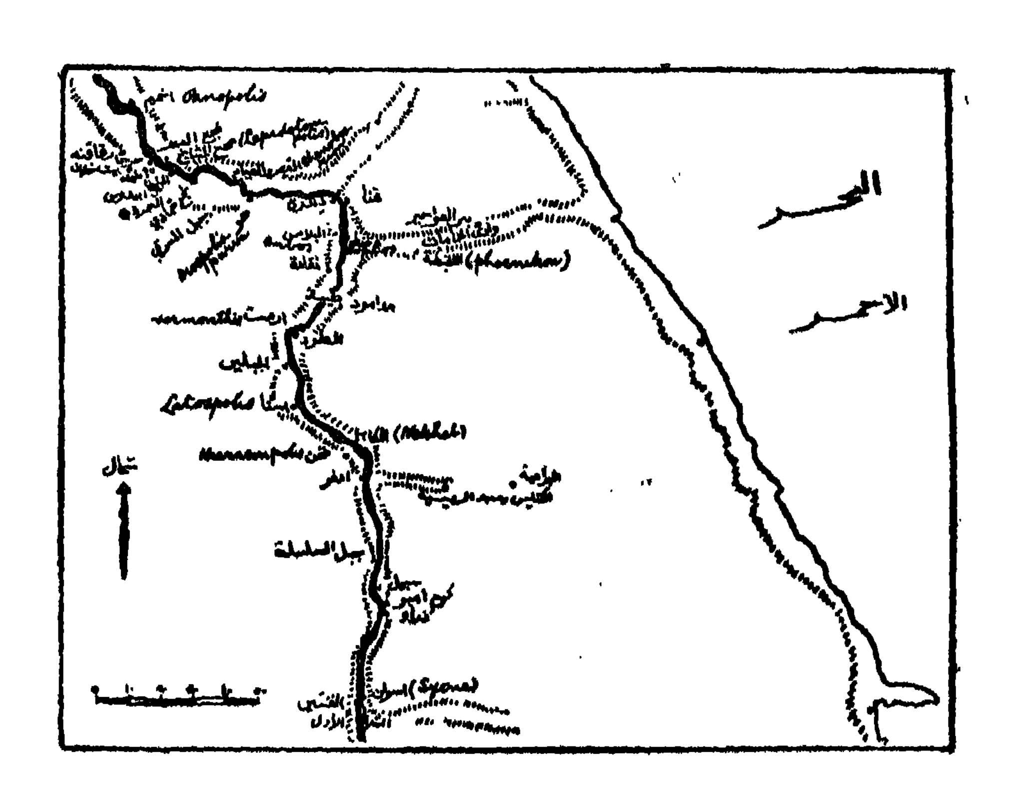
المصرية « حورس الطفل » - وإلى جانب هذه الآلهة ، كانت تقدم لحاتحور عبادة في معبد صغير مستقل ، كان الناس يغنون ويرقصون فيه لأجلها ، أثناء الليل · وبحذاء المدخل ذى العمد الذى كان يسير من مرسى السفن الجنوبي حتى الصرح الأول ، كان يوجد فى البداية معبد الاله النوبى أرينسنوفيس (١) · لقد جاء من الجنوب ويعتبر سيد بونت على ساحل الصومال · ويجده المرء متمثلا في اله آخر نوبى يدعى ددون · ولكن المصريين أعطوه شخصية الههم شو الذى ذهب بعيدا بحثا عن الالهة الغاضبة · وعلى مسافة الى الشمال ، كان يوجد معبد صغير آخر ، أقيم خصيصا لاموثيس (امحوتب) المؤله ، والذى أصبح الها يشفى من العلل ودعاه الاغريق لهذه الواقعة ، اسكلبيوس ، لقد عرف معبد فيله شهرة عريضة · لقد كان يهرع اليه الحجاج الذين يتحدثون بالاغريقية ، أنفسهم ، وتركوا نقوشا لا عد لها ، على حيطانه · وكان يجيء الهمج وعلى الاخص البلميس Blemmyes (٢) اليه لتقديم العبادة لايزيس التي رفعت في عهد متأخر الى مرتبة الهة عالمية · وكان يسمح لهم بان يحملوا الى بيوتهم كل فترة صورة مقدسة كان يجب عليهم أن يعيدوها · وكان يجب الانتظار حتى عهد جستنيان واستخدام العنف ، لاطفاء شعلة آخر موطن للوثنية العتيقة فى عام ٥٣٥م ·

---

(١) اسمه ·· irj hms' nfr _ المهد الاغريقى ·

(٢) بلميس Blemmyes :

جاء ذكرهم فى « بلنى Pline على انهم شعب اثيوبيا وفى عهد ديوقلديانان (٢٨٤ _ ٣٠٥م) غدا البلميس وهم رابطة من القبائل تقطن شرقى السودان ، من القوه بحيث أجبروا الحامية الرومانية على الانسحاب من دودكاشوانوس Dodekaschoines وهو شطر وادى النيل من اسوان حتى هيراسوكامنوس Hierasykaminos (المحرقة) على بعد ٧٠ ميلا منها (١٢ شوينى ومن هذا اشتق اسمها) واجبر الامبراطور على تأجير قبائل الصحراء الغربية لصدهم · ووافق ايضا على دفع مبالغ من المال سنويا للكف عن غزو اقاليم مصر الرومانية واقام معبدا فى فيلة حيث يقسم مندوبون من جميع الشعوب المعنية على مراعاة الاتفاق فى حضرة الهتهم _ (المترجم) ·



مصر العليا والصحراء الشرقية (الجنوبية) (H, Kees. An Eg.)

وكانت تقوم على مسافة ابعد الى الشمال ، فى نفس هذه المقاطعة الأولى ، عبادة جد غريبة لدينا عنها معلومات غزيرة لأن معبدا يرجع للعهد الرومانى مازال جزء عظيم منه قائما ، يستوى مشرفا على النهر فوق تل كوم امبو المقدس • هنا يتقاسم الموقع الهان فى شطرين متعادلين وهو مالا يوجد مثيل له فى اى مكان اخر فى مصر • وهذان الالهان هما حرويرس ، حورس المبجل (١) (شكل ٩) وسبك (شكل ٢٥) ، الذى كان يمثل فى معظم الاوقات براس تمساح • وكان يوجد معبد فى نفس المكان على الاقل منذ الأسرة الثامنة عشرة وبكل توكيد فى زمن أعظم بكورا • ولكنا لا نعلم أنه كان يبرز خصائص المعبد الذى نقوم بزيارته • وينهض لدينا دليل للاعتقاد بذلك لانه فى عهد الملكة حاتشبسوت يقدم نقش خفيف البروز لتاسوع الكرنك وضعا غريبا : فانه بينما كل الآلهة يتعاقب ترتيبها فى انتظام وتأخذ وجوهها نفس الاتجاه ، يحول حورس ، دون سواه ، ظهره الى نفتيس التى تتقدمه ليواجه سبك الذى يتبعه • ومن سوء الطالع لا يصحب أى شرح هذا الخروج على القواعد المعتادة فى رسم المناظر المصرية • ولكن فى أثر تذكارى بذلت فيه العناية ، لا يمكن تفسير هذا الشذوذ الا بوجود صلة ، خاصة تماما ، بين حورس وسبك ربما كان يبررها أمر تفصيلى فى أساطيرهما لم نهتد اليه حتى الآن •

★★★

ان لمعبدهما فى كوم أمبو تصميما فريدا فى نوعه الى الان فى فن العمارة الدينية المصرية • فهو ينقسم طولا الى شطرين يوجد فى كل شطر منهما ، هيكل مستقل • ويقابل هذين الهيكلين بابان متماثلان وهناك بابان لكل غرفة من الغرف التى تسبقهما ، للردهة المتوسطة ولردهة القرابين وردهة التجلى ولبهو الأعمدة ، وقد خصص القسم الشمالى بأجمعه لحرويرس والقسم الجنوبى لسبك • ولكل منهما

(١) حرويرس — الصيغة اليونانية لحرور •

مصورة مصر العليا ـ من فيلة الى الجبلين ، وبيان المقاطعات

أعياده وعبادته الخاصة المتميزة • وقد منحت أسرة لكل منهما • كان لحرويرس شخصية لاهوتية اتخذها زوجة : الأخت الكاملة وكان له ابن ، سيد ــ القطر ــ المزدوج ــ الطفل • وقد قدم لسبك كشريك له حاتحور وكابن خنسو ــ حر • ألا يكون سبك اسم التنكر الذى اتخذه ست أمبوس ، والذى أصبح فى نهاية الألف سنة الثانية اله الشر ووصفه بلوتارخ باسم تيفون ؟ ليس فى قدرتنا الوصول الى معرفة ذلك ، ثم ان الاناشيد اللاهوتية المحفورة على جدران المعبد الحالى قد استطاعت تخفيف الاختلافات الاصلية التى كانت تقوم بين الالهين ، حتى ان أى تحليل دقيق لا يصل الى كشف الخصائص القديمة الا فى عناء • انها بالحرى تعرض الخصال العامة للألوهية ، أكثر مما تعرض الخصائص المعينة التى تظن أن ألهة العصور العتيقة تميزت بها •

فى وادى جبل السلسلة الضيق ، فى الموضع الذى ينحسر فيه النيل بين جبلين من الحجر الرملى حفرت فى عهد رعمسيس مصليات ونقشت فيها اناشيد لاله النيل الذى كان يبدو هنا أنه انفذ الممر قسرا • ولكن يجب ان نهبط مبحرين فى النهر حتى ادفو لنجد مركزا للعبادة معروفا تمام المعرفة بفضل معبد عظيم يرجع الى عهد البطالمة ، ومازال سليما ويكاد يكون فى الحالة التى كان عليها فى زمن الملوك المقدونيين • ولقد خصص لحورس ادفو « ذاك الذى ينتمى الى بحدتى » (١) فى اللغة المصرية • وقد كان ، أساسا ، خصما لست امبوس • وكان يرمز له بالصقر • وقد كان يوجد عش عظيم لهذه الطيور المقدسة ومعبد للصقر فيما سبق ، فى مواجهة هيكل الميلاد الحالى • وكان الكهنة يقومون فى المعبد بمحاكاة مسرحية شعائرية تترسم أحداث قصص المعارك التى شنها الاله ضد خصمه • والعبادة هنا ترجع

---

(١) أضفى اسم بحدتى ومعناه العرش ، على عدة مدن مصرية كانت تستحوذ على معان للاله حورس وكان اعظم تلك المواقع اهمية حاضرة المقاطعة الثانية فى مصر العليا وكان اسمها الشعبى Deb وبالقبطية dtbw الذى انحدر منه لفظ ادفو ... (المترجم) •

الى الدولة القديمة • ولكن لا سبيل الى الوصول الى علم اللاهوت سحيق القدم الذى يتصل بحورس بحدتى • ومن المؤكد أن أسبابا قوية كانت تربطه منذ عصور لا تعيها الذاكرة ، بحاتحور الهة دندرة اذ أن هذه الآلهة كانت تقوم كل عام بزيارته منذ عهد أتباع حورس ، أى قبل توحيد مصر فى عهد مينا • وفى عهد الاغريق كان يؤدى هذا الاحتفال فى شهر أبيب فى شىء عظيم من الوقار • ولقد كان يطلق عليه عيد « الاجتماع الطيب » • وهكذا كانت تقدم حاتحور كزوجة لحورس • وكان ابنهما ،« حورس ــ جامع شمل ــ القطر ــ المزدوج ــ الطفل » الصغير ، حرسماتوى • وشيئا فشيئا أرتقى الله ادفو الى مرتبة المعبود الاوحد والازلى وكان علماء اللاهوت يقصون كيف قام بخلق العالم والآلهة الاخرى • وهذا هو ما كان يحدث على الدوام لكل رب الهى فى اية مدينة وصل كهنتها الى شىء من الأهمية • ويجب أن يذهب الظن الى ان هذه الادعاءات لم تنشأ الا فى العصر المتأخر • وفى الحالة التى نحن بصددها ، فان النقوش التى تدلى الينا بهذه المعلومات ، هى نسخة من مخطوطات يرجع تاريخها ، فيما يرجح ، الى عهد الامبراطورية الحديثة • وعندما يسير المرء هبوطا فى مجرى النهر ، فانه يصل أول ما يصل ، وهو يسير بمحاذاة الشاطىء الأيسر الى مدينة نخن ، الكوم الأحمر الحالية • ولقد كان لها ، فى غضون عهد ما قبل التاريخ البعيد ، أهمية عظيمة يشهد عليها ما عثر عليه من آثار ترجع الى أسرات طينة (١) والدولة القديمة • ولكنها هوت كثيرا عقب هذا • ولقد كان يعبد فيها حورس ، ويبدو أنه كان محنطا ولكن ليس لدينا علم وفير به ، ولما كانت تضفى على الملك شخصية حورس ، فيمكن أن تكون أرواح نخن التى تطالعنا مرارا عديدة فى الشعائر الملكية ، على شاكلة عيد

---

(١) تقع مدن طينه قرب « جرجا » الحالية وينسب اليها العصر الطينى الذى سادت فيه الاسرتان : الاولى والثانية وهو عصر التاسيس والبناء الذى سبق ظهور الدولة (المراجع) •

« حب ـ سد » او « الميلاد الالهي » هي ارواح الموتى من الامراء الاقدمين .

وفي مواجهتها على التقريب ، على الشاطيء الايمن ، كانت توجد مدينة نخب (١) . وكانت تعبد فيها الهه يرمز اليها برخمه بيضاء وكان يطلق عليها نخبت التي تسمى الى نخب ، نخبت (شكل ١٨) . ومما لا ريب فيه ، ان هذه المدينه كانت عند نشاة الحضارة المصريه رمزا لاقصى الجنوب وكانت تقوم على رعاية الملك الالهه ـ الوصيه التي تبسط جناحيها فوقه . ولقد وجدت معبودة مطابقه لها في عهد توحيد القطر المزدوج ، وهي اوتو (واجت) ، الالهة الأفعى في اقصى الشمال وكانت تسوم بالسهر على ملك مصر السفلى . ولهذا اصبح فرعون « ذلك الذي ينتمي الى السيدتين » . وكان تاجه يحمل في المقدمة راس عقاب وراس أفعى وكانا يثيران ذكراهما ويحميان الملك . ان تاج توت عنخ أمون هو احد مباهج متحف القاهرة . وكانت الاثنتان تشتركان في احتفال التتويج . وتقوم كل واحدة منهما بوضع تاج اقليمها الأصلي على رأس الملك . وكانتا ترضعان الملك بلبنهما السماوى للحفاظ على ألوهيته . ومع هذا ، فان نخبت كانت تحفظ على الدوام ذكرى أصلها المتواضع بأن ظلت الهة مدخل الوادى الذى كان يؤدى من الكاب الى مناجم الذهب. ومن ناحية أخرى، فاننا نجدها منذ الأسرة الثامنة عشرة شبيهة بـ «حكت» الالهة ـ الضفدعة في مدينة أنطينوى (Antinoé) (٢) ، وهي تقوم بتيسير الميلاد الملكي . وعلى هذا ، فقد كانت تقوم بدور شبيه بدور القابلة وكذلك تعرف فيها الاغريق هوية الهتهم ايلايثويا Eileithyia ، التي أطلقوا اسمها على مدينتها . وقد ارتفعت في خاتمة المطاف

---

(١) الكاب ـ كانت حاضرة مصر العليا الدينية في عهد ما قبل التاريخ وظلت احدى المدن الهامة في البلاد حتى عهد البطالمة . وما زال سور فناء معابد نخبت قائما ويقع على بعد ثلاثة كيلو مترات الى الشمال من محطة المحاميد ـ (المترجم) .

(٢) الشيخ عبادة .

الى مرتبة آلهة الكون الخالقة بوصفها أم الشمس • وعند ذاك مثلت بحاتحور وموت ونوت •



(اشكال الآلهة والالهات من ١٠ ـ ١٨)

وكانت تقدم لها عبادة ليس فى معبد الوادى ، فسيح الجنبات ، الذى مازال الجانب الأعظم من سور فنائه قائما حتى الآن ، وحسب ، ولكن أيضا فى معبد بطلمى حفر نصفه فى الصخر فى مدخل الوادى الذى يؤدى الى الصحراء ، وعلى مسافة أبعد قليلا ، فى معبد جميل أقيم فى عهد آمنحوتب الثالث • وكذلك كانت تقدم الى تحوت عبادة فى الكاب •

وعلى قرابة عشرين كيلومترا هبوطا في مجرى النهر من الكاب ، عرفت عبادة كانت تقدم للالهة انوكس (عنقت) ولغزالها في ابر ــ مرو (١) • ولا شك في ان مكانها يقع بالقرب من كومير الحالية •

وأبعد قليلا الى الشمال ، عرفت منطقة اسنا معرفة أفضل ، ويرجع ذلك خاصة الى نقوش المعبد الذى مازال بهو أعمدته من العصر الروماني ، قائما • وكان يعبد فيه الاله خنوم (شكل ١٢) الذى يتخذ راس كبش كما في السنين • ولابد ان عبادته كانت ترجع هنا الى عهد قديم ، لقد حدد تحوتمس الثالث القرابين التى كان يجب ان تقدم في بعض الحفلات الشعائرية • ولقد لوحظ مدى قرب الاناشيد المحفوظة في النقوش من حيث التفكير والصياغة واللغة ، من اناشيد الامبراطورية الحديثة الكبرى التى كانت توجه الى آمون أو بتاح • وكان خنوم هنا ، اكثر من اى مكان اخر الخزاف الالهى الذى شكل على دولابه ، الانسانية جمعاء • وقد صور أحد الحكماء تناقص السكان خلال الثورة التى آودت بالدولة القديمة ، بهذه العبارات :

« كان ذلك هو الحال : النساء عقيمات ، لم تعد واحدة منهن تحمل • لقد كف خنوم عن تشكيل الأجنة بسبب حالة البلاد » • وقد كان عليه لسبب أقوى أن يصوغ الملك ــ الاله الصغير في لحظة مولده • لقد رفعته القوة الخالقة التى تبعث الحياة والتى كان يستحوذ عليها الى مرتبة الاله الذى يصور الخلق (٢) • وقد كانت طبيعة الكبش فيه تعبيرا قويا

---

(١) كتب اسمها بالمصرية (الكوم الأحمر) بر ــ مرت وهى كومير التى تقع بين هيراكونبولس واسنا ــ (المترجم) •

(٢) dieu plasmateur لفظ يونانى معناه التكوين والصوغ اصلا ، واصبح يطلق على الجزء السائل في الدم •

وقد جاء نص في معبد اسنا فيه يشرح واضعه كيف كون خنوم جسم الانسان عضوا بعد عضو وكيف مزج الدم والنخاع حتى يكون العظم • وكان الدم في العظم تنشطه حركة قوية • وقد امد الكائنات التى في دور التكوين بالنفس (Sauneron, Esna) : ...

عن هذه القدرة • غير انه كان يجب شرح الأسباب التى تربطه بالآلهة الشبيهه به فى الفنتين وهوا بسليس Hypselis (١) وانطينوى(٢) وهيراكليوبولس(٣) وتمويس Thmouis (٤) وقد شرح علماء اللاهوت ذلك بأنه يمثل المجموع الكلى لأربعة آلهة ــ كباش • كان يطلق عليها الكباش الأربعة الأحياء ، ولم يكن خنوم الا اله هيراكليوبولس واله ثمويس ومنديس الذى يوزع بذره ، المستخفى عن الآلهة وعن الناس • ولم يكن فى هذا الكفاية وقد اتخذ بنفسه مهمة الخلق بأكملها بوصفه الها أزليا أصبح خنوم ــ رع :

وقد نسب اليه الزواج من الهة خصب زراعى كان يطلق عليها « نبت وو » أى «سيدة ــ الاقليم ــ الخصيب » • ولقد شبهت بالالهة أرموثس ، الهة الحصاد • وقد نسبت اليهما أبوة حكا الطفل وهو شخصية فيها قدر من الغموض • وإننا لا ندرى متى التحقت نايت بخنوم • ولقد اتخذت زوجة خنوم هذه ، فى العصر المتأخر مكان الصدارة ، فى اسنا التى صارت تمثل فى الصعيد ، ما تمثله سايس (صا الحجر) فى الدلتا • وكانت معبودة مصر السفلى العتيقة ذات الحول، فى كل الأزمنة القديمة، أزلية وخالقة • ولم تضم اليها أى اله لأنها كانت تستحوذ على ثنائية جنسية أصيلة • ولا شك فى أن عجالات اسنا اللاهوتية قد نقلت عن

---

(١) وكذلك فان المخلوقات باجمعها تعلن لك اعترافها بالجميل ، لانك بتاح ــ تانن ، الخالق بين الخالقين ، الذى اوجد فى « اسنا » كل ما هو كائن : ذاك الذى غذى الكائن الصغير داخل بطن امه الى ان يحين الوقت الملائم •• ولهذا فانه صاغ البشر واتى بالآلهة للعالم وصنع الحيوانات صغيرها وكبيرها • وخلق الطيور والاسماك وكل الجنس الزاحف : وجعل الاسماك تقفز ، بامره ، فى مياه نون ، فى مخرج الكهفين حتى تغذى الناس والآلهة ، فى اللحظة المناسبة • وجعل المزروعات تنبت فى وسط الريف وجعل الشواطىء بالازهار • واخيرا شق صدوعا صخرية فى قلب الجبال واجبر المناجم على قذف المعادن التى تحتويها (ترجمة سونيرون) • (المترجم) •

(١) شطب •

(٢) الشيخ عبادة •

(٣) اهناسية المدينة •

(٤) تمى الأمديد •

اعمال دينية أصلية في سايس (صــا الحجر) حين شرحت كيف ان : الاباء ، وام الامهات ، الـكائن الالهى الذى بدأ يدعونه في البدء ، كان يوجد داخل المياه الأولى التى خرجت من تلقاء ذاتها بينما كانت الأرض فى ظلمات الاعمــاق ولم تكن اية ارض قد ظهرت أو أى نبات قد نما ... (ترجمة سونيرون) .

في ذلك الحين كانت تتصور في قلبها عنــاصر الــكون التى كانت توجد بمجرد تصورها لها . وكانت تسعى فى أن تحدد بوضوح الكائنات ثم تنطق باسمها فتظهر للوجود . وعلى هذا النحو تلفظت بسبع كلمات خالقة . لقد عملت ، بادىء ذى بدء ، على أن تبرز التل الأول الذى اتخذت فوقه مكانا . وكان هذا التل هو اسنا وسايس ، فى نفس الوقت. وبعد ذلك خلقت الشمس ، رع ــ آمون ــ خنــوم ثم آلهة هرموبولس الثمانية Ogdoade وفى النهاية ، تحوت . وهنا يجد المرء أفكار خلق الكون السائدة في منف وهليوبوليس وطيبة ، وقد صيغت لصالح ســايس واسنا . وبمجــرد ان تهيىء المصادر شيئا من الوفرة ، توجد نفس النوازع العامة التى يلحظها المرء فى كل مدرسة محلية . وهى الارتقــاء باله المكان أو الهته الى مقــام الاله الأوحــد ، فيصبح خالق العالم والآلهة والناس فى نفس الوقت .

ان وجه الغرابة هنا ، هى الأهمية التى اتخذتها نايت الهة سايس التى تستحوذ لنفسها على المكانة الأولى فى اسنا . ومع هذا ، فانه ليس من المؤكد تماما بانه كان يوجــد أى تناقض بين خنوم الذى صور الخلق ونايت الخالقة . ان عمل نايت يتخذ مكانه فى الأصل الأسطورى عينه ، بينما يقــوم خنوم بعد ذلك بذاته بصنع العالم والآلهة والناس . وهــكذا تنتظم الفوضى الظاهرة فى وسائل الخلق المتباينة هــذه ، والشخصيات الالهية المختلفة التى ذكرت . ولا شك ان أكثر علماء اللاهوت دراية ، كانوا يظنون ــ كما سبق أن أوضحنا

عند دراسة مناهجهم فى التعبير أن الحقيقة تستقر فى مكان ما ، يقع فيما وراء كل هذه الصور التى حاولوا فى عسر شديد تنظيمها حتى مع ابرازهم بعض التناقضات ، مثل ظهور التل الأول فى اسنا وسايس ، فى نفس الوقت ٠

وعلى أية حال ، كانت نايت قد وطدت قدمها فى اسنا فى العصر المتأخر ، حتى ان السمكة لاطس Lates (قشر البياض)(١) ، حيوانها المقدس ، كانت تكرم فيها اعظم مما كان يكرم كبش خنوم وأن الاغريق أطلقوا اسمها على المدينة : لاتوبوليس Latopolis ٠ شاهد اعضاء اللجنة المصرية فى عهد بونابرت فى مواجهة اسنا تماما ، على الشاطىء الأيمن ، معبدا يرجع الى العهد المتأخر خصص للالهة حاتحور ٠ ولو أننا رجعنا الى البيانات الايجابية الواردة فى نقوش لاتوبوليس ، لما رأينا لهذه العبادة الا القليل جدا من الصلات بعبادة الالهات العظيمات ، التى كانت تقوم فى مواجهتها ٠

وعلى مسافة لا تبعد كثيرا عن اصفون « مسكن ــ سنفرو (٢) » العتيق ، وفى مدينة على الشاطىء تسمى حفات(٣) ، كان يعبد الاله حمن ، وكان يتخذ أحيانا شكلا آدميا وأحيانا أخرى شكلا محنطا كحورس هيراكونبوليس ، وكان له مظهر محارب وتقام له أعياد بحرية تنتهى بمقتل فرس نهر يرمز للشر والعدو ٠ وقد كان له تواصل مع ايزيس ونفتيس التى كان له ابنة منها ٠ ولكن شخصيته لا تزال بمنأى عنا ٠

---

(١) لاطس Ltaes Niloticus سمك فى النيل من فصيلة القشور serranisae تعرف له فى مصر اسماء كثيرة منها القشر والفرخ وحمار البحر (معجم الحيوان ، أمين المعلوف) ـ (المترجم) ٠

(٢) اسم اصفون فى اللغة المصرية كاملا هو h(w)t - sntfrw ومعناه قصر سنفرو ٠ وتوجد أمكنة عديدة تحمل اسم سنفرو ثبت ان معظمها يرجع الى الدولة القديمة ٠

(٣) حفات ـ اسمها بر ـ حفاو (اى بيت الأفعى ، بيت الحفات) ٠ وكتب حفات وحفت الخ ٠ وكانت تقع على شاطىء النيل الأيمن الى الجنوب من الجبلين ربما عند « المعلة » بين اصفون جنوبا ، وبرحوت حرت Pathynis شمالا ٠

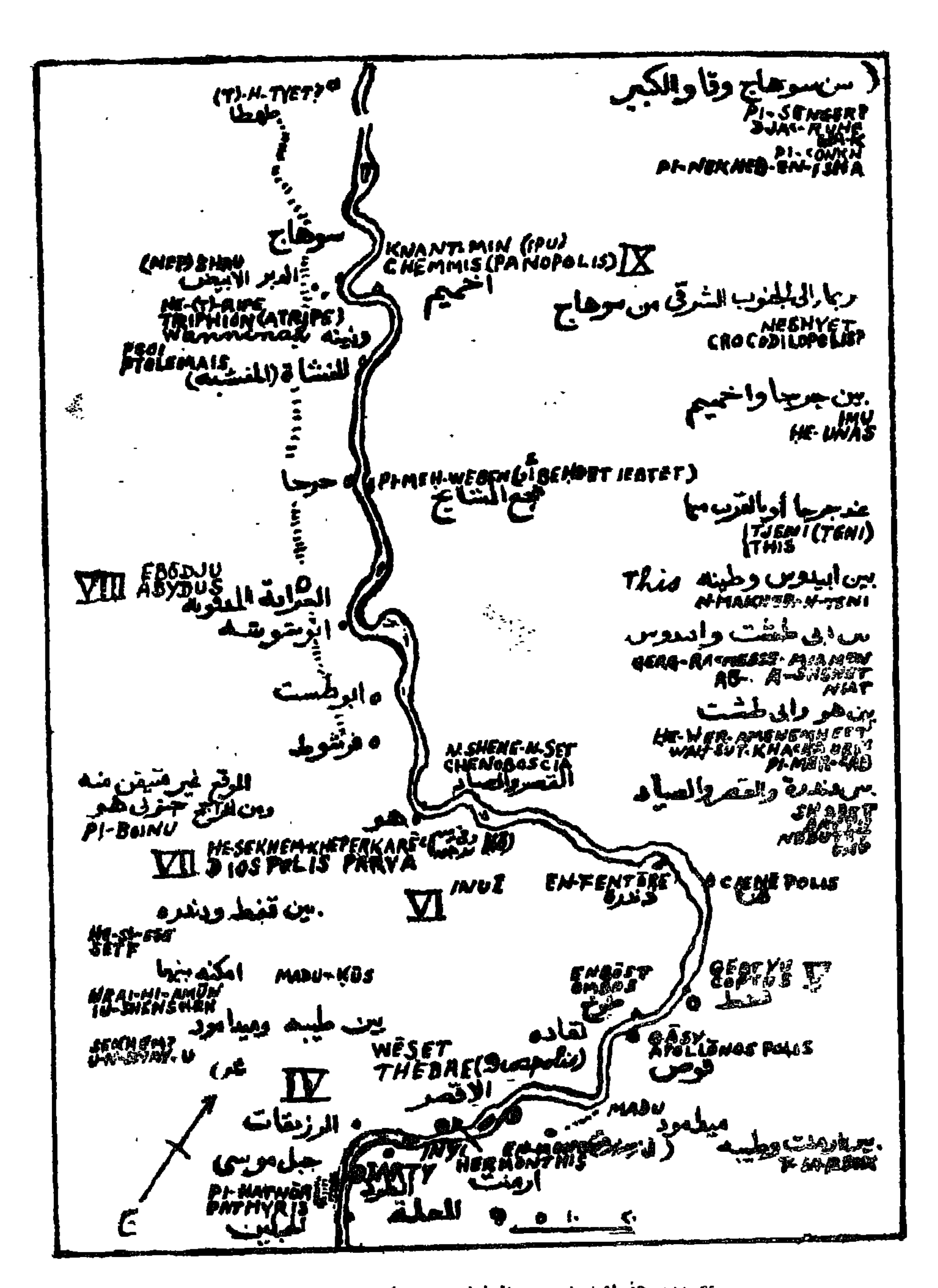
ولا تتيح لنا الوثائق أن نضفى خصالا معينة على حاتحور الهة مدينة الجبلين ، وهى باثورس Pathynis (١) القديمة . وان كانت معارفنا ستزداد عنها فى دندرة ، وقد كان يعبد على مقربة منها « سبك » بالاشتراك مع « خنوم » فى مدينة سومنو التى لا نعلم أين تقع على وجه التحقيق فى المنطقة (٢) .

وتسمح الأناشيد التى يرجع مصدرها الى سومنو عينها بأن نتبين بعض ملامح شخصية الهها فى شىء من دقة أعظم ، ولكن فى العصر المتأخر ، دون سواه . ومع هذا فلابد أن خصالا ليست بالقليلة كانت أعظم قدما . لقد أصبح ، بادىء ذى بدء ، حليف أوزيريس وأخذ يغوص فى النهر ليلتقط منه العناصر المتفرقة من جثمان الاله . وهكذا يتعاون مع آلهة فريق أوزوريس . ويبتهج الآلهة الآخرون بمحضره وينحنون أمام ألوهيته . وهذا لا يدعو الى الدهشة ، لأنه دافع عن رع فوق مركبة وأطاح بالمارد أبوفيس الذى يهدد دون انقطاع بابتلاع الشمس . والأفضل من هذا ، القول انه رع نفسه . انه يصبح شمسا وينير العالم بأشعته . ومنذ هذا الحين ، ستوصف أبديته الالهية بتعابير شمسية : فى كل الأمسيات تبتلعه أمه نوت ويضىء لسكان الغرب (الموتى) أثناء الليل وبعد استكمال حمله ، يعود للطلوع فى الصباح . ولقد اتخذ من رع طبيعته الأزلية فهو الذى ظهر فوق تل البدايات الأولى وجفت الأرض بعد ظهوره . انه خالق الأرض وكل ما تحمله .

---

(١) فى أسفل الجبل ، الى الجهة الشمالية يوجد تل هو موضع مدينة عتيقة ، دلنا نقش يرجع للسنة الثانية عشرة من حكم طريان على أنها باثورس ، بر حاتحور اى بيت حاتحور .

(٢) تقع بين ارمنت والجبلين فى المقاطعة الرابعة واستقر الرأى على أنها الرزيقات
Gauthier — Dict. Geog. Tome Cinquieme.



مصوره جغرافيه : مصر العليا ـ من الجبلين الى طهطا وبيان المقاطعات

وكذلك فقد وهب الثنائية الجنسية ، على غرار عدد معين من الآلهة التى صورت الخلق • ولما كان انحدر عن نون، فانه هو النيل المخصب الذى يغرق الأرض بفيضه ويجعلها تأتى بنتاج • بل لقد أعلن الها أوحد مرات عديدة •

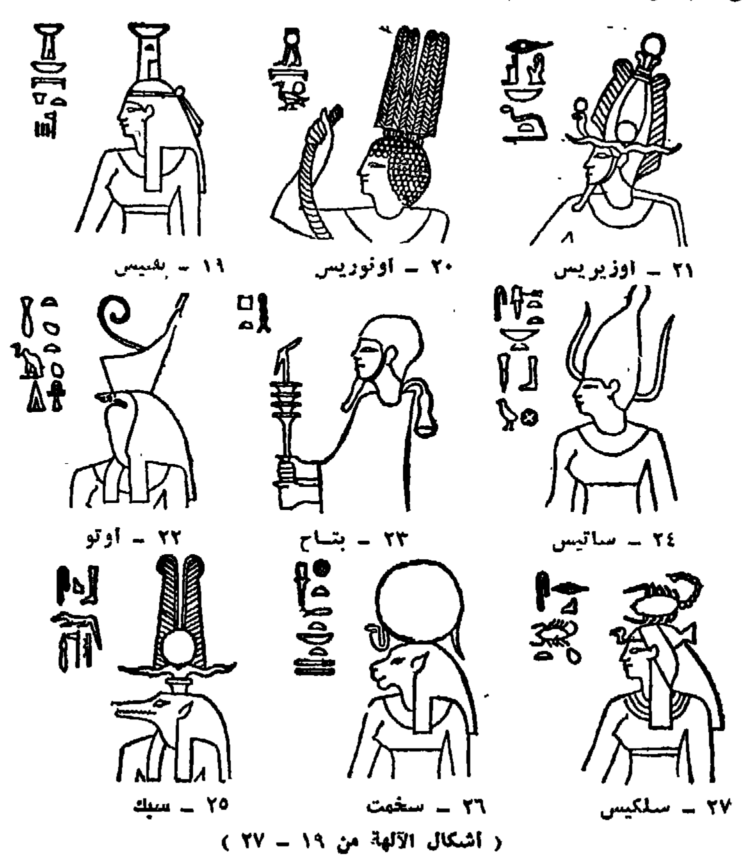
ويجب أن نصل الى مدينة الطود « طوفيم » القديمة : لنعثر على معبودات توجد عنها وثائق وفيرة ، فهناك نجد أطلال معبد عظيم خصص للاله مونتو • (شكل ١٤) • وقد كان الها فى أربع مدائن : الأولى أرمنت واسمها القديم هرمونثيس Hermonthis ، وتقع على بعد ما يقرب من خمسة عشر كيلومترا الى الجنوب من طيبة ، على الشاطىء الأيسر والطود التى تواجه أرمنت تماما وطيبة ومدامود ، على مسيرة بضعة كيلومترات شمال الكرنك ، انه رب قديم جدا لهذه المنطقة • وكان حيوانه المقدس الصقر وكان يصور فى الكثير الغالب برأس هذا الكاسر • ولم يحدث الا فى زمن متأخر ، أن اتخذ أيضا الثور كرمز له • وكان هذا هو الثور الذى عرف — فى أرمنت — فى العصر الاغريقى باسم بوخيس (١) • وأحيانا كانت صوره تمثل رأس ذلك الحيوان • وكان يربى فى حظيرة مقدسة بالقرب من المعبد وكان يشاهده الأوفياء والغرباء ، وكان يعد رفضه أو قبوله الغذاء الذى يهيأ له بمثابة النبوءة ولكن ذلك لم يكن الا تطويرا متأخرا لعبادة أكثر قدما •

وفيما يبدو ، لم يكن لمونتو ، أكثر من غيره من آلهة المدن ، تخصص متميز فى بداية ألوهيته • ولكن من الراجح أنه بعد الزمن الذى نجح فيه الملوك الذين يطلق عليهم منتوحتب أى أولئك الذين يحملون اسمه ، أن يعيدوا عن طريق الغزو وحدة القطر المزدوج ، قد غدا الها محاربا

---

(١) اسمه فى اللغة المصرية (به) bh وترجع مصادره الى العهد المتأخر والعهد الاغريقى يقابل هبا وهو صنم عبد فى الجاهلية — (المترجم) •

يأتى بالنصر ويحالفه الظفر • ولما كانت لديه ، على الأخص، موهبة الحرب ، فانه هو الذى يخضع للملك الأقطار الأجنبية • انه هو الذى أسرع الى نجدة رمسيس الثانى فى لحظات الشدة على أرض معركة قادش ، ولقد سمع فى آرمنت نداء ابنه • وقد شبه بالاله المحارب بعل عندما نشأت بين المصريين ، فى عهد امبراطوريتهم الآسيوية، وبين الساميين روابط متصلة • وبعد الغزو الآشورى أقيم فى مداموت نصب يصور أربعة آلهة بهيئة مونتو برأس ثور ، وكل اليها السهر على الدفاع عن الجهات الأربع الأصلية فى طيبة ؛ للحيلولة دون انتهاكها مرة أخرى ، وقد صنعت له تماثيل من البرونز تمثله فوق الأقواس التسعة ــ التى ترمز الى مجموعة الشعوب المعروفة •



(اشكال الآلهة من ١٩ ــ ٢٧)

ومع هذا ، فقد بقيت ذكرى الزمن الذى كان فيه الها لجميع انواع النشاط فى المقاطعة • ولقد كان على الدوام يظهر على راس الجماعة الالهية التى تتألف منها حاشيه آمون ، تاسوع الكرنك العظيم الذى كان ، فى عهد الدولة الوسطى ، ينتمى اليه ، بادىء ذى بدء فيما يرجح • ولقد كان سيد طيبة • وفى عهد تحوتمس الثالث على الأقل اتخذ الصفات الشمسية باسم مونتو ــ رع • ولقد آل أمره أيضا ، على مثال اله قفط ، الى أن يتمثل تمثلا تاما بالاله آمون وأن يطلق عليه مونتو ــ رع • وقد رتلت له فى العهد الاغريقى الأناشيد التى كانت تتغنى به بوصفه الها خالقا رحيما بخلقه • حقا أنها كانت تنتهى بأنغام عسكرية تثير ذكرى الوحشية والعنف فى معارك القتال ، ولكن ما نعلمه عن حورس ادفو وخنوم يسمح لنا بأن نفهم كيف جرت الأمور فى مراكز عبادة مونتو •

كان يظهر فى أرمنت وقد أحاطت به معبودتان ، ترجعان ، دون ريب ، الى عهد سحيق القدم : تأننت وايونت اللتان لا نعرف عنهما الا أقل الأشياء ، والأولى تحمل على رأسها ساقى نبات يلتفان فى شكل لولبى ، على هيئة صليب فى أقصى طرفهما الأعلى • ومن الجائز أنهما كانتا معبودتين قديمتين من معبودات الخصوبة فى الريف ويجدهما المرء بالقرب من أرمنت على كتلة من الحجر فى مقدس حاتشبسوت بالكرنك • وعندما أضفيت على مونتو خصائص شمسية ، وبذلت الجهود لعمل مقابلة أوثق بين أون ــ الشمال (هليوبوليس) وأون ــ الجنوب (ارمنت) ، خلقت للاله زوجة يطلق عليها « شمس ــ القطر ــ المزدوج ــ المؤنثة » رعت تاوى التى شبهت بتاننت • وعند ذاك جاء الاله الابن «حربا رع» الذى صور مولده فى هيكل ميلاد أرمنت، والمتهدم اليوم • وكانت النقوش التى تشرح الصور تنوه بالرمز الفلكى لظهور اله الشمس هذا •

وبقيام الأسرة الثانية عشرة اكتسب آمون (شكل ١) أهمية بالغة في المقاطعة • اننا نتساءل : من اين جاءت هذه الاهمية له ، وقد كان الاله المغمور فى قريه طيبه الصغيرة فى نهاية الدولة القديمة ؟ ونستطيع ان نتبين ذلك مما ورد عنه قديما فى نصوص الأهرام • فمما يسترعى النظر انه منذ ذلك العصر البعيد كان اسمه يتبادل ، في صيغة مغايرة ، مع اسم اله قفط « مين » • بل انه في بداية الدولة الوسطى ، يصبح التمييز بين آمون ومين مستحيلا فى معبد استراحة (١) سنوسرت الأول بالكرنك ، ومع أن النقوش كانت تستعير فى كثير من الأحيان صورة الاله « مين » ، فان اسمه لا يظهر على الاطلاق ويدعى الاله على الدوام آمون أو آمون ــ رع • وتشير هذه التسمية الأخيرة الى حدوث امتزاج منذ نهاية الدولة القديمة • وفى الواقع ، يقرأ المرء على ظهر تمثال صغير من الحجر الصلب ، عثر عليه فى الكرنك فى آخر القرن الماضى ، أسماء الملك بيبى الأول يتبعها ذكر « المحبوب من آمون ــ رع ، سيد طيبة » • ومن الجائز أن الملك وقد أراد كذلك آن يستحوذ لنفسه على الانتساب لآلهة مصر العليا ، عمد الى تشبيه آمون بأبيه رع • وكان من شأن العملية أن تكون أعظم يسرا بما أن اسم الاله يطابق الأصل المصرى « امن » خفى • وكان هذا « الاله الخفى » يمكن آن يتجلى فى كثير من الأشكال ، شكل رع على الأخص أو شكل « مين » •

وعلى آية حال فاننا نجهل المعنى الأول لاسمه • ولقد قوبل باللفظ البربرى آمان ومعناه ماء (٢) • ويمكن آن يعزز هذا التقريب ارتباط أحد حيوانات آمون المقدسة وهو الكبش ــ على ما يبدو ــ بعبادات الخصوبة فى

(١) ــ المكان المعد للراحة ، أو هو جوسق يعد فى طريق موكب عيد تودع به الأسرار المقدسة ــ (المترجم) •

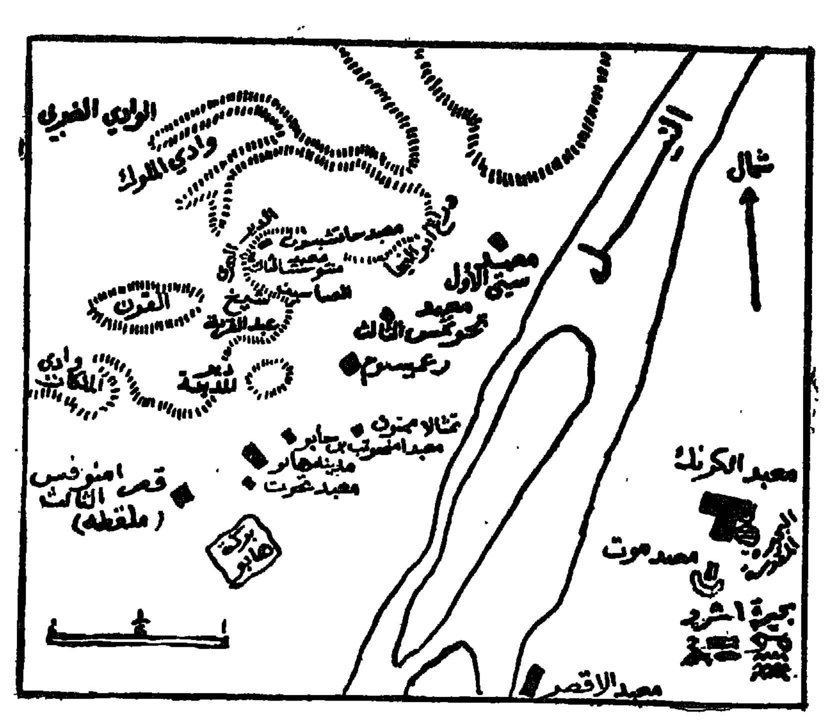
(٢) هذا مجرد تشابه صوتى واحيل القارىء الى التعليق الوارد فى آخر الكتاب • (المترجم) •

الصحراء • ومع أنه لا يوجد لدينا الا القليل من المعلومات القديمة عن آمون ، فانه يتجلى بجميع خصائص قدرة الهية تاصلت جدورها تماما فى ردن صعير من الارض هو — دون ريب — الكرنك الحالى ، حيث يحتمل ان يكون قد ولد وزير آخر الملوك المسماة منتوحتب • ولقد استولى هذا الوزير الذى يدعى امنميس (امنمحات) على الملك وقام بتأسيس الأسرة الثانية عشرة • وعند ذاك ازدهر حظ امون • وبعد أن أصبح اله الامبراطورية ، لم يتوقف تزايد هيبته : انها حقيقة واقعة أن علماء اللاهوت فى طيبة قد كشفوا عن قدرة رائعة فى وضع النظريات • لقد أمكنهم أن يستغلوا تماما الخاصية التى يهيؤها اسمه : « الخفى » • وتعرفوا هويته فى أعظم الآلهة قدرة فى جماعة الآلهة المصرية ؛ وأفادوا من أفكار هرموبوليس عن خلق العالم وبما أن واحدا من أعضاء الآلهة الثمانية Ogdoade فى هرموبوليس كان يحمل نفس اسمه فقد جعلوا منه الها أزليا •

ومع هذا ، لم يمنعه ذلك من أن يرتبط — على غرار جميع الآلهة المحلية — بجيرانه ليكون معهما ثالوثا • وقد كانت هناك الهة كان حيوانها المقدس العقاب وهى موت (شكل ١٥) ، ولعلها « الأم » النموذجية ، كانت تقيم فى مكان قريب جدا ، تحيط به من ثلاث جهات بحيرة لها شكل شبه دائرى وتسمى أشيرو Achérou (١) • وقد عدت موت قرينته ونسب لهما ابن هو خنسو (شكل ١٣) الذى كانت شخصيته مزدوجة ، على الأقل فى العصر المتأخر : « خنسو — فى طيبة — نفرحتب » و « خنسو — الذى — يحكم — فى — طيبة » •

---

(١) اما لفظ اشرو الذى جاء فى النصوص المصرية فهو اسم البحيرة التى كانت تقع الى الجنوب من معبد آمون بالكرنك واطلق على الحى الذى أقيم بالقرب من تلك البحيرة والذى كان يحوى معبد موت — (المترجم) •



منطقة طيبة (H. Kees an Eg.)

ولقد تعددت أمكنة عبادة آمون في المنطقة • وفي الأقصر كان للاله « حرم ـ الجنوب » وهو اسم معبد الأقصر الذي أعيد بناؤه في شكل رائع، في عهد امنوفيس (امنحوتب) الثالث • وعلى الشاطىء الأيسر ، كانت تقدم له العبادة في المدرج الذي اتخذه كل من منتوحتب وحتشبسوت بعده موضعا لمعبديهما الجنازيين • كما أقام له كل من الملكة ثم الملك تحوتمس الثالث ، جوسقا مقدسا بلغ الغاية في الروعة المعمارية ، وفي مدينة هابو ، وفي الأسرة العشرين ، عرفت هياكل لآمون تحمل أوصافا متنوعة : آمون ـ با ـ خنتي وآمون ـ تا ـ شنيت وآمون بوكنن • ويدور في ذهن المرء انه تجاه هياكل مختلفة على غرار هياكل السيدة العذراء « نوتردام » التي توجد لدينا ! ومرة آخرى لنقتصر هنا على منطقة طيبة ، بما أن عبادة اله الحاضرة تشعبت في جميع أرجاء القطر •

سنعود لنتحدث فى اطناب ، عن آمون اله الامبراطورية عن علم لاهوته المعروف لنا معرفة جيدة من وثائق عديدة • وتوجد ، فضلا عن هذا ، مشكلات عامة جدا تتصل بالديانة المصرية • ويكفى أن نوضح ، فى هذه الاونة ، أن هذا الاله الذى قدر له أعظم مصير ، تتعمق أصوله تماما ، كالكثير من الآلهة غيره ، فى التربة المحلية التى استمد منها المجد ملوك حملوا اسمه وعبقرية علماء لاهوت أوتوا القدرة على تعميق طبيعته •

ولكن طيبة كانت زاخرة أيضا بكثير من الآلهة غيره • ومنهم حاتحور (شكل ٨) وأنوبيس (شكل ٣) اللذان عبدا فى مدرج الدير البحرى ، وأوكل اليهما الجبانة • وكانت حاتحور تتقبل عبادة على مسافة أبعد الى الجنوب فى « موطن الحق » ، أى دير المدينة الحالى حيث كان يعيش ، فى عزلة ، عمال الجبانة الملكية • وكان الجبل يرتفع فوق وادى الملوك ، بما يدعو للدهشة ، وهو يتخذ شكل هرم • وكانت تقيم به الهة يطلق عليها أحيانا « القمة » وأحيانا أخرى « سجر » (تلك التى تحب السكون) وهو اسم أجيد اختياره ، بصفة خاصة ، ليطلق على الهة موتى • وكانت لها أيضا مغارة تقدم لها فيها القرابين وتقع فى منتصف الطريق بين دير المدينة ووادى الملكات • وكان خنوم ومعبودات الشلال تستحوذ كذلك على معبد الشاطىء الغربى ، فى الأسرة التاسعة عشرة •

واذا أضفنا الى هذا أنه كان يوجد ، داخل فناء معبد آمون فى الكرنك ، ذاته ، معبد لبتاح ، ومعبد لأوزيريس صوب الباب الشرقى ، كما أقيم فى عهد متأخر على مقربة من الباب الجنوبى معبد فيه أنجبت الالهة أوبت ــ نوت أوزيريس ، وقد تجمعت لدينا معلومات فى تلك المنطقة ندرك منها الى أى مدى كانت العبادات المحلية وفيرة ومتباينة فى مصر •

والى الشمال من طيبة ، في قفط ، كان يسود اله غريب : وكان يصور مرتديا ثوبا شديد الالتصاق بجسده ، رافعا بيده اليمنى التى كان يدعها تمر فوق كتفه سوطا دون أن يقبض عليه حقيقة • وكان عضوه « منتصبا » وفي معظم الاحيان تتخذ بشرته اللون الأسود وهو ما يمثل رمز الخصوبة أكثر مما يمثل اللون الحقيقي للشخص • وقد ساد « مين » فى الواقع فى كل الوادى الصحراوى الذى يطلق عليه « وادى الحمامات » وكثيرا ما ربطت النصوص بينه وبين اقليم الجنوب • والى الخلف من صورته يوجد فى الكثير الغالب، كوخ القش الذى كان يستخدم في الاصل معبدا له • ولأجله يزحف الزنوج وقد غرسوا ريشة في شعرهم ، في اتجاه سارية اقيمت • وكذلك ذهب الظن الى انه يرجع الى اصل أجنبى، افريقى دون ريب • وليس مستحيلا أن يكون قد جاء عن طريق قفط ، لانها منتهى طريق البحر الأحمر ، عند النيل • ولكن يبدو أن أصل « مين » يرجع الى أخميم التى تقع على مسافة ابعد الى الشمال • ولقد طابق الاغريق بينه وبين الههم «بان» • وكان يقدم له خس مصر عظيم الحجم الذى يعد مصدرا للقوة الجنسية • ولقد استعار منه جاره آمون صورته وشخصيته أيضا • وقد ارتفع « مين » — فى مقابل ذلك — الى مرتبة الاله الأزلى والخالق ، مما كان يتلاءم مع الرمز الالهى للخصب • وقد عدت ايزيس زوجة له كما عد حورس ابنا له • وكانا يظهران أحيانا معه في النقوش العديدة التى تركتها فى جميع العصور ، البعثات التى كانت تذهب الى وادى الحمامات بحثا عن حجر « بخن » (١) •

وفي مدينة قوص الحالية ، التى تتبع نفس المقاطعة ، ولكنها أقل أهمية ، كان يعبد حورس والهة تدعى حكت • ومع هذا فقد كانت العبادة العظيمة الآخرى المجاورة ، عبادة ست (شكل ٢٨) • وكان الاغريق يطلقون اسم

(١) الشست •

« أصقاع تيفون » عـلى اقليم نبت أو أمبس الذى ولد فيه ست والذى يقع بالقرب من كوم بلال الحالى • ولقدكانفى العصور البعيدة الها كغيره من الآلهة على الرغم من معاركه التى خاضها ضد حورس وكان كذلك يقوم بدور فىالأساطين الشمسية وفى حماية الملك • ثم شبه بالشر عينـه وأخـذ ينحى جانبا مع تزايد أهمية عبادة أوزيريس الى حد أننـا لا نعرفه معرفة جيدة •



٢٨ ـ ست ٢٩ ـ صوكاريس ٣٠ ـ تحوت

(الأشكال ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠)

ويقص جوفنال Juvenal (١) أن فى زمنه تقاتل أهل أمبس مع أهل دندرة ، جيرانهم فى الشمال ، وأنهوا صراعهم بالتهام لحوم البشر • ألم ينسب أعداء أشـياع سـت اليهم جرائم شنيعة جمعها اللاتينى الساخر دون نقد واف ؟

★★★

وبمواصلة الابحار هبوطا فى النهر ، نصـل الى دندرة تنتورس Tentyris القـديمة • وهـذا تعبير مصرى معنـاه « المنتمى للالهة » • وقد كانت تلحق هذه الصفة فى الواقع باسم المدينـة ، وهـو أون ، لتمييزها عن المدينتين اللتين تحملان نفس الاسم ، هليوبوليس وهرمونثس • ولقد كانت حاضرة مقاطعة ، ظل اسمها يكتب خلال زمن طويل ، برمز

---

(١) Juvenal : شـاعر ساخر لاتينى ولد فى اكوينم حوالى عام ٤٢ م • وتوفى حوالى عام ١٢٥ • وقد وجه سخريته اللبثة قوة وزراية ضـد مساوىء روما • وقصيدته الخامسة عشرة عن مصر وفيها يعدد صنوف الآلهة من حيوان ونبات بروح مجانة عظيمة ـ (المترجم) •

تمساح يحمل ريشة وكانت هذه وسيلة للدلالة على آنها كانت مقدسة • وكان يقرا «يك» أو شيء يقرب من هذا وقد عرفت أمثلة نادرة لاله تمساح تطلق عليه تسمية كهذه فى أماكن أخرى ، ولشعار مقاطعة دندرة ولاسمها أيضا تاريخ شديد الغرابة يبين الى أى حد كان يمكن أن تختلط فيه المنازعات اللاهوتية والتنظيم الادارى فى مصر القديمة • فان سبك الذى كان جزءا من تاسوع أمون فى الكرنك ، قد ظهر بهذه الصفة فى دندرة حتى عهد الأسرات الوطنية الآخيرة بينما تقص احدى العجالات التى يحتمل آن تكون قد كتبت بعد ذلك آن سبك هو ست فى دندرة وهذا يعنى أنه كان يطارد بلا شفقة فى مقاطعة أوزيرية ، ومع هذا فانه لم يحدث الا فى عهد البطالمة أن هشمت صورته التى كانت نادرة واستبدلت بها صور آلهة أخرى • ولقد وصل الأمر الى اعادة تسمية المقاطعة « أتدى » الذى استعير من اسم المعبد الذى ولدت فيه ايزيس فى اليوم الرابع من آيام النسىء ويوجد ذلك المقدس الذى اشار اليه استرابون ، الى الجنوب تماما من معبد حاتحور •

كانت حاتحور ، فى الواقت ، (شكل ٨) الهة دندرة فى كل العصور القديمة • ونحن نعلم أنها كانت تعبد فيها منذ الدولة القديمة ولقد خصص لها الملك بيبى الاول آثارا تذكارية عديدة : منها تمثال صغير لها من الحجر الجيرى الصلب كان يمثله بكساء عيد « سد » ، وتمثال آخر آثمن كثيرا منه ، لأنه من الذهب يصوره راكعا وهو يتهيأ لتقديم صورة ابنه الموسيقى « احى » للالهة • لقد كانت معبودة قديمة جدا يجدها المرء فى عهد ما قبل التاريخ ويرد ذكرها فى نصوص الأهرام• وكانت قد غدت توصف بعبارة « تلك التى تنتمى لدندرة » ويحاول الملك المتوفى آن يصل الى المنطقة السماوية التى تقطن بها • أولم يكن اسمها يعنى « مسكن ـ حورس » الصقر الذى يحوم فى أبعد مناطق السموات ؟ لقد كانت أيضا بقرة السماء ، المعبودة الكونية

العظيمة ، التى تلد الشمس • وعلى الرغم من غموض الأسطورة • لانه لا يوجد لدينا أى قصة متصلة لها ، فقد سمحت للشمس أن تطلع، في ظروف أخرى، من بين قرنيها• وقد اعيرت هذه القصة بعد ذلك الى نايت أو الى البقرة « مثير » ، الفيض العظيم ، وهو خلق لاهوتى خالص • وتشهد هذه الدلائل القليلة على أنه ، منذ أقدم الوثائق الدينية ، وجد عمل لاهوتى كان قد وصل الى تقدم عظيم• وهو ما يدعونا الى الحذر فى أن نتصور اكتشاف علامة عصور أكثر حداثة حين نلتقي ببعض الدقائق أو التعقيدات اللاهوتية • بل ان الكثير من خصال الآلهة ، التى تحددها لنا، فى دقة ، نقوش المعبد الاغريقي ـ الرومانى ، ترجع الى أقدم العصور •

فقد شبهها كتاب النواويس بالالهات الأجنبيات : اليست « سيدة ببلوس » ، تلك الالهة « بعلات » السامية كتلك التى تسكن سرابيط الخادم ، على مقربة من مناجم الفيروز في شبه جزيرة سيناء و « سيدة بونت » على ساحل الصومال القصي ؟ وفضلا عن هذا ، فقد كانت على الدوام المعبودة الكونية العظيمة المرتبطة برع • ان الأسباب التى تربطها بالشمس كانت موضوع أسطورة أتاحت لنا المعابد التى أقيمت فى العهد المتأخر الى جانب نص أدبى جميل مكتوب بالديموطيقية أن نعيد تشكيلها • كان رع مازال يعيش على الأرض ويتولى بنفسه حكم البشرية • ولكن ابنته حاتحور ـ تفنوت لم تكن تقيم الى جواره فى مصر • بل كانت تقطن صحارى النوبة الشرقية فى صورة لبؤة متوحشة ومخيفة تقذف عيناها النار وتلتهم لحم أعدائها ودمهم • ويرغب «رع» فى أن يحضرها اليه ، وذلك دون ريب لأنها ابنته ولأنه يحبها وكذلك ليجعلها حامية له وقد كان عليما بقدرتها • ويعهد بمهمة حملها على العودة الى الالهين « شو وتحوت » • وكان أولهما ، بصفة خاصة ، مخلصا لرع وكان يحب أخته تفنوت التى كان يجب أن تصبح زوجته •

وكان تحوت سيد كل سحر وكل كلمة مؤثرة ، قادرا على تهدئة غضب الالهة واستئناسها • ولقد أخذ الاثنان سبيلهما الى قطر بوجم (١) البعيد حيث تقيم وتحولا الى قردين للوصول اليه • وكان أحد مواضيع حديثهما الكمال الذى بلغته مصر ، بلد رع والنيل الذي يجتازها والحقول المزروعة يانعة الخضرة والقرى والمدائن التي تجعل منها بلدا منظما • واذا قدمت اليها ، فستشيد لها المعابد وستقدم لها كل يوم الغزلان والتياتل والتيوس التى تعودت عليها • وسيضاف اليها النبيذ الذى يجلب النشوة ويطرد وساوس القلب • ولن تنقطع الموسيقا والأناشيد وأنواع الرقص فى ساحات أبوابها • ويرفق تحوت الحركة بالقول ويقدم لها اناء النبيذ للمرة الأولى ويضيف اليه الصيغ السحرية •

ولم يكن في أستطاعة الالهة مقاومة مغريات الرسولين الالهيين ، المتضافرة • ويتألف موكب بهيج : من قرود وأقزام غريبة مضحكة ، ويصحبه بس وجيتى وهما يعزفان على القيثارة والعود •• ويصير شو نفسه موسيقيا ولا يكف تحوت عن أن يصف فى ألفاظ ساحرة « البلد ــ المحبوبة » التى يتجهون اليها • وفى البداية يصلون الى فيلة حيث تقوم باستقبال الالهة التى عادت راضية ، سيدات توجن رءوسهن بالأزهار وآخذن يحتفلن بمقدمها على صوت المصلصلات والطبول وهن يغنين ويرقصن ، وقد انضم اليهن كهنة يعزفون القيثارة ويحملون على ظهورهم غزلانا ويقدمون أوانى النبيذ وباقات الأزهار والمر وتيجان الورد • وتصبح اللبؤة المتوحشة حقا وقد طهرها الماء المقدس الهة الحب : محيا

---

(١) قطر بوجم أو بوكم ـ اختلف علماء الآثار في موقعه فذكر أحدهم (بروجش) أنه يوجد الى الشرق من مدينة الكاب ، بين النيل والبحر الأحمر ويقرر يونكر انه فى جهة أبعد كثيرا الى الجنوب اما سكابرلى Schiaparelli فيقول انه يوجد في السودان ، اقليم بونت • ويضيف (جوتيه) الى هذا انه يذكر مرارا عديدة مرتبطا مع بونت وبلاد الالهة (بلاد العرب) ـ (المترجم) •

جميـل ، شعر تنتظمه عقائص عظيمـة وعينـان تلمعـان وصدر نافر ٠

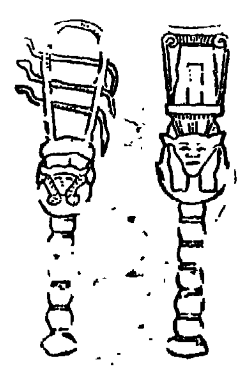
ثم تستمر الرحلة وتستقبلها أذرع مبسوطة فى كوم امبو وادفو واسنا وعلى الاخص فى دندرة ، مدينتها : وهى « مقر القلب » و « أمكنة تفنوت » و « الموضع الذى تحبه تمنوت » الذى قال عنـه تحوت : « ان البهجة تسـوده وفيـه يقدم لها النبيذ ، دون انقطاع ، قبل اية الهة أخرى ٠ ولقد تبتها رع فى جبينه مثل الحية يوراييس (١) لتدافع عنه ٠ وقد غدت آلهـة الحب ، مع احتفـاظها الدائم بالجـانب العنيـف فى شخصيتها وهو الذى جعل منها اللبؤة المتعطشة للدم ٠ انهـا تمثل « باستت » الوادعة تماما ولكنهـا فى لحظة يمكن أن تتحول الى « سخمت » الرهيبة التى يتبعها ركب الكوارث ٠ وقد عبرت الأسطورة عن طبيعة الحب المزدوجة ، الخالقـة والمدمرة عـلى التناوب بطريقـة رائعـة فى هذه المظـاهر التكميلية للالهة التى تحاول الأسطورة شرحها ٠ ولقد امتدت عبادتها الى كل المدائن التى استقبلتها فى مثل تلك البهجـة والتى كانت تقيم الاحتفال بعيد « لقد أعيدت » ٠

ثم أصبحت الهة الحب ، الى حد جعل الاغريق يطلقون عليها افروديت ٠ وهو الاسم الذى يشار اليها به فى النقش الاغريقى المحفور على دائرة الكورنيش فى واجهة معبـدها العظيم ٠ ألم تكن « الجميلة » و « سيدة الحب والبهجة ؟ » وقد أطلق عليهـا فى نوع من الأوراد ، سـيدة الموسـيقا ، سيدة أغنية الجوقة ، سيدة المديح ، سيدة الفرح (دور) سيدة رقص الباليه وسيدة الطرب ٠ ومعلمة الرقص ٠ وقد كانت أيضا سيدة النشوة التى يشمل المرء من آجلها ، ومن الجلى أن هذه كانت وسيلة للاتصال بها ، وبالاضافة الى ذلك كان يحتفل لأجلها بعيد النشوة المهيب ، طوال خمسـة أيام فى شهر توت أول شهور السنة المصرية ٠

(١) الصيغة اليونانية للفظ icyt الذى يقابل عرتن فى اللغة العربية وهى حية عظيمة ، تاكل الحيات كما جاء فى المراجع العربية — (المترجم) ٠

وكان أحد الأشياء الاساسية المقدسة التى تصاحبها دون انقطاع فى دندرة آنية النبيذ ولكن كان يوجد أيضا التاج والساعة المائية والمصلصلتان (شكل ٣١ و ٣٢) ، وآوانى اللبن ورمز معقد كان يعبر عن قدرة الالهة الكونية، وهيكل الميلاد والصرح ، وأخيرا العقد « منات » الذى كان يرمز كذلك للحياة • وكانت تتمثل ، فضلا عن هذا ، فى « منات » والمصلصلات وكانت هى التى تستقبل الكهنة وتقوم باعدادهم للبهجة الضرورية للدنو منها فى الأعمدة المصلصلة، فى بهو الأعمدة • وكانت تمثل فى قمتها رأس حاتحور عينها •

ومن الشعر المستعار الثقيل ، كانت تبرز أذنا بقرة ، ذكرى الشكل الحيوانى الذى كانت تضفيه عليها الأسطورة القديمة • وفوق الوجه المتألق كانت تستوى المصلصلة « سشات » (شكل ٣٢) التى كانت تبعد الحزن والألم بأقل حفيف • ومن هذه الآلة التى كان يمكن أن تكون الالهة عينها ، توجد نماذج قديمة جدا •



شكل ٣١ و ٣٢ ـ المصلصلة ـ سخم والمصلصلة سشات فى دندرة

ولكن بما أن أفروديت الاغريقية كان يمكن أن تكون أيضا الهة كونية ذات جاذبية شاملة والهة خالقة ، فان حاتحور حافظت من البقرة السماوية ، التى كانت فى البدايات الأولى ، على قدرتها الأزلية • لقد كانت خالقة ،

ليس فقط لأنها كانت تجعل النبات ينمو، بدلا عن اربوئس، آلهة الحصاد ، ولكن لأنهم جعلوا منها بسبب اسم « الأم » (تمت) الشطر الانثوى المقابل لأتوم (تم) ، الخالق • ولأن جوفها يحوى مكان الحمل الأبدى لشمس الليل التى كانت تعود وتولد ، صغيرة وجديدة ، كل صباح • لقد كانت فريدة • وقامت بخلق كل الكائنات وعلى الآخص الآلهة والبشر ، ولهذا لا يدهش المرء عندما يجدها الهة — شمسية معادلة أنثوية لرع •

وهى تشبه ايزيس ، التى تسود معها فى دندرة ، حتى انها فى أكثر من نقش تستعير من ايزيس عبارة، كان من العادة ان تجىء فى النصوص خاصة بزوجة اوزيريس : لقد جاءت للوجود فى « اتدى » فى نهار ليلة « الطفل فى مهده » وكان لها كايزيس عديد من الأسماء • وكذلك ، أعطيت لها فى الآعتاب العليا لبهو الأعمدة فى معبد ادفو ، السيادة على ثلاثمائة وستين بلدة فى مصر • ومنذ عهد الامبراطورية الحديثة ، أدمج الاعتقاد الشعبى بسبع الهات حاتحور سبع جنيات فاعلات خير ، كان يظن انها تحدد مصير الأطفال عند مولدهم • ولقد عينت لها مدائن فى مصر عرفت بالعبادة التى كانت تقدمها للآلهة ، ولكن فى داخل هياكل الميلاد ، حيث يجدها المرء مرارا عديدة ، لا تتطابق القوائم مما يدعو الى الظن بأنها آراء جاءت فى حقبة متأخرة • ويشهد انتشار هذه العبادة على ما كانت تستحوذ عليه « ذهب الآلهة » من تقدير • وعندما نجدها فى « القوصية » أو فى « هيراكليوبوليس » • فاننا لا نجد لاهوتها ، كما أن الخصائص المحلية التى تتصل بعبادتها تظل فى معظم الأحيان غير معروفة لنا •

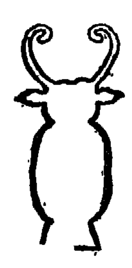
لقد كون لها فى دندرة منذ القدم ثالوث مع حورس بوصفه زوجا و « احى » بوصفه ابنا • وكان لحورس معبد صغير بالقرب من معبد الهة المكان • وقد خصص «لاحى» بناء

ذو أبعاد أعظم فى أقصى الطرف الشرقى للمدينة القديمة . ولم يتبق منه الا باب خارجى هائل الحجم . وفى « خادث » وفى الجانب الآخر من النيل ، كان يعبد حورس ــ جامع شمل ــ القطر المزدوج ، جرسماتوى الذى كان يقوم بدور عظيم فى دندرة والذى كانت تقوم حاتحور أحيانا . بزيارته .

* * *

واذا كنا قد تحدثنا الآن في ايجاز حتى هرموبولس ، فليس مرجع هذا الى أن عبادات أو ديانات مقاطعات مصر العليا من المقاطعة السابعة الى المقاطعة الخامسة عشرة أقل تشويقا . بل ان السبب الوحيد لذلك هو فقر وثائقنا باستثناء الاله «مين» الذى صادفناه فى قفط ، و «أوزيريس» الذى نحتفظ به للدلتا .

وبالقرب من مدينة « هو » التى كان يطلق عليها قديما ديوسبولس بارفا ، كانت تعبد في باطيو الالهة باط التى كان يرمز اليها في العصور البدائية برأس آدمي تبرز منه أذنا بقرة يعلوهما قرنان يلتوى طرفاهما للداخل (شكل ٣٣) . ولما كانت شخصية باط قد طغت عليها شخصية جارتها القوية حاتحور فقد حول هذا الرمز ، فى الدولة الوسطى ، الى المصلصلة سشات (شكل ٣٢) . ومن المؤكد أن الها باسم سبك كان يعبد أيضا فى نفس المكان . ولكن ليس من المعروف أنه كانت توجد آية رابطة بينه وبين الالهة .

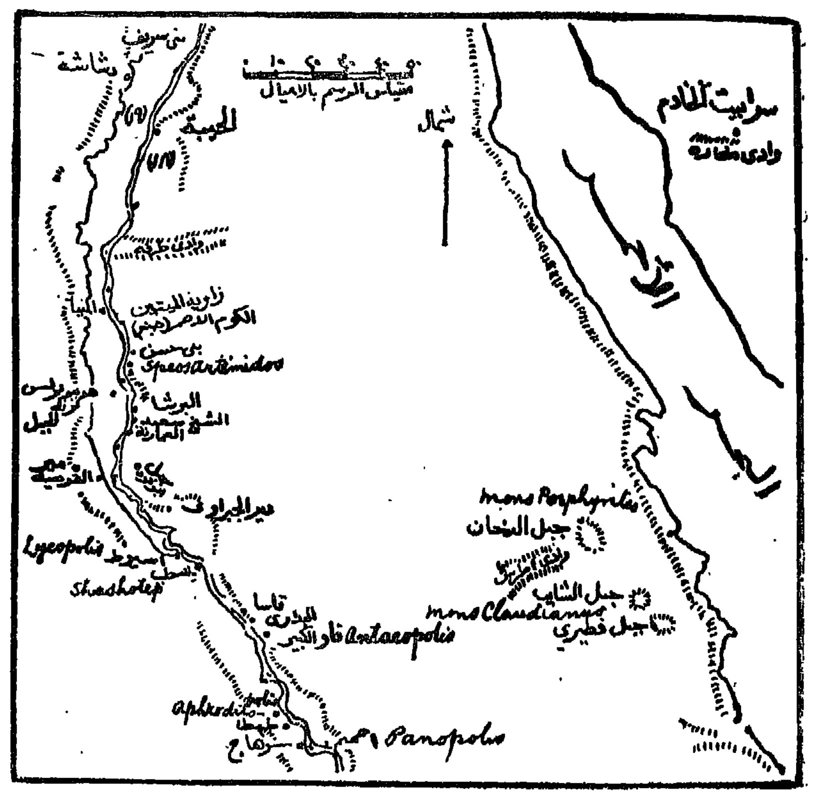


شكل ٣٣ ــ رمز الالهة باط

وعلى مسافة أبعد الى الشمال ، اجتذبت مدينة أبيدوس اليها شيئا فشيئا كل انتباه • ومع هذا ، فان اهم دور كان يلعب في القدم هو الذى كانت تلعبه مدينة « ثيس » (طينة) التى أعطت اسمها الى اول آسرتين مصريتين • وكان الاله الذى يعبد فيهـا « أنورس » (شكل ٢٠) الذى يضع على رأسه ريشا ويحمل الرمح • وقد أتاح اسمه للمصريين الذى فسروه بأنه : « ذاك ــ الذى ــ يحضر ــ من تكون ــ بعيدة » بأن يلحقوه بأسطورة عين جورس ، التى انتزعت من صاحبها والتى دعت الحال الى البحث عنها • كما أنهم شبهوه تشبيها آخر ارتفع به الى مرتبة الآلهة التى اشتركت فى البحث عن عين رع ، وهى الالهة القصية « حاتحور ــ تفنوت » • ولم يكن انورس حينذاك الا أحد أشكال « شــو » • ولكن هذه التطورات التى ترجع الى زمن متأخر ، على نحو ما ، لا يجب أن تلقى فى مدرجة النسيان الاله القديم الذى كان له شأن عظيم فى الدولتين القديمة والوسطى بما أن كثيرا من الناس كانوا يحملون اسمه ، لقد كان محاربا قام بحماية رع من دسائس التنين آبوفيس واتخذ جانب حورس فى صراعه مع ست • وفى الأسرة الثامنة عشرة غدا الها كونيـا ، آزليـا وخالقا • واتخذ شريكة له الالهــة « محيت » التى نجـدها تتجسد فى لبؤة مما دعا الى تمثيلها « بتفنوت » •

ولكن عندما حل أوزيريس (شــكل ٢١) محـل الاله « خنتى امنتيو » (ذاك الذى ــ يرأس ــ سكان الغرب) الذى يرجع الى زمن سحيق القدم ، كاله جنازى فى أبيدوس فان شهرته طغت ، شيئا فشيئا على جميع معبودات المقاطعة ، الأخرى • لقــد كان لكل ملك من ملــوك الأسرتين الأوليين فيما يبدو ، ضريحان : واحد في سقارة والآخر فى آبيدوس على سفح المرتفعات الليبية ، فى مكان يطلق عليــه اليــوم « أم العقاب » • وكان من المعتقــد منــذ حفائر « اميلينو » Amélineau أن المصريين ظنوا أن قبر الههم أوزيريس يقــع

فى ذلك المكان • ولكن يكاد يكون من المؤكد أن القبر ظل الى عهد متأخر جدا قائما فى معبد الاله على حافة الأرض المزروعة • ولقد دأبوا على احضار المومياوات فى رحلة حج الى المدينة المقدسة واقامة أضرحة فيها أو على الأقل أنصاب جنازية ، لوضعها تحت حماية اله كان ييسر المرور صوب العالم الآخر • ومنذ عهد الدولة الوسطى ، فى معبد أوزيريس العظيم كان يحتفل فى كل عام بشعائر الاله المحجوبة • وكان الكهنة يقومون بتنظيم تمثيل حياة وموت وبعث أوزيريس فى نوع من المسرحيات وكان أهم أشخاص الحاشية ، يؤدون ـ بتكليف من الملك ـ الأدوار التى تبلغ أعظم درجة من الأهمية وعلى الأخص دور حورس • ولقد عمد أكثر من فرعون مثل رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى الى تشييد معابد جنازية فى ذلك المكان •



مصر الوسطى والصحراء الشرقية « الشمالية » (H. Kees : An. En.)

بقى أعظمها جمالا ـ حتى اليوم فى حالة من الصون عجيبة ، وهو معبد سيتى الأول الذي ألحق به معبد « الاوزيريون » Osirion (١) • وكان المعبد الكبير يشتمل على سبعة مقادس ، خصصت للملك نفسه ثم لبتاح (شكل ٢٣) وحوراختى (شكل ٦) وآمون (شكل ١) وأوزيرس وايزيس وحورس •

ولما كان الموطن الأصلى لأوزيريس وايزيس ، على وجه اليقين ، هو الدلتا ، فاننا سنعود اليهما فى المدينتين اللتين تمثلان موطنهما الأصلى •

وفى أخميم الحالية التى كان الاغريق يطلقون عليها « بانوبولس » (٢) ، كان الاله « مين » يسود منذ أبعد العصور القديمة • وانا لنجد هنا نفس الخصائص التى تميزه فى قفط • ولكن الاغريق جعلوه أيضا معادلا لالههم « برسى » Persée أولا لسبب تشابه لفظى بين اسمه ونعته « الساهر » (فورسيوس) الذى كان المصريون يصفونه به ، ثم دون شك بسبب المصدر الشرقى لأسطورة « برسى » ـ ... وانـدروميد Andromède (٣) اللذين يمثلان، كما يبدو، بعل وعشتار • وكانت « عبرت ـ ازيس » Aperet-Isis قرينة لاله الخصب •

---

(١) يقع قبر أوزيرس (الأوزيريون) على بعد ثمانية أمتار الى الغرب من الحائط الخلفى للمعبد العظيم وعلى محوره على التقريب • وقد كشف عنه عام ١٩٠٣ •

وكان فى الواقع معبدا جنازيا رمزيا لسيتى الأول اقامة سيتى وانجزه مرنبتاح ونقشت فيه نصوص جنازية من كتاب الموتى • وكانت تؤدى فيه ـ فى مياه حوض تحت سطح الأرض ـ الشعائر الخفية التى تمثل مسيرة أوزيريس مع الشمس فى العالم السفلى ليلا • (المترجم) •

(٢) أى مدينة الاله بان المعادل لمين •

(٣) أسطورة برسى وأندروميد •

قيل فى الأساطير ان الالهة ارسلت برسى Persée لقطع رأس الميدوزة Méduse شر الاخوات الثلاث جورجون Gorgone اللواتى خربن الحقول والقين الرعب فى الناس • وجاء فى أسطورة أن قيامه بالمهمة كان اعترافا بجميل بوليدكت Polydecte ـ

مصورة جغرافية من طهطا الى السريرية ، مع بيان المقاطعات

وكان يطلق عليها ، على وجه عام، اسم طريفس Triphis (١) الذى يدل على تمثال سيدة ذات مكانة ، وكان لها آيضا معبد على الشاطىء الأيسر للنهر لا يبعد كثيرا عن الدير الأبيض ذائـــع الصيت • وفى عصر الملوك المقـــدونيين ، آلحق بهما الطفل ـ كولنيكس Kolanthès-l'enfant ليتآلف من الثـــلاثة ثالوث •

وعـــلى الشـــاطىء الأيمن ، تمثل قرية « قاو الـــكبير » المدينـــة القديمة تبو (كبو) Tejébou (٢) التى ســـماها الاغريق انتيوبولس • ولقد دعا تشابه بين اســـم المعبـــودة واســـم المارد انتية Antée ، فى الواقع ، الى تماثلهما •

= ملك جزيرة سريف Sériphe الذى آواه هو وأمه داناى Danae بعد أن ألقى اكريز Acrise ملك أرجوس بهما فى اليم خشية من تحقق نبوءة مهبط الوحى من أن حفيده سيقضى عليه وعلى عرشه • وكان عليه أن يذهب الى أقاصى العالم وتمكن بمعاونة الآلهة وبالحيلة من قطع رأس الميدوزة وقدمها لمينرفا ، التى تحمل صورتها منذ ذلك الحين على ترسها • وبعد هذا النجاح الرائع وصـــل الى بلاد الشرق يلتمس فترة من الراحـــة فى مملكة اثيوبيا • وقد أنقذ اندروميد Andromède ابنة ملك وملكة أثيوبيا الجميلة اذ أن نبتون اله البحر كان قد حكم برباطها بسلاسل من حديد فوق صخرة أقيمت على أمواج صاخبة لكى يذل كبرياءها ـ (المترجم) •

(١) كان يعبد فى بانوبولس [مدينة الاله بان (من) ـ اخميم] الالهة طريفس قرينة بان واسمها هو الصيغة الاعريقية للالهة عبرت ـ ازيس • وقيل انه فيما يبدو كان اسمها البدائى عبرت ويجب عدم الخلط بينها وبين ايزيس لأنهما ذكرا على حدة فى كثير من المواضع • وغطاء الرأس الذى تتميز به هو قرص الشمس وقرنا بقرة وهو ما يجعل منها صيغة محلية لحاتحور (جوتيه) •

(٢) كتب اسمها باللغة المصرية وجاء فى اللغة القبطية TKWOY و TKOOY يقول جاردنر : فى بداية القرن التاسع عشر كانت تمثل قرية قاو الكبير الواقعة على ضفة النيل اليمنى التى تضم معبدا جميلا يرجع الى عهد البطالمة • وقد حملت أحجار المعبد الى مدينة أسيوط لبناء قصر واجتاح النيل القرية وحل محلها على حافة الصحراء قرية العثمانية الحالية • ويؤيد القول أن تيبو وقاو الكبير وانتيوبولس أسمـــاء متـــرادفة أن الاله عنتوى الذى يقابل Antaeus وجد اسمه على كثير من الآثار التى عثر عليها فى الموقع ونعت فى بعضها بسيد تيبو • وكان يظن أن عنتوى هو احدى صور ست ـ تيفون وفى لوح فى متحف شيكاغو جاءت عبارة ست المظفر سيد تيبو • وعلى هذا تعرف الاغريق عنتوى فى الههم Antaeus الذى تصوروه ماردا ليبيا ذبحه هرقل لمجرد تشابه لفظى ولذا فان وصف عنتوى بست ـ تيفون يبين تشابها بين الأسطورتين : المصرية والاغريقية ـ (المترجم) •

وفى تلك المدينة ، كان المصريون يقدمون نوعا من العبادة الى طائرين من الكواسر هما عنتوى Antywey وكانا صغيرين يمثلان حورس وست وقد عقد الصلح بينهما . ولكن يلاحظ أن قرينة الاله الناجم عن هذا الامتزاج كانت نفتس . وعلى هذا فقد كان ست (شكل ٢٨) ، أساسا ، هو اله تبو (كبو) Tjebou الرهيب . ولذا ، لم يكن تشابه انتيه Antée المارد الليبى الذى هزمه هرقل مع ست تشابها لفظيا خالصا . وفى أمكنة ، لا ريب قريبة ، كان يقدم التكريم لسبك وحاتحور .

وكان ست كذلك هو الذى يسود فى « شاس ــ حتب » وهى هوبسلس عند الاغريق وشطب الحالية . ولكن يدور فى خلد المرء أن ذلك الشخص الممقوت كان دون انقطاع هدفا لمطاردات أتباع أوزيريس ، الذين كان يتزايد عددهم فى اطراد واتخذت العدة لوضعه فى الظل واحلال غيره من الآلهة تحت الأضواء وكانوا دون ريب أقل قدما . وهنا ، قدر لخنوم أن يبلغ الذروة شيئا فشيئا .

وفى المنطقة التى تقع جنوبى أسيوط ، كانت توجد حاتحور فى مجد medijed (١) وانتى nty ، أحد مدلولات ست فى بيانتى piânty . وكانت تصاحبه الهة ، لبؤة ، هى ماتت matyt .

ان مدينة أسيوط التى احتفظت بما كان لها من اسم وأهمية فى العصور العتيقة ، كان يطلق عليها الاغريق اسم لوكوبولس . وفى الواقع ، كانت قد اتخذت بدل الذئب ، ابن آوى أو هجينا بين ابن آوى والكلب المستأنس الذى كان يمثل الاله أوفويس (دب واوات) ، فاتح الطرق . ان صورته توجد على الدوام فوق اللافتات الحامية التى تسبق بصفة اجبارية الاله والملك . ولكن علم لاهوته يكاد يكون

(١) درنكة .

غير معروف لنا ، مع أن صورته توجد في لوح الملك نعرمر، ذائع الصيت •

وفي القوصية ، على بعد يقرب من خمسين كيلومترا في اتجاه انحدار النهر كانت تعبد على الدوام كالحال في دندرة ، الهة باسم حاتحور (شكل٨) ، وكانت معبودة الهية وخالقة • وأحيانا كان يعد زوجا لها الاله « آوخ » Oukh الذى يرجع الى زمن بعيد القدم ، والذى كان يظهر فى أسماء الأعلام التى توجد فى ذلك المكان • وكان رمزه (شكل ٣٤) يتألف من ساق عود من البردى ينهض منه صلان تظهر فوقهما ريشة نعامة ، مزدوجة •



(شكل ٣٤) رمز الاله اوخ

وبهذا نصل الى موطن تحوت ، مدينة الأشمونين عريضة الشهرة ، ومعنى اسمها جماعة الثمانية Ogdoade (١) اشارة الى جماعة الثمانية « آلهة الأوائل الذين تعاونوا مع تحوت فى خلق العالم • وكان الاغريق الذين رأوا فيه الههم هرمز يطلقون عليها اسم هرموبوليس • وقد أضيف اليه وصف «العظمى» ؛ لتمييزها عن المدينة التى تحمل نفس الاسم فى الدلتا • وبما أنها كانت تقع فى منطقة تكون فيها الأرض القابلة للزراعة أعظم اتساعا من أية رقعة آخرى فى الوادى، فان المدينة كانت عظيمة الثراء والأهمية • ولقد أبرزت الحفائر عناصر معبد يرجع الى عصر الامبراطورية الحديثة •

(١) Ogdoade ترجمة لاسمها فى اللغة المصرية خمن ويقابلها فى اللغة العربية ثمانية (٠ =) - (المترجم) •

وفى الجبانة ، بخلاف أطلال معبد آخر يقع فى عرض الصحراء ، توجد الدهاليز المسيحه التى كانت تدفن فيها طيور ابى منجل المقدس وحى القبور التى كانت تهيأ للناس • كان يقوم هناك قبر « بت أوزيريس » الذى يمتاز بما يوجد فيه من محاولات للمزج بين الطراز المصرى والطراز الاغريقى ، وكذلك بما بقى فيه من نصوص ذات طابع روحى عميق •

ومع هذا ، فقد ذهب التصور الى ان تحوت (شكل ٣٠) كان فى البداية غريبا عن هرموبوليس ، التى كانت تعبد فى القدم الها يدعى حجور Hedjour (١) وكان حيوانه المقدس قردا • ان هذا ليس الا مجرد افتراض • ولقد كانت تعرف الهة قديمة اتخذت أماكنها فى الجهات المجاورة وليس بالحرى فى هرموبوليس عينها : وعلى الأخص الهة ــ أرنبة أو ثعبان هى « أونوت » • ومن الناحية التاريخية ، فقد ساد تحوت فى الاشمونين منذ أقدم عهد فى طاقتنا أن نرجعه اليه حتى لو أن موطنه الأصلى كان غربى الدلتا • وقد أوقفت عليه كثرة من الحيوانات مثل أبى منجل (ايبس) والقرد • وفى عصر الامبراطورية الحديثة ، كان يطيب للقوم أن يمثلوا الكتاب الملهمين بقرد وضع الى الخلف منهم ، فوق أكتافهم • وكان يبدو أنه على اتصال بالقمر منذ البداية ، وتقدمه احدى صفحات مغامراته الأسطورية وهو يقوم بالبحث عن عين القمر التى توارت ، وقد عثر عليها فى مكان بعيد وأحضرها • وفى المظهر الكونى للمعركة التى وقعت بين حورس وست « يملأ » عين حورس التى جرحها اله الشر ويشفيها بلعابه • ان المناظر الفلكية المتأخرة تربطه بوجوه القمر • ولعله يدين بصفته كحاسب للمواقيت لارتباطه بذلك الكوكب فهو الذى يقوم بنقش

(١) اسمه حج ور وترجع مصادرنا عنه الى العهدين الصاوى والاغريقى وله شكل القرد ــ (المترجم) •

أعوام الملك ، خلال الأعياد الملكية المهيبة ، على ساق نخلة انتزعت غصونها • وأفضل من هذا ، أنه يكتب على فاكهة شجرة اللبخ (البرساء) (١) المقدسة اسم الملك الذى يجب أن يصبح وفقا لهذا يانع الخضرة الى الأبد • ولقد اخترع الكتابة كذلك • ويذهب الظن الى أنه كان يقرأ قصة حورس وست بما أنه كان الوحيد بين الآلهة الذى يعرف الكتابة • وكان المرء يجد للبحث عنه لقراءة رسالة أو لختم مرسوم للاله رع • انه « كاتب التاسوع الالهى ، ذو الأنامل الماهرة » •

ان تلك المعرفة بالكتابة تضفى عليه قدرات رهيبة • انه ساحر وكان يعتبر فى عهد متأخر أنه وضع صيغا تمنح أولئك الذين يتلونها بصوت مرتفع قدرات خارقة للعادة • ان قصة « ستون خامواس » بأجمعها تدور حول حيازة كتاب، كان تحوت هو الذى كتبه بيده :

« الصيغتان المكتوبتان فيه ، اذا تلوت الأولى ، فانك ستسحر السماء والأرض وعالم الليل والجبال والأمواه • انك ستفهم ما تقوله أطيار السماء والزواحف ، كلها كائنة ما كانت • واذا قرأت الصيغة الثانية ، لو أنك كنت فى القبر ، فانك تستعيد الشكل الذى كان لك على الأرض وكذلك سترى الشمس تطلع فى السماء مع لفيف آلهتها ، والقمر فى الشكل الذى كان له عندما ظهر » (ترجمة ماسبيرو) •

---

(١) اسمه العلمى Memusopa Schimperi H. لبخ ـ فرساء ـ برساء عن معجم الحيوان للدكتور احمد عيسى •

« قال ابو حنيفة الدينورى : هى شجر عظام مثل الدلب وله ثمر أخضر يشبه التمر حلو جدا الا أنه كريه ، جيد لوجع الأضراس واذا قشر ارعف قاشره » • قال المقريزى عن مصر : وبها اللبخ وهو ثمر قدر اللوز الاخضر كان من محاسن مصر الا أنه انقطع قبل سنة ٧٠٠ هجرية • وقال Delile ان أبحاث De Sacy تقرر أن اللبخ الذى أطلق اسمه على جملة أشجار اخرى انما هو الهجليج والهالج فى بلاد النوبة وبلاد العرب •

وكذلك يرأس تحوت « بيت الحياة » المركز الذى نعرفه حق المعرفة فى الامبراطورية الحديثة والذى كانت تصنف فيه وتدرس وتنسخ جميع الأعمال اللازمة للحفاظ على الحياة ومضاعفتها : وهى الطب بالنسبة للرجال ، والعبادة بالنسبة للآلهة • ثم هى بالنسبة لهؤلاء وآولئك صنع التماثيل التى تكون بديلة عن جسومهم وفقا للنسب وللمناهج التى حددها تحوت نفسه ، فى جميع الحقب العتيقة • وكان هو أيضا الذى خلق اللغات التى تعبر بها الشعوب الآخرى عن ذوات نفوسها وفن اجادة الوصف واجادة الكتابة وهو الفن الضرورى للاقناع ، ولهذا كان الكتاب يدعونه بهذه التعابير المؤثرة :

يا تحوت ، ضعنى فى هرموبوليس
مدينتك التى يحلو فيها العيش !
أعطنى ما يلزمنى من الخبز والجعة
واحفظ فمى من الألفاظ

هل يمكن أن يكون تحوت خلفى فى الصباح :
احضرى أيتها الكلمة الالهية
عندما أدخل أمام الاله سيدى
حتى أكون صادق القول (•••)
انت يا من تجلب الماء الى المكان القاصى •
أقدم وأنقذنى أنا الصامت
يا تحوت ، أيها النبع العذب للانسان الذى أصابه العطش فى الصحراء
انه مغلق لذاك الذى يجد ألفاظه
ولكنه مفتوح للصامت
عند حضور الصامت ، يجد النبع (••••)

ان هذا الدعاء الذى أعيد نسخه فى أحد كتيبات البلاغة التى ترجع للأسرة التاسعة عشرة ، ينبىء سلفا عن روحانية بت آوزيريس السامية ٠

وكان القمر ، البديل الليلى للشمس ، هو الذى حدا الى أن يعد تحوت ملحقا ، على وجه ما ، لرع ٠ لقد رفع الى رتبة الخالق ٠ واذا صدقنا القول، فانه كان فى هرموبوليس، منذ زمن مديد ، لفيف يتألف من ثمانية آلهة ــ ربما كانت مستقلة عن تحوت فى الأصل ــ قام فى مولد العالم بدور جوهرى ٠ وبما أن تحوت لم يكن يظهر فيه الا قليلا ، فقد ظن أن هذه الآلهة كانت سابقة له ٠ لقد كانت ، فضلا عن هذا ، شخصيات لاهوتية ولم تكن آلهة محلية بتاتا ، وكانت تجمعها ثنائية من ذكر وأنثى ٠ وكان يطلق عليها نون ونونت ، المحيط الأول ، وحح وححت، الفراغ الذى لا نهاية له ، وككو وككت ، الظلمات وآمون وامونت الذى لا يمكن تعريفه ٠ ولقد كانت تصور برءوس ضفادع وثعابين تثير ذكرى الحياة الصاخبة ولم تفرق تماما عن المستنقعات حيث تبدأ الأرض فى الظهور ٠ وقد أوجدت الشمس دون أصل ظاهر وأعدت لها التل الأزلى لتستوى عليه ، لقد نسبوا مولدها الى زهرة لوتس (١) بدائية كانت جماعة الثمانية قد أخصبتها ، ولكنا نجد أحيانا أنها قد خلقت بيضة خرجت ، منها الشمس ٠ وان تراكب الأسطورتين هنا ملىء بالايحاء ويبين تماما كيف أن المفكرين ، فى نهاية تطور طويل ، وضعوا الحقيقة وراء الصور التى كانت تسمح ، دون سواها ، برؤيتها ٠

ولما كانت هذه النظريات عميقة الجذور فى هرموبوليس، فقد وجدت توضيحا لها فى أماكن اقليمها المقدسة ، حيث

---

(١) اسمه العلمى Nymphaea Caerules Savigny للنوع الأزرق Nymphaea Lotus Hook. للنوع الأبيض ــ ويطلق عليه ــ العروس ــ ــ اللوتس ــ البشنين ــ الجلجلان المصرى النوفر ٠

يوجد « غدير السكين » و « جزيرة اللهب » و « التل الأزلى ».
و « البيضة المقدسة » المدفونة بالقرب من « الغدير العظيم »
الذى عمل على أن يعزل من جديد « بت أوزيريس » بعد
الاضطرابات التى حدث فى خلالها تدنيس ذلك المكان
المقدس • وقد جعل علماء اللاهوت من تحوت ـ لكى يتاح له
التدخل ـ جزءا لا يتجزأ من الآلهة العظام الخالقة ، التى لم
يكن لفيف الآلهة الثمانية الا مظهرا لها •• من أجل ذلك ،
اطلقوا عليه فى العصر الرومانى طائفة من الصور التى
لا يمكن التوفيق بينها فقالوا انه : قلب رع ولسان تاتنن
وحنجرة ذاك الذى اسمه سر خفى • وهذا يعنى أنه تصور
العالم كما تصوره رع واستدعاه للوجود بالكلمة ، كما
استدعاه بتاح ، وبالنظام المحدد، كآمون • وقد أخذ يتعاون
ـ بوصفه الحاسب الدقيق ذا الكلمة النافذة والذكاء
الدقيق ـ مع ماعت لجعل العالم يؤدى مهمته فى دقة مع
الحفاظ على العلاقات التى تقوم بين الأشياء • وعلى هذا ،
فقد كانت تتوقف عليه القوانين والعدالة والملك والضرائب
وكذلك سير العالم مكان الآلهة المحدد داخل الكون المنتظم ،
ولقد قدم وزير لامنوفيس (امن حتب) الثالث فى ذروة
عهد الامبراطورية الدعاء له فى هذه العبارات :

التحيــة لك ،
سيد الألفاظ الالهية ،
يا من ترأس الشعائر المحجوبة
وتستقر فى السماء وعلى الأرض •
الاله العظيم منذ الأزل
ذو الأصــالة ،
مخترع اللفظ والكتابة ،
يا من تعمل على تزايد الدور

وتؤســـس المســـاكن ،
يا من تحيط الآلهة علما بدورها ،
وكل فن بقـــواعده
والأقطار بحـــدودها
وكذلك الحقـــول ٠

كان تحوت يوازى عند الاغريق الههم « هرمز » ، وقد ترجموا له وصفا مصريا يعنى « على الدوام عظيم جـدا » وسموه تريسمجستر « ثلاث مرات عظيم جـدا » ٠ ولقـد وصلت الينا باسمه مجموعة كاملة من البحوث الفلسـفية يطلق عليها « الهرمزية » hermétiques (١) مكتوبة بالاغريقية ومصطبغة بصبغة من الافلاطونية الحديثه ٠ وان تضمنت قدرا هاما من الآراء المصرية القديمة ، الى حد دفع البعض الى أن يروا فيها ترجمة خالصة وبسـيطة لـكتب فلسـفية مصرية تحدث عنها كليمنت الاسكندرى ، خـلال حديثه عن المعارف التى يجب أن يلم بها الكهنة ٠ وكان لتحوت أيضا ، زوجة ٠ ولما كانت تحمل اسـما لاهوتيا هو « نحمت تاوى » حامية الارضين (جاكيه) فقد عدوها ابداعا متأخرا ، ومع هذا فقد كانت تعبـد فى عصر الأسرة الثامنـة عشرة ، فى المقاطعة ولكن بين معبودات أخرى الى جانب « نحب كاو » التى لا يقل اسمها زيفا عن اسمها هى والذى نقرؤه مكتوبا فى نصوص الاهرام ٠ وقد كان من اللازم تشبيهها بحاتحور فقد كانوا يضعون لها غطاء رأس يطابق « صرح » المصلصلة — « سشات » الذى تبرز منه فى معظم الأحوال سيقان نبات البردى ٠ ونجدها فى قبر جانينى فى طيبة أحيانا فى حضرة تحوت كمضيفة فى الأشمونين وأحيـانا أخـرى قريبـة من شبس اله نفس المدينـة ٠ ولعلهـا كانت قد أصبحت رفيقة تحـــوت ٠

---

(١) منسوبة الى هرمز (تحوت) ٠

وكان يقدم التكريم لعدد وفير من الآلهة الآخــرى فى هرموبوليس الى جوار تحوت وحاشيته الالهية • وكان شبس الذى يحمل اسمه معنى « جليل » فى اللغة المصرية ، يقطن بها • ولم يكن سيدها ولكن كان يقيم فيها • ويجــده المرء مرسوما حتى نهاية أقاصى النوبة • ومع هذا فان النقوش عن موضوعه ضئيلة • وقد سمى برع مرة فى وادى الملكات وكثيرا ما كان يصور بقرص فوق رأسه • فهل يجب أن نرى فيه الشمس التى خلقتها جماعة الآلهة الثمانية فى الأزمنــة الآزلية ؟

ثم عدد المعبودات التى تالفت فى تلك الرقعة الفسيحة من الوادى ! لقد قدم لنا نحات كان يعيش فى مستهل الاسرة التاسعة عشرة ، تعدادا لكل الهة الاشمونين التى كان يعرف اشكالها : « لقد جعلت مستقرى فى « بيت الذهب » (المرسم الذى كان النحاتون يستطيعون فيه بعث الحياة فى تماثيلهم عن طريق الشعائر) لاخلق اشكال كل الآلهه وصورها ولم يكن واحد منها مستخفيا عنى • ولقد كنت كاهنا للشعائر المحجــوبة وكان فى قدرتى رؤية رع فى تحــولاته وكذلك أتوم فى تجسده • كان يوجد اوزيريس سيد ابيدوس عــلى رأس آلهة القطر المقدس وكان يوجد تحوت سيد الأشمونين برأس « خرتى هنــو » • لقــد كان فى اســتطاعتى رؤية « شبس » فى سره الخفى و « أونوت » فى تحولاتها • وكان يوجد « مين » وهو يزهو بجماله ، و « حورس » الذى يقيم فى حسرت و « ونحمت تاوى » ابنة رع و « سخمت » محبوبة بتاح وجماعة الآلهة الثمانية التى توجد فى مدينة ـ الثمانية فى مسكن الشبكة • وفيها كان يوجد « خنوم » سيد حرور و « حكت » و « حاتحور » و « آمون ـ رع » الذى يقيم فى انو و «حاتحور» فى القوصية ابنة رع الذى يحمى المتفوق • والتاسوع الذى يوجد فى عجنى(١) و «حرويرس» (حرور)

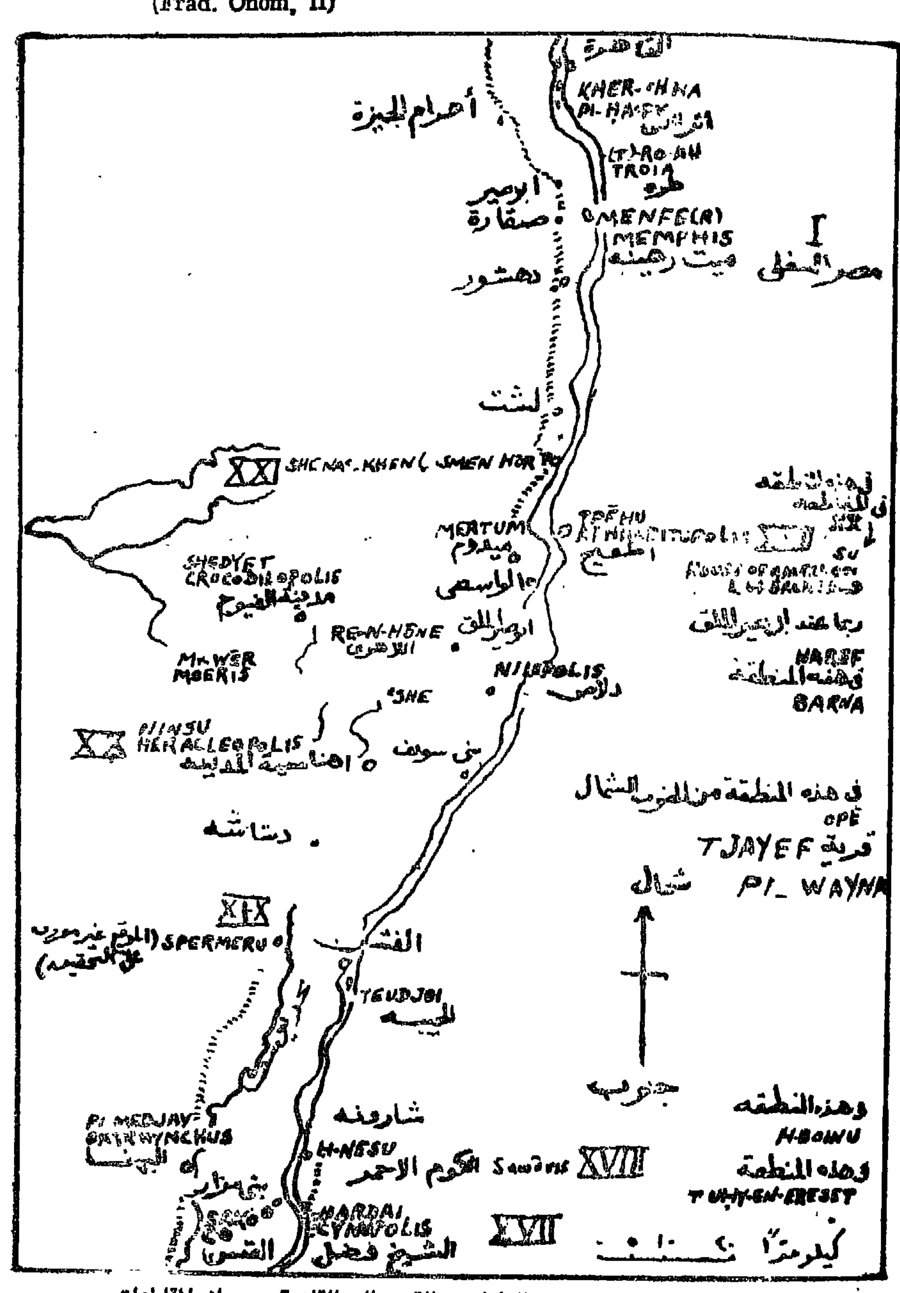
---

(١) موضع فى مصر العليا كان يقع بين اسنا جنوبا واصفون شمالا ويطابق على قول دارسى المطاعنة الحالية وافروديتوبولس التى ذكرها استرابون ـ (المترجم) •

فى أصفون و « حمن » سيد حفات • وكان يوجد « مونتو » الذى يقيم فى الطود ، و « أنوبيس » سيد بلاد الغجر • وكان يوجد « حورس » على رأس حبنو ، و « باخت » سيدة سرو ، وتحوت الثور فى مدخل الوادى ، و « عنتى » فى صقع عنتى ، و « آمـــون » الذى ينتمى الى « ذاك ــ الــــذى ــ يعلن ــ الانتصارات » والثور سيد ــ اكا (القيس) وحكت ، سيدة قوص والالهتان الراضيتان (ايزيس ونفتيس) • ولا شك فى أن نحاتنا يخرج بعد « خنوم » من مدينة ــ جماعة الثمانية كما أنه يخرج بعد حاتحور القوصية ، من مقاطعة الأرنبـة البرية لكنه من الشيق أن نراه يعدد جميع تلك الآلهة التى تعرفنا عليها والتى لها كلها ملابس ، وأغطية رأس واشارات تميز كلا منها عن الآخر تماما فى العصور التى توضع لها • وكان الفنان المسن يزهو بأنه يعرفها تمام المعرفة •

ودون الرجوع الى كل آلهة المقاطعة الخامسة عشرة أو الهة حاضرتها ، يجب أن نحيط علما اثناء مرورنا بأن خنوم اله انطينوى ، التى كانت تسمى فى القدم حرور هو ذاك الذى ينحت الملك الشاب وزوجه « الكا » فى الشعيرة المحجوبة عن المولد الالهى وأن قرينته حكت التى نعرفها برأس الضفدعة ، تقدم له رمزا لنسمة الحياة • وكان لحاتحــور عبــادة فى نفـــروسى التى يجب أن تكـــون جد قريبـــة • وتظل باخت بالنسبة لنا أعظم هذه المعبودات غموضا • لقد كانت آلهــة برأس لبؤة ولم تكن سيدة آية مدينة ولكن فقط سيدة مكان قفر فى الجبل من بنى حسن عـــلى الشاطىء الأيمن • ولقـــد قام أوفياؤها بحفر معبـــد فى الصـــخر ، ســـماه الاغـــريق «الاسبيوس ارتميدس» وقد سمى «سرو» فى اللغة المصرية ، وكان لها من الأهمية ما جعل الملكة حاتشبسوت تزين معبـــد « الاسبيوس » وتضع فيه نقشا ؛ أشـــارت فيه الى اعادة فتح القطر والى طرد الهكسوس • ولقد قام سيتى الأول باعادة بناء هذا المعبد الذى لم ينج من قوات تحوتمس الثالث التى

(Frad. Onom, II)



مصورة جغرافية ـ مصر العليا من القبس الى القاهرة مع بيان المقاطعات

وكل اليها أن تهشم اسم الملكة على الأخص ولا من محطمى الصور فى عهد اخناتون المكلفين بازالة اسم آمون واسماء جماعة الالهة · على أن هذا لا يلقى الا بقليل من الضوء ، اذا شئنا ، على هذه الالهة العجيبة المحلية التى تذكرنا ببعض مزارات « العذراء » التى تحظى بالتكريم فى فترة معينة ، فى جوف الوديان التى يعسر الوصول اليها ومع ذلك ، فان هذه الالهة تدخل فى تركيب اكثر من اسم من أسماء الأعلام ويبدو أنها كانت شخصية هامة ·

وكانت حاضرة المقاطعة السادسة عشرة حبنو ولعلها هى المدينة التى سماها الاغريق الابسترون ، ولا شك فى أنها الكوم الأحمر الحالية تتوجه بالعبادة الى اله باسم حورس نجد عناء فى تعريفه فى شيء من الدقة ، رغم ما سجله نصب ليدن من انه كان يعرف شكله الخاص · ويجب وضع تحوت الثور فى مدخل ــ الوادى فى نفس المنطقة وكان امون هو الذى يسود خاصة ، فى طهنا الجبل (١) التى كانت تدعى بيموى فى العصور القديمة ، والتى تبعد قليلا عن حبنو ناحية الشمال ، ولكنه كان يحل فى جوار سبك أو سبك ــ رع الذى كان أيضا رب مدينة أناشا المجاورة · وفى اتجاه انحدار النهر ، على نفس الشاطىء ، على مسافة قريبة جدا من بنى خالد ، مازال يرى معبد محفور فى الصخر · وكان يطلق عليه « الموقدين » كانت تعبد الهة باسم حاتحور التى تقدم بردية يوملهك Jumilhoc لنا عنها معلومات آسطورية بالغة الغرابة : حاتحور التى توجد فى تلك الجهة ، هى ايزيس عندما تنجز تحولها العظيم الى آمها سخمت لتلتهم بلهبها «ست» وحلفاءه ، فى كل مرة كان هؤلاء يجتازون النهر ، وهم

---

(١) طهنا الجبل ــ معنى اسمها فى اللغة المصرية الجبهة وهو بالكامل t ; thn wr nht ــ الجبهة عظيمة القوة وتقع جنوبى جبل الطور على الشاطىء الايمن للنيل وعلى بعد قرابة عشرة كيلو مترات الى الشمال الشرقى من المنيا · واسم TE « الجبهة » حملته عدة مواضع أخرى كانت على غرار طهنا ــ اكورس Acoris تقع على قمة هضبة صخرية مثل الجبهة الواقعة جنوب شرقى الفشن ·

قادمون من مقاطعة أوكسيرنخوس Oxyrhynque (١) ليتوجهوا صـــوب الجبل الشرقى (ترجمة فاندية Vandies) وفى حردى Hardai ، الشيخ فضل الحاليـــة (٢) كان أنوبيس يفرض نفسه لتمجيد خلصائه : ومع هذا فقد كان يظن ان اول اله لها كان حورس • وفى الجانب المواجه فى القيس كان أيضـــا انوبيس هــــو الذى يعبــد • ولــكن القصص الأسطورية توحى بانه حل، دون شك ، محل اله يدعى باتا، وهو الذى اعتبر في العصر المتأخر بأنه ست عينه •

وفي الواقع ، اننا ما نكاد نحــل بتلك المنطقـــة وهى لا تزال ، الى عهد قريب ، احدى المناطق التى ليس لنا بهــا الا اليسير من العلم ، حتى تقود خطانا بردية يوملهك التى تلقى ضـــوءا ســـاطعا عـــلى حشـــد من العبادات والقصص الخرافية ، يعسر أن نتعرف وسطه بدقة على كل الأمكنة التى يصادفها المرء فيها • وقد كان لاله المقاطعة الثامنة عشرة ، فيما سبق ، صورة صقر بجناحين منشورين ، على وجه عام • وكان يطلق عليه ، دون ريب ، اسم عنتى ، ولكن شخصيته لم تكن قوية الى حد مناسب وقد استبدل به ، شيئا فشيئا ، الاله دون عنوى • وهذا الاسم ومعناه مازال غامضا ، ظهر فى عصر الأهرام وآل به الأمر الى أن يتوارى أمام دون عنوى : « ذاك ــ الذى ــ يمد ذراعيه » علامة الحماية • وأخيرا فى العصر المتأخر ، كان أنوبيس (شكل ٣) هـــو الذى فرض نفسه كذلك وهو يهبط بمحاذاة النهر • ويرى هنا كيف أن الشخصيات الالهية ، شخصيات يصعب تحديدها وأنهـــا تغيرت خلال التاريخ • وفضلا عن ذلك ، كان أنوبيس هذا،

---

(١) البهنسا •

(٢) حردى هى التى أطلق عليها الاغريق اسم Kuvwy nonis والرومان اسم Canum وتقع على الشاطىء الايمن للنيل عند الشيخ فضل أو بالقرب منها • وهى على بعد ١٤ كيلو مترا من البهنسا وتواجه بنى مزار وتقع القيس الى الجنوب الغربى منها • وكان الهها أنوبيس الذى كان اله القيس فى عهد اكثر تأخرا ، ولهذا كانت لها الاسبقية فى اسم cynopolis الذى اطلقه عليها الاغريق •

الذي يجاور المقاطعة التاسعة عشرة التابعة للاله ست ، فقد قدم المعاونة الجدية لحورس للدفاع عن بقايا أوزيريس التي كانت محفوظة في تلك المقاطعة ، حتى أنهم أدمجوهما تحت اسم حورس ــ أنوبيس • ولقد كشف وجود « جبانة كلاب » ، عن أن ذلك الحيوان المقدس كان يعبد فيها في عهد متأخر •

ان الوثيقة ذاتها تقدم شروحا شيقة عن طائفة من الأمكنة المقدسة المجاورة التي يصعب أحيانا تحديد موضعها في دقة فوق الخريطة المصورة • ومن بين هذه الأمكنة ، مدينة ــ البقرة وقد أطلقت عليها هذه التسمية ، لأن تحوت وجد فيها البقرة التي أمدته برأسها لتكون عوضا عن رأس ايزيس التي قطعها حورس ، وقد استبد به الغضب لأن أمه قد ترفقت بالاله ست • ومع هذا ، فان المؤلف يلتزم التحفظ الكثير فلا يقص تلك الواقعة وهو يلمح بها عوضا عن عرضها • وعلى مسافة أبعد الى الشمال ، كان للاله خنوم مقدس في « بيت ــ خنوم » • انه حليف حورس يقوم بمراقبة مشروعات «ست» وأعوانه • وكان هو أيضا الذى يقدم له التمجيد فى «أونم ف تا» ومعنى اسمها : يأكل الخبز • ان هذا الاسم يحمل ذكرى أسطورية : ان سبك ، وقد باغت أنصار «ست» الذين أفادوا من ظلمة الليل واجتازوا النيل، تحول الى تمساح والتهم كل المتآمرين مع الاله الملعون • ولكنه احتفظ بالرءوس على ظهره ــ وفى هذا الوضع كان يمثله تمثال ــ ليقدمها الى حورس • ويعمل حورس ، وربما لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان ، على أن يقدم له خبز ومن هذا جاء اسم المدينة •

واذا أضاف المرء أن المدونة الثمينة التي كتبت لكى تكون دليلا للطامحين الى وظائف الكهنوت فى المنطقة ، وكذلك لكى تكون مرشدا للنحاتين والمصورين ؛ وتشرح أصل « الجلد الشافى » Nébride العزيز على أنوبيس ، وتقص كيف أن

«ست» سرق صناديق حورس وعثر على أنوبيس وتضيف اليها تعليقات عن فصيلة كلاب (Canidés) (١) الاله المقدسة وتزييفاتها . فعند ذاك يكون لديه فكرة عن غزارة التقاليد الدينية التى انضمت الى المعلومات الوفيرة التى تتعلق بالأسطورة الأوزيرية وعلى الأخص البحث عن أشلاء أوزيريس الذى مزق جسده ، وسنعود الى موضوع هذه الأشلاء ، ولكن يجدر آن نقول كلمة عن « الجلد الشافى » nébride (٢) (شكل ٣٥) • وقد كان ذلك الشيء يتألف من جلد يتعلق بساق نبات مثبت فى دعامة ، وكان رع قد قضى بسلخ جلد عنتى بعد ارتكابه جريمة قطع رأس حاتحور الهة اطفيح ــ وهى معادلة لأسطورة ايزيس ــ وقد أحضر أنوبيس الجلد الى أمه ، البقرة المقدسة حسات (٣) ، التى



شكل ٣٥ ــ الجلد الشافى (معبد سيتي الأول) فى ابيدوس

---

(١) Canidés — Canidae فصيلة من اللواحم اى آكلات اللحوم للواحد منها اربعة براثن فى كل من رجليه واربعة أو خمسة فى كل من يديه وهى تشمل الكلاب الاهلية والذئاب وبنات آوى والثعالب « عن معجم الحيوان ـ للمعلوف » ـ (المترجم) •

(٢) يرجع لفظ nébrde للاصل الاغريقى nebris وهو جلد ايل (Faun = fallow down) صغير لونه رمادى يميل الى الصفرة كان يرتديه باخوس (ديمونوسيوس) واشياعه ـ (المترجم) •

(٣) يرجع اسمها الى اللغة العربية ـ الحسيلة البقرة وجمعها حسائل وجاء فى المعجم الوسيط الحسيل أولاد البقر الأهل ويطلق على الواحد (الدميرى) يقال اشترى بقرة بحسيلها ـ (المترجم) •

آعادت اليه الحياة بلبنها بعد آن جعلت هذا اللبن ينساب في هاون يمثل الدعامة ، وجعلت منه بلسما يجلب العافية ٠

لا يمكننا ترك آنوبيس (شكل ٣) ، دون آن نضيف بعض القسمات التي تحدد محياه ٠ فهذا الاله الذى يعلو جسمه الانساني راس كلب ذئبي (canis lupaster) ، كان يعد ابنا لايزيس واوزيريس في العصر المتأخر وكذلك لسخمت ــ ايزيس ٠ وهذه البنوة تفهم على وجه أفضل عندما يعلم انه كان يمثل بحورس في مقاطعته ٠ ولكن بلوتارخ يقص أن اوزيريس انجبه من نفتيس ، التي كان قد اتخذها أختا له ، وكانوا يعدون ــ عامة ــ البقرة السماوية حسات أما له ٠ وربما كان يدين لهذه البقرة باللقب الذى يطلق عليه « سيد الأبقار مدرة اللبن » وبالاشتراك ، الى جانب ايزيس في شعائر سكب اللبن ، على موائد القرابين المروية(١) ٠ هل قام هذا الجلد الشافي الذى رأينا آن له قيمة علاجية بدور يجعله يوازن اموتس (امحتب) ، اسكلبيوس المصرى ، في كتاب التحولات في العهد المتآخر ؟ من المؤكد ، على أية حال ، أنه يعد منذ أقدم العصور سيد الجبانة ويقوم بدور في التحنيط وفي منح الحياة التي تضفى على المومياء التي كان يطيب لهم آن يرسموه بالقرب منها ٠ ومنذ عصر الأهرام كان يشترك في محاكمة للموتي وتظهر صورته ــ في الرسوم الزخرفية التي تصاحب الفصل المائة وخمسة وعشرين من « كتاب الموتى » الاعتراف السلبي (٢) وهو يتحقق من مؤشر الميزان ، وكذلك كان يسمى عادة في « كتاب ليت اسمي يينع » « حارس باب

---

(١) نسبة الى مروى القديمة بالسودان وهى البجراوية ٠

(٢) يذكر هنرى برستد فى كتابه « تطور الفكر والدين فى مصر القديمة » ،
Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.
أن « الاعتراف السلبى » تسمية خاطئة لان اعلان البرء عكس الاعتراف (صفحة ٤٠٤ من النسخة العربية التى قمت بوضعها) ــ (المترجم) ٠

الجحيم» . وفى هذا الدور مثله الاغريق بالههم هرمز وجعلوا منه هرمانوبس الهجين Hermanubis الذى يراه الانسان على نقود المقاطعات فى القرن الثانى . بل لقد وجد مصورا مرة فوق ناووس من العهد المتأخر ، فى برلين وهو ممسك بمفتاح يبدو تماما أنه استعاره من اياك L'Eoque (١) الاغريقى ، وذلك لأنه اجتاز مع آلهة الجماعة الأوزيرية ، حدود مصر الضيقة ، وعرف فى أرجاء العالم الهلينستى والرومانى حيث أثار الأخيلة قناع الكلب المتوحش ، أو ابن آوى ، الذى اتخذه . ولقد ورد فى أشعار فرجيل الذى أمدت قصيدته Latratur Anubis (٢) الشاعر مالارميه Mallarmé بقوافيه :

وهناك المعبود أنوبيس

الخطم بأكمله ملتهب كعواء متوحش

وفضلا عن هذا ، فقد وصل الى الجنوب منذ أمد بعيد ، لأنه فى ابى سنبل كان « سيد النوبة » .

ما السبب الذى دعا الى ربطه بالقمر ؟ ان هذا بالنسبة لنا سر خاف . وكان يظهر فى جميع الرسوم التى تصور المولد الالهى الذى كان يحتفل به منذ الدولة القديمة لأجل الملك ، وقد صور فى مولد حتشبسوت وهو يدير بدر التمام يتمنى للطفل أن يتجدد تجدد الكواكب . ولذا فلن يعجب المرء كثيرا عندما يصادفه فى « كتاب الكهوف » وهو يضيء الموتى بقرصه العظيم أو كذلك عندما يجده حاملا القمر فوق رأسه ، ملفوفا فى كفن من عهد متأخر جدا فى متحف الفنون الجميلة بموسكو .

---

(١) ابن يوبيتر ملك اجين Egine وقد اشتهر بعدالته ، فانه صار بعد موته أحد القضاة الثلاثة فى الجحيم كما جاء فى الأساطير .

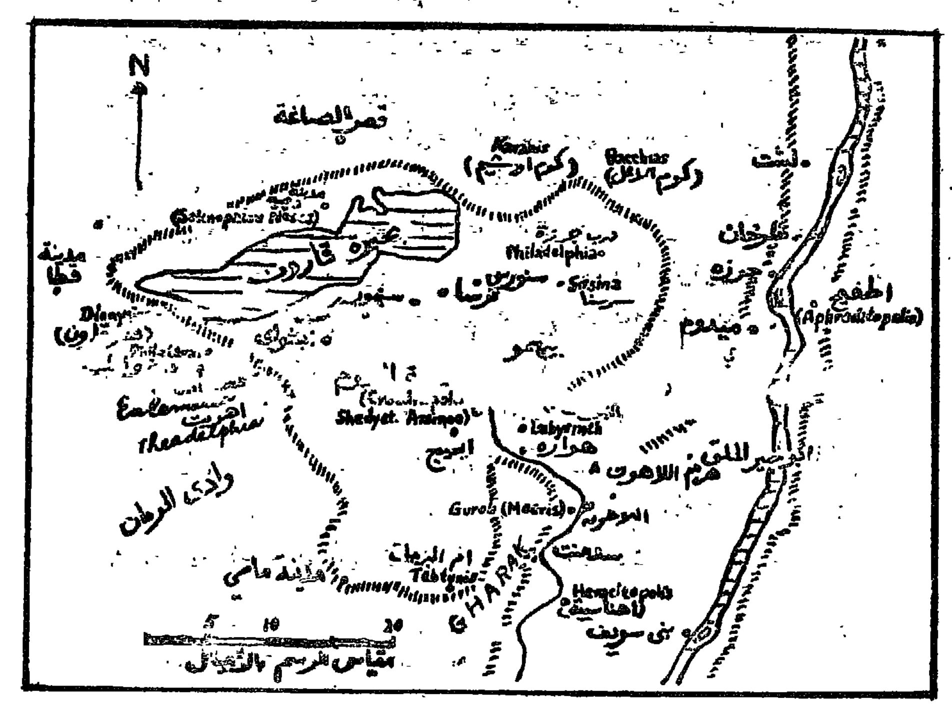
(٢) العاوى أنوبس — (المترجم) .

ولقد كان له دور عظيم في الشعائر المحجوبة الأوزيرية، والبحث عن أشلاء أوزيريس الممزق واعادة تكوين الجثمان واعادة الحياة اليه • ولكن الأمر العجب أنه كان يقرع الطبول أمام الاله وهو يردد قائلا : « انى اقرع الطبلة امام صورتك منذ أن ينبلج الصباح حتى المساء » • على أن تطورات علم لاهوت أنوبس لا ترجع بأجمعها الى العهد المتأخر ، كما أمكن التأكد من ذلك ، ولكنها اتخذت أهمية بالغة العظم دون ريب مع تزايد أهمية الدين الأوزيرى التى عرفت عنه فى العهد المتاخر •

وفى المقاطعة التاسعة عشرة ، كانت تقدم العبادة الى الاله « ست » ، الملعون • وعندما ازداد عدد الاوفياء لأوزيريس ، اله الخلاص ، زيادة بالغة الى الحد الذى أضحت فيه أغلبية مصر ، العظمى ، أوزيرية ، يصبح «ست» القاتل موضوع اللوم العام • هل تدمر مدينته ومعابده ؟ على اية حال ، لم يصل المرء بعد الى تحديد مكانهما بين أوكسيرنخوس (البهنسا) فى الجنوب وهيراكليوبولس فى الشمال • ثم ان نص ادفو الجغرافى وجيز وفيه تأنيب • ولكنه يشير الى أنه كان يحتفظ فيها بأشلاء مقدسة هى ساقا أوزيريس وخصية ست • وفى الحاضرة سبرمرو ، كان لاله الصحراء معبد ، كما كان لنفتيس ، زوجته معبد خاص بها •

وعندما نصل الى اهناسيا المدينة ، التى كان الاغريق يطلقون عليها هيراكليوبولس ، وتدعى قديما ننى نسو ، نجد حاضرة قصيرة العمر لمصر ، وبعد الثورة التى غرقت فيها الدولة القديمة أعاد أمراء ننى نسو ، وحدة شطر من أسفل الوادى والدلتا لحسابهم وقامت أسرتاهما ، التاسعة والعاشرة ، بالحكم فى المدينة موطنهم • ولقد عبدوا فيها الاله حرسافس الذى كان له وجه كبش ويستاثر « بالهيبة » كما كان يقول المصريون بالتورية اللفظية باسمه ، الذى

يبدو انه كان يعنى في البداية « ذاك ـ الذى ـ يقوم فوق ـ بحيرته » . وقد شبه ذلك الاله الذى تظل شخصيته غامضة . بأوزيريس منذ زمن بعيد . ولقد نص كتاب الموتى فى الفصل ١٧٥ كيف ان أوزيريس ، بعد أن ورث من رع وظيفة الملك التي كانت له ، طلب منه الهيبة حتى يمكن ان يخشاه ست والآلهة غيره . وكان من الواجب على ست ان يحضر أمام أوزيريس ، فى تواضع ويقدم له التكريم . ولكن دماء سقطت من أنفه . وأخذ رع الدم ودفنه فى الأرض . ولهذا فمنذ ذاك الحين ، كانت الأرض تضرب بالمعول فى هيراكليوبولس . ان هذه الشعيرة ، التى ترتبط بالحياة الريفية والتى تؤدى في كل مكان بمصر ، كانت لها ، كما نرى ، صلة خاصة بالاله حرسافس ـ أوزيريس ، وكان أوزيريس يبدو كرع في الاله حرسافس ، وهذا هو الذى جعل منه الها شمسيا . وربما كانت هذه وسيلة لتعرف



الفيوم وهيراكليوبولس (اهناسية) (H. Kees : An. Eg)

خليقته كاله خالق ومعبود آزلى • هل لهذا السبب كان يبـدو مرتبطا بالعدالة ؟ أنها حقيقة واقعة ان الملوك الذين عبدوه يظلون الناهضين بنظام اجتماعى أفضل واشاعة أكبر قدر من العدالة الاجتماعية • ويؤيد التصديق بذلك، ما وصل الينا من مؤلفاتهم ومنها « تعاليم لمرى كارع » ذائعة الصيت وقصة رجل الواحة التى ترجع الى نفس العهد •

وعـلى قرابة خمسـة عشر كيلومترا الى الشـمال من هيراكليوبولس ، تتوغل قناة بحـر يوسـف العظيمة ، التى تتفرع من النيل عند أسيوط ، فى الصحراء الغربية وتروى واحة الفيوم (١) وتعـود لتصب فى بركة قارون وهى بحيرة ماؤها ملحى لا يصلح اليوم للزراعة • ويبـدو ان الفيـوم كانت فى الدولة القديمة ، منتجعا يستغل فى قنص الحيوانات وصيد الأسماك اذ لابد آنها كانت تحوى الكثير من المستنقعات والأحراش التى لا يمكن اجتيازها • ولم تكن كثافة السكان فيها ، دون ريب ، كبيرة • وفى عهد امنمحات الثالث ، فى الدولة الوسطى ولدت فكرة للافادة من الفيوم كخزان لميـاه الفيضان • وكذلك أصبحت المنطقة فى رخاء وتضـاعفت المدن فيها كثيرا • ولكن العهد الذى حدث فيه آعظم توسـع كان عهد الملوك الاغريق • ولـما عمـد الهلينيون ـ الذين عرفوا كيف يطبقون مناهجهم عـلى هـذه التربة القديمـة المصرية ـ استغلت مساحات من الأرض فى الزراعة تقع على مستوى لا يصعد اليه الماء فى آيامنا • انّ مدنا بأكملها مثـل ديونسياس Dionysias (٢) وكـرانس Karanis (٣) وسوكنوبيونيز Soknépéonese (٤) عادت اليوم جزءا منَ الصحراء بعد أن كانت قد اقتطعت منها من قبل •

---

(١) ترجع التسمية الى مصر القديمة فقد كتبت (يم) ومع أداة التعريف بايم واليم كما فى اللغة العربية البحر ـ (المترجم) •

(٢) قصر قارون مركز اطسا •

(٣) كوم أوشيم •

(٤) أصلها ايو وبا ايو ـ الجزيرة ـ ديمية الحالية •

ان مجمـــوعة كاملة من أدراج البردى الجغرافيـة ، بالخط الهيروغليفى أو الهيراطيقى تكشف عن أسماء الأماكن والآلهة التى كانت تعبد فيها فى العهد المتأخر • لقد جلبت حفـائر تبتوس (١) Tebtunis ، عشية الحـرب العـالمية الثانية ، وثائق هامة لم تنشر حتى الآن بأكملها • ولقـد هيأت أدراج البردى الاغريقية الوفيرة ، فى تلك المنطقـة ، العلم بالأماكن والآلهـة ، وتضمنت حشـدا من المعلـومات الجغرافية التى لم تستغل حتى الآن والتى تتيح العودة حتى عصر الدولة الحديثة ، كما أن بها بعض الاشـارات المنعزلة التى تحملنا أحيانا الى عهد أسبق • وتقع تبتونس الشهيرة بما عثر فيها من أدراج البردى الاغريقية جنوبى المنخفض ويرجع اسمها الىأصل مصرى «رأس ــ الأرض ــ المستديرة» • وكان يعبد فيها تمساح ، « سيد تبتونس » ، كما حدث مرارا عديدة فى الفيوم • ولقد بقى لنا من الدولة الوسطى مقدس مدينة ماضى ، عـلى مقربة الى الغـرب • وكان مخصصـا لارموثيس ، الهة الحصاد • وقد يتساءل المرء : ألم يخلق تلك العبادة ، بكامل أجزائها ، الناهضون بالأعمالالزراعية فى الفيوم ؟ وهل الالهة كانت فى الحق معبودة محلية ؟ • لقد كان يصـحبها سبك اله شـديت حاضرة الاقليـم ، وكذلك حورس • فهل كانت تؤلف ثالوثا معه أم كانت ثلاثة معبودات مستقلة ؟ لا نستطيع أن نجزم بقول • لقـد كانت تصـور أحيانا على هيئة صل ــ وكانت تربى بالتوكيد ، على الأقل فى العصر المتأخر ، صلال مقدسة فى أفنية المعابد ــ كمـا كانت تصور أحيانا أخرى كامرأة برأس صل • وفى الجنوب الشرقى من البحيرة ، فى ثيادلفىThéadelphie (٢) ، كان اله

---

(١) أصلها تانتو وتبتنو وجيتنو ، أم البرجات الحالية ــ (المترجم) •

(٢) اعريت •

ـ تمساح يطلع على آوفيائه « بوجهه ـ الجميـل » • وهـو الاسم الذى يحمله بالمصرية : بنيفررس Pnepheros • وكان كهنته يحملـون فى موكب عـلى محفة جثمانه المتمدد وهـو ملتف بقطعة من النسيج كان يخرج منها فقط خطمه يعلوه تاج بـ آتف •

وفى قصر فارون ، التى سماها الاغريق ديونوسياس Dionysias والواقعة على مسافة ابعد الى الغرب والى الجنوب من بركة قارون الحالية • يقوم معبد عظيم يرجع الى عصر البطالمة ويرى من بعد • وان كان قليل الزخارف ومتهدما حتى ان المرء لا يجد فيه الا نقشا قليل البروز للاله سبك • وهو شىء ضئيل ولا يبيح لنا ان ننسب المعبد الى ذلك الاله • وفى الجـانب الغـربى من البحيرة ، فى سـوكنوبيونيز Soknopéonèse (١) ، كان يعبد الاله سوكنوبيوس Soknopaios وهذا انتساخ بالاغريقيـة للاسم المصرى : سـبك ، سـيد الجزيرة ، ولتلك الالهة ايزيس ـ نفرسس، Isis-Nephersès . ويشمخ فى قلب الصحراء ، الى الشمال الغربى من البحيرة معبد قصر الصاغة الجميل الذى يكاد يكون سـليما والذى يرجع تاريخه فيما يرجح الى الدولة القديمة • ويكشف تل من الركام الى جوارها ان مساكن أقيمت فيما مضى من الزمان فى هذا المكان الموحش • ومن سوء الطالع آن هـذا البناء الرصين ، لا يضم آى نقش ، حتى اننا نجهل الى أى اله كان مخصصا • ولابد آن رب المعبد كان يشغل الغرفة الوسـطى وهى أكثر اتساعا عن الغرف الأخرى ، كما فى مدينة ماضى ولكن هنا ، توجد ثلاث كرات على كل من الجانبين ، مما يدعو الى الظن أن حاشـية الاله الأول ، كانت تتـألف من سـتة معبودات آخرى تظل كذلك غير معروفة لنا •

(١) ديميه •

وفضلا عن هذا ، يحدث أننا لا نزداد علما عندما نعرف اسم الاله • وهذه هي الحال فيما يتعلق بمعبد الاله كرانس الذى يوجد على النصب الذى يسير من قصر الصاغه صوب الوادى • وكان ربها هو بنيسوخس Petesouchos ، ذاك — الذى — يعطى — سبك • كما فى ارسنوى وفى كركيوزيرس Kerkeosiris ، بالقرب من تبتونس • ان اسم العلم هذا، الذى يأخذ طابع اسم الاله ينتمى الى اسم انسان أكثر من انتمائه الى اسم اله • وقد وضعوا لتفسيره نظريات فيها مهارة عظيمة وليس لواحدة منها مكان من الحقيقة • وفى باكخياس Bacchias (١) وتقع على مسافة قصيرة بعيدا الى الشرق ، يبدو أن اسم الاله الاغريقى سوكانو بكونيس Sokanobkoneus ينطوى تحته لفظ مصرى أصلى : سبك — سيد — جنوت ، وهو موضع تأيد اسمه منذ الآسرة التاسعة عشرة • ان هذه هى التسمية القديمة لباكخياس التى كان الهها نوعا من الرب والحاكم معا فى الفيوم •

وكان لقرى اخرى فى داخل المنخفض عينه ، الهها الخاص • ومع هذا ، ففى معظم الأوقات ، يكون من العسير الوصول الى موقعها جغرافيا ، مثل جسر ، حيث كان يعبد أنوبيس اله حردى الذى أصبحت لنا معرفة به • ولكن كل هذه الآلهة لم تكن الا مجرد أتباع أمام رب الواحة بأجمعها ، وهو سبك (شكل ٢٥) ، سيد شديت ، كروكوديلوبولس Crocodilopolis عند الاغريق ومدينة الفيوم فى آيامنا(٢)• وكانت البحيرة بأحراشها ومستنقعاتها على مدار الزمن مكانا ساحرا لأحلام القنص وصيد الأسماك • وكان موضوع بعض الأعمال الأدبية فى الدولة الوسطى المباهج التى تجلبها أنواع الرياضة هذه ، فى الفيوم • وليس مما يدعو

(١) لم الاثل

(٢) فى عهد البطالمة سميت ارسنوى Arsinoé [illegible] موقع المدينة الأثرية الى الشمال من الفيوم •

الى دهشة بالغة آن اله المنطقة يتخذ شكل ساكن مستنقعات رهيب وهو التمساح • وقد اتخذ سبك صفات أوزيرية على شاكلة حرسافس في هيراكليوبولس ، الذى يبدو آن الفيوم كانت تقع تحت نفوذه ، لقد كان اله الزرع وتطور الحياة ، تماما كاوزيريس ، وعلى غرار النيل. كان يحمل الى الاراضى الرطوبة اللازمة لأمدادها بالخصب وهو ما كان قد غدا يمعله فى كوم امبو وفى سومنو (١) • وقد افادته هنا ظروف فريدة في دوره كاله خالق • ذلك آن بحيرة قارون وهى تظهر في قراره منخفض فى الصحراء الليبية ، كانت تبدو ، فى أعين المصريين، انبثاقا للمحيط البدائي الذى كان قد برز منه • وعلى هذا فقد تجلى الاله ــ التمساح وسط هده الأمواه الراكدة فى البداية كما ظهر التل البداتى ، كما انه ولد هنا على مثال رع الذى اتخذ شخصيته كذلك ــ من البقرة مثير ليقوم بخلق العالم وايقاع الهزيمة دون انقطاع بالفوضى التى ، تهدد الكون من جديد فى كل لحظة ، ولقد كان يعد مثل « نون » محيط البدايات ذاك الذى جاء منه كل شيء ، وقد أضفى عليه هذا مزيدا من قدرة الهيبة وأبعد الى الوراء ، اذا جسرنا على القول ، حدود آبديته • ومرة آخرى ، يقدم علم لاهوته نفس الموضوعات كغيره من الآلهة المحلية ، منذ أن يصل كهنتها الى شيء من الأهمية ويرفعونها الى علو المعبود الأوحد والأزلى • وليست هذه التطورات بأجمعها متأخرة ، بأية حال ، وان كانت وفرة الوثائق من العصر المتأخر تسمح لنا بأن ندرسها على وجه أفضل •

* * *

عندما يعود المرء من الفيوم صوب الوادى ويصعد صوب منف ، يجد آنه آمكن اكتشاف وجود عدد عظيم من العبادات عبر معطيات وفيرة وردت فى آدراج البردى الافريقية وعلى الأخص محفوظات زينون Zenon • وحينما تكشف صدف

(١) البرنجلات بين آرمنت والجبلين كما تقدم ــ (المترجم) •

سعيدة عن أسماء جغرافية عتيقة ، فانها تتيح لنا بان نرجع أحيانا اشواطا بعيدة في تاريخ قرى هذه المنطقة وعباداتها •
وفي سفح النتوء الليبي الذى يقوم عليه هرم ميدوم « الكاذب » وعلى بعد ثلاثة كيلومترات صوب الشمال، اخذت قرية صفط ميدوم الحالية أسم موضع اسمه ، دون ريب ، في الدولة الوسطى ملك « محبوب ـ من ـ اتوم » هو موثومس Moithymis • وقد عبد بها آمون في عصر الأسرة الثامنة عشرة ، كما أقيم بها في العهد المتأخر معبد لباستت، الالهة برأس قطة ، كان بعض الكهنة يقومون بتربية قطط مقدسة داخل فنائه • وغير بعيد في موضع مجاور ، صحت Sahte ، كان يوجد « بيت صقارس » اله ممفيس الجنازى و « بيت ـ القارب حنو » وهو سفينة فريدة الشكل ، كانت مخصصة له • وكان يقدم التكريم فيها كذلك لاله غامض كل الغموض بالنسبة لنا هو امنحى Imenhy قد يكون من الواجب آن نرى فيه آمون (١) • وكان يقع معبد عظيم لايزيس في هذه المنطقة ولكن لم يبق منه أى أثر •

ومما يدعو الى العجب آن هذا الاقليم كان يستحوذ آيضا على « بوتو » الخاصة به ، على غرار الدلتا • وكانت تنهض بالرياسة فيه الالهة أوتو (واجت) ، التى تتخذ شكل صل لها نسيج ذو لون آخضر (ويتحد اسمها فى نطقه مع لفظ آخضر) وكانت تستوى على غرار موت في الكرنك ، على عرش في مقدس تحيط به من ثلاث جهات رقعة من الماء كان يطلق عليها « آشيرو » ويبدو آنه كانت لها ، على شاكلة الالهات

---

(١) لا علاقة لهذا الاله بآمون • انه مشتق من لفظ يذبح • وترجع مصادره لعهد الامبراطورية الحديثة والعهد الاغريقى وكان يلقب به الملك عند تقديم الذبيحة (معجم برلين الجزء الأول) •

واطلق لفظ امنحى للدلالة على الآلهة (الشياطين)

« Schlachtre » — als Bez. Von Göth
(Damonen) — Tafb. N.R.

انى أقابله بلفظ لحب
يقال لحب الشىء ، أثر فيه بالضرب أو القطع أو القشر (الوسيط) ويقال لحب الجزار ما على ظهر الجزور اذا أخذه • ولحب اللحم عن العظم (الأساسى) :

ذوات المخلب ، طبيعية مزدرجة مخيفة ورائعة ، فى ذلك الوقت – ان ذل هذه القرى بعيدة عن النهر وتقع فى ذلك السهل الخصيب الذى كان يجب أن يغمره الفيضان وهى تجاور قناة تروى سفح الجبل الليبي – وعند مشارف الهيبوتيه ، يوجد الهرم مشيدا للاله « مين » فى منطقة الرقة الحالية على مسافة ابعد ، فى الكرك (١) التى كانت تستخدم كمرفأ نهرى لسلع الواردة بالقوافل من شمال الفيوم ، كان يعبد سبك اله سمنو – حر • ويبدو تماما أن تلك المحطة ترجع الى الدولة الوسطى •

وفى حاضرة المقاطعة العشرين ، شن آخن Chenâkhen العتيقة التى كان يطلق عليها فى زمن الاغريق كانثونبولس Canthonpolis ؛ لانها كانت تضم غيضات من أشجار السنط المقدسة والتى تسمى حاليا كفر عمار ، كان يعبد اوزيريس بشعائر تطابق تماما عبادة بيجة ، فى الشلال الاول • ولقد حفظت بعض أشلاء الاله ، وهى ساقه (أو ساقاه) فى غور عميق يقع دون ريب داخل غابة لا يمكن أن يصل اليها غير المؤمنين • وبالقرب منها كانت توجد جرة مثقوبة ، تضمن مجيء الفيضان جالب الخير ، الذى كان ينبع من الاله لاخصاب مصر الشمالية ، وكان يقوم ثلاثمائة وستون كاهنا على مر ثلاثمائة وستين يوما يحملون بها طهورا من ماء النيل • ولقد رأى ديودور Diodore فى ذلك أسطورة دن الدنابيد(٢)

(١) يذكر امليتو E. Amélineau فى كتابه « جغرافية مصر فى العهد القبطى » أن هذه المدينة ترد على الدوام على انها مرفأ يقع على النيل وقيل مرة انها كانت تقع فى مقاطعة منف • ويضيف أنه على الرغم من هذا فانه من المستحيل العثور على اسمها بين مدائن مصر وقراها ، فى القرن الرابع عشر أو فى المعهد الحالى – (المترجم) •

(٢) دنابيد Denaides •

كان دانوس Danaus أميرا مصريا حاول اغتصاب التاج من أخيه اجبتوس Eguptus فأجبر على الهرب من مصر • ولجأ الى بيلوبونيز وطرد من أرجوس الملك استنيلس Sthénélus أبن برسى Persée واندروميد Andromède واستولى على ملكه • وكان لدانوس خمسون ابنة • ولأخيه اجبتوس خمسون ابنا وقد اراد أن يزوج أبناءه من بنات أخيه خشية أن يتزوجهن من امراء اغريق ويعقد العديد من التحالف معهم ويبلغ مزيدا من التعاظم • وقد أرسلهم الى أرجوس على رأس جيش لمظاهرة الطلب • =

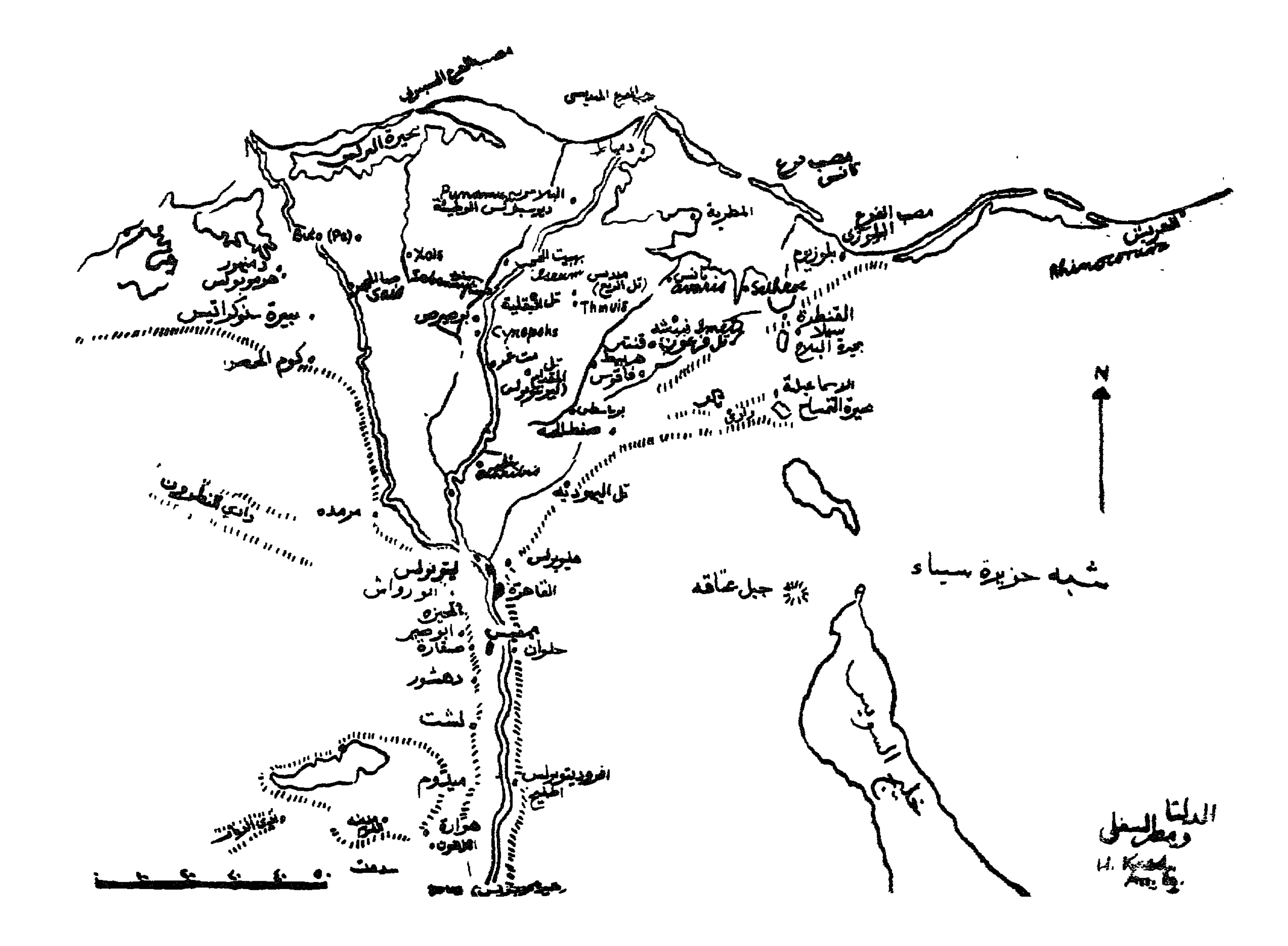
Danaides ، ويضيف كذلك ان أسطورة أقنوس Ocnos كانت تقلد اثناء احتفال خاشع • اننا لا نعرف الى اى عهد ترجع هذه الشعائر ، ولكن قديما كان الاله هو خنوم ، وقد مثل بحورس ، انه جعل منه ابنا لأوزيريس . وكان الاله ــ الكبش الذى يرأس حالات الميلاد يضع انموذج شكل الكائنات على دولابه ، وكان يعرف أيضا بعث الموتى • وبهــذه الصفة كان يطلق عليه فى فيلة : « ذاك الذى يضــع النمــوذج على دولابه ، صانع انموذج جسم اوزيريس الالهى فى مســكن الذهب الحى » • وكذلك كان يطيب للنــــاس أن يجعلــوا مومياوات تلك المنطقة تمر بذلك المكان المتميز ، بطريقــة تمكن أصحابها من الوصول ، فى احوال طيبة ، الى العـــالم الآخر •

وفى ذلك الجوار ، وفى المناطق المجاور ، كان يعبد فى سمنو ــ حر الاله سبك الذى امتدت عبادته حتى وصلت الى كرك القديمة •

كانت آخر مقاطعة فى مصر العليــا تقع بأكملها عــلى شاطىء النهر ، الايمن • وفى الحاضرة وهى أطفيح الحالية ، التى كان يطلق عليها الاغريق افروديتوبولس Aphroditopolis كانت السيادة معقودة لالهة تسمى حاتحور ، كما فى الجبلين والقــوصية ودندرة ، ولكن هــذه لم تكن الا بعض المراكز العظيمة • وليس فى استطاعتنا الاشارة اليها كلها ، عندما يرى أنه فى موكب من الالهات التى تذهب لحماية وتكريم شعيرة المولد الالهى المحجوبة ، فى هيكل الميلاد الرومانى فى دندرة ، يمكن احصاء تســع وعشرين الهة حاتحور ، ربات أماكن مختلفة •

= ووافق دانوس لعجزه عن المقاومة ولكن عمل على أن تتسلح بناته بخناجر يخفينها تحت ثيابهن ليذبحن أزواجهن فى الليلة الأولى من زواجهن • وتم هذا وعفت واحدة منهن عن زوجها •

وأصدر جوبتر العقاب على أولئك البنات القاسيات وهو أن يملأن الى الأبد دنا مثقوبا • ويذكر استرابون أن هذا القصاص لم يكن الا قصة رمزية تاريخية • ان الأميرات اللواتى جئن من مصر الى أرجوس حملن معهن استخدام القنوات لمرور مياه الأنهار والينابيع ، المعروف جيدا فى مواطنهن ــ (المترجم) •



الدلتا ومصر السفلى
شبه جزيرة سيناء
جبل عتاقة
خليج السويس
N
Buto (Pe)
Xois
Sebennytos
Sais
Cynopolis
Thmuis
Tanis
Sile
Rhinocorura
دمياط
المطرية
بلوزيوم
العريش
القنطرة
بحيرة البلح
الاسماعيلية
بحيرة التمساح
فاقوس
قنتير
تل اليهودية
هليوبولس
القاهرة
حلوان
ليتوبولس
ابو رواش
الجيزة
ابو صير
صقارة
دهشور
لشت
ميدوم
هوارة
سدمنت
مرمده
وادي النطرون
كوم الحصن
هرموبولس

الفصـــل الرابــع

● آلهة الدلتا ، المحلية

اذا كنا نسرع الخطى فى اجتياز مصر السفلى ، فليس مرجع ذلك انها أقل اكتظاظا بالمعبودات عن الجنوب ، ولكن لأن الوثائق التى توجد فى شذرات أو تكثر فيها الفجوات لا تسمح باستجلاء كامل لعلم لاهوتها • وكذلك فان الرحلة أقل يسرا عنها فى مصر العليا ، حيث يكفى ترك القــارب ينساب فى تيار الماء • ثم أنه لا يوجد فى الســـهل الفيضى المسيح أى تقسيم جغرافى واضح كل الوضـــوح ، لهــداية السير • وأسهل وسيلة هى بلوغ البحر من جهة الغرب وبعــد ذلك زيارة الشمال والوسط ثم العودة الى عين شــمس من جهة الشرق •

كانت الدلتا تبدأ عند المصريين فى منف • ويعلم المرء أن المدينة كان يطلق عليها « سيزان ــ القطر ــ المزدوج » • لقد كانت معلما يبين موضع التوازن بين شطرى الوادى • ولم تكن الآلهة تنقصها ، وكان أقدمها عهدا يدعى تاتنن وهو الاســم الذى كان يــفسره المصريــون « الأرض التى برزت » • وليس من غير المستحيل أن يكون هذا هو المعنى البدائى لاســـمه ، لقــد كان الها أرضيا يصــور متربعا فى جلسته وعلى رأسه تاج مكون من ريشتى نعام تستقران على قرنين أفقيين ويمسك سوطا بيــده • انه يســتحوذ ويجعل المعادن تنبت فى الجبال ، ويجىء النبات والمياه من لدنه • وقد تصـــوروه الها آزليا وخالقا • ولكنـــه يصعب معـــرفة السبب فى أنه رب الاحتفالات الملكية التى تجرى كل ثلاثين

عاما ويطلق عليها « حب سد » • وفى غالب الاحيان تكـــون وجوه نشاطه هى كذلك تلك بعينها التى يقوم بها بتاح الذى اتخذ هويته منذ أزمنة بعيدة باسم بتاح ــ تاتنن •

ولما رفع مينا المدينة الى مكانة التكريم كعاضرة باســم « الجدار الأبيض » عبدت منف (١) ــ كما عرفت فيما بعد ــ لأول وهلة الاله بتاح (شكل ٢٢) ، الذى يتمثل وعليه كل عــلامات اله محلى • ان شكله يتميز به الى حــد بالغ : انه يتدثر بنسيج يلتصق بجسمه ولا يترك بارزا منه غير يديه الممسكتين بصولجان يتالف من ــ عمــود جــد و « واس » مجتمعين • وتعلى راسه قلنسوة تلتصق بجمجمته • ولابد أنه كان رب القرية الصغيرة التى اختارها الملك ليقيم فيها مقره ، فى انسب موقع يشرف منــه عــلى الشــمال وعــلى الجنوب • ويبدو أنه كان يرتبط ، منذ البداية ، بالصــناع الذين يؤدون مهام حرفهم وعلى الاخص الصناع والنحــاتين الذين سيظل على الدوام راعيهم • ان الذين كانوا يصنعون الحلى فى الدولة القديمة ، كانوا فى غالب الأحيان أقزاما ، وتعرضهم « المصاطب » وهم منهمكون فى صهر الذهب أو فى انجاز صقل القطع الجميلة صقلا نهائيا • لقد كانوا فى حماية بتاح وكان لهم معبودات أوصياء ، أقزام ينسبونهم الى بتاح Patieque (٢) وكانوا يعدون أبناء بتاح • ولذا ، فان هيرودوت يعقد موازنة بينهم و بين الكابير Cabires (٣)

---

(١) تقع مدينة « منف » مكان قرية « ميت رهينة » الحالية بمركز البدرشين وقد سميت « من نفر » ثم أسماها الاغريق ممفيس وحرفها العرب الى منف ــ (المراجع) •

(٢) يذكر ارمان فى كتابه « ديانة المصريين » الفصل العاشر اننا نجدها بوفرة بعد الامبراطورية الحديثة ولكنا لسنا على ثقة من أنها كانت قد ظهرت خلالها وكانت تعتبر كبتاح أو أبناء بتاح ويبدو أن هذا يدل على مصدر اسمها الذى نقله هيرودوت Patièquo .

(٣) الكابيرى وتصور الكابير البلاسجية الاعتقاد بان النار فى أشكالها الثلاثة السماوية والبحرية والأرضية هى أصل الأشياء • وكانت معبودات عظيمة فى زمن بدائى توارى فى ظلمات عهود الهيلينية ولكن فى الأساطير الشعرية وفى العادة العامة هوت مكانتهم الى مرتبة الشياطين Daemones وتجعل منهم بعض التقاليد كهنة فى العصور الاولى ــ (المترجم) •

بما أن الاله بتاح عنده هو هفايسطوس Héphaistos (١) .
ويبدو أنه كان يحتفل بشعائر محجوبة في المعبد الذي كانوا
يملكونه في منف .

كان بتاح يتمتع بشخصية الاله الخالق بوصفه صانعا ،
وربما كذلك بوصفه تاتنن ، الذي امتزج به في سرعة
وسوف نتحدث عن شخصيته كخالق فيما بعد ، وقد تكونت
له شيئا فشيئا اسرة . وكانت زوجته « سخمت » (شكل
٦٢ أ) ، الالهة الرهيبة التي كان لها وجه لبوة ، وكانت
تستقر على عرشها في عهد الامبراطورية القديمة في طيبة
في معبد محوط بالمياه من ثلاث جهات « اشرو » .
هل كان موطنها الاصلي منف ؟ هل جاءت من ليونتوبوليس ؟ اننا
لا ندري شيئا عن هذا . ولكن غرائزها المشهورة بالدماء
كانت تجعل منها « سيدة الحرب » ، وكان في قدرتها أن
تتحول الى باستت الوادعة . التي كانت تمثل مظهرها
الهادىء . ولقد كان لدى كهنة أدفو شعيرة لتهدئة «سخمت»
وفضلا عن هذا ، كان يجب ان توجد في كثير من المعابد
الأخرى لأنه كان يتحتم ، دون انقطاع ، ادخال السكينة
عليها ، أولم تصنع مذبحة عندما وكل اليها أن توقع
القصاص بالناس الذين ثاروا ضد رع ، الى حد أن استدعت
الحال اسكارها لايقافها ؟ ولقد كانت أيضا تصحبها حاشية
مروعة من الكوارث والأمراض ، حتى ان أفرادا معينين من

(١) هفايسطوس Héphaistos (Vulcain) :

يرسم أشعث الشعر وله لحية ، ورداؤه يصل الى ما فوق الركبة وينحسر عن الكتف والذراع اليمنى . ويضع على رأسه قلنسوة مستديرة محدبة . وفي يده اليمنى مطرقة وبيده اليسرى حديدة ذات كلبتين .

كان ابن جوبيتر Jupiter وجونو Juno (= زيوس Zeus وهيرا Héra) .
ولد قويا ونشيطا ولكنه كان بشع المنظر فالقيا به من السماء الى الأرض ، فوقع على جزيرة لمنوس Lemnus واصابه العرج من جراء كسر ساقه . وعنيت به نساء الجزيرة وسفينه . وكان ماهرا كادحا واتخذ صناعة الحدادة وتخصص في صناعة الحلي والدروع والمناجل .

وفي أسطورة اخرى أنه ولد من يونو بمساعدة الريح . وقد ألقت به في البحر لبشاعة شكله حتى يظل دائما في الأعماق . وظل تسع سنوات محاطا برعاية تيتس .

كهنتها كانوا اخصائيين في مهمة شفاء الأمراض : لأنهم كانوا يحيطون علما بالوسائل التى تسحر ربتهم المخيفة ٠

ولقد كان يوجد اله قديم جدا ، في نفس المنطقه وكان يدعي نفرتوم (شكل ١٦) ٠ وكان يرمز اليه بزهرة اللوتس تعلوها ريشتان ٠ وفي غضون عصر الامبراطوريه الحديثة ، اصبح ابنا لبتاح وسخمت ويؤلف الثالوت الذى يصادفه المرء في مثل تلك الوفرة في اواخر قرون الدين المصرى ٠

وفي جهة الصحراء ، في منطقة الجبانه التى نطلق عليها الآن سقارة ، كان يوجد مقر لاله جنازى ، منذ أزمنة بعيدة ٠ وكان يدعي صوكارس (١) (شكل ١٦) ، وتبينه صوره في غالب الاحيان براس صقر ٠ وكان له قارب ذو شكل استثنائي : في الامام ، كانت المقدمة المزودة بمجاذيف عديدة جد متقاربه ، تنحنى صوب الداخل مزدانة براس مهاة بقرنيها الطويلين ٠ وفي الوسط كان يوجد جوسق جزؤه الاعلى مستدير ويقوم بالحفاظ عليه نفر من الملائكة الحراس ويحتوى على صورة الاله محنطة ٠ وسرعان ما استغرقت شخصية بتاح شخصيته ٠ وعندما فرض أوزيريس نفسه كاله للموتى لما يقرب من مجموع القطر ، أصبح يدعى « بتاح ــ صقر ــ أوزيريس » ٠

وفي مدينة منف الغاصة بالسكان ، كانت تزدحم أعظم العبادات تباينا ٠ ولم يكن يوجد فقط ستة أو سبعة آلهة بتاح مختلفة بل كذلك آمون اله طيبة أو رع ، وفي حى برنوفي Périnoufé الذى كان يقطن به كنعانيون ، كانت توجد آلهة بعل وآلهات عشتار ٠ ولا شيء يقدم فكرة عن هذا الحشد من الآلهة أفضل من فاتحة خطاب أنموذجى تكتب فيه

---

(١) هذه هى الصيغة الاغريقية للفظ skr المصرى الذى يقابل صقر فى اللغة العربية وقد أبدلت الكاف بالقاف ــ (المترجم) ٠

مغنية لحاتحور الى احدى رفيقاتها فى طيبة لتفخر ببدائع منف • وهى تبدأ بدعاء لآلهة مدينتها موجه من أجل مراسلتها :

« ها هو ذا ما أقوله لبتاح ، العظيم ، « الذى يستقر ــ الى ــ الجنوب ــ من حائطه » سيد عنخ تاوى (= ممفيس) ، ولسخمت العظيمة ، المحبوبة من بتاح ، ولسخمت (•••) ، ولنب حتبت التى تنتمى الى الباب ــ العالى ، ولبتاح الباب القديم ، ولبتاح الذى يصغى الى الدعوات ، والى الآلهة التى توجد فى داخل « بيت ــ بتاح » ، ولآمون ــ رع «سيد عروش ــ القطر ــ المزدوج » وكبش برنوفو **Perinoufér** العظيم ، ولآمون الذى ينتمى الى « مقر ــ الآلهة » ، وللتاسوع الذى يوجد فى « منزل ــ بتاح » ، ولبعلات ولقادش ولعيت ، ولبعل ــ زفون ، ولسبد ، ولسمات سيدة عنخ تاوى ، ولرع (•••) ، ولبتاح « الجد » الجليل ، ولشمت ، سيدة عنخ تاوى، ولبتاح على رأس تاننت، ولبتاح تحت شجرة البان(١) التى له ، ولنى ماعت رع الذى يتحد مع بتاح ، ولحاتحور ، سيدة ــ جميزة ــ الجنوب ، باسمها مثير ، ولسبك اله مرى رع ، ولتويرس (تاورت) شجرة الكاكا (٢) ، ولسخمت رأس ــ الوادى ، ولآمون نبات الخس ، ولبتاح سيد اقامة العدالة ، ولبتاح سيد حمو ، وآبيس ، فى منزل ــ بتاح ، ولأنوبس ، القائم بالتحنيط الذى يوجد داخل الخيمة ــ

---

(١) Moringa ــ اسمها العلمى Moringa aptera Gaertn اليسار (فيجرى) ــ البان ثماره منشورية تحتوى على بذور تشبه البندق الصغير وتسمى عند العامة الحبة الغالية ولها زيت ثابت جيد ــ عن الدكتور أحمد عيسى ــ (المترجم) •

(٢) اسم شجرة الكاكا العلمى Fam. Ebenaceae D. Kaki L. FIL واسمها بالفرنسية Plaqueminier Zaki Coing de chine ، وبالانجليزية Kaki chinese date عن الدكتور احمد عيسى ــ (المترجم) •

ويرجع أصلها للمناطق الحارة • وقد عرف من هذه الشجرة أو الشجيرة ما يقرب من مائة وخمسين نوعا ــ (المترجم) •

الالهية .. سيد الجبانة ، ولاوزيرس ، سيد راستاو (١) ، (....) وللتاسوع في الغرب ، وللملوك مصر العليا ومصر السفلى الذين يوجدون في الغرب واولئك الذين يوجدون الى الغرب من حث بتاح (سنف) (٢) ، ولكل اله وكل الهة تكون في جوار ممفيس : « أرجو لك موفور العافية » .

اننا لا نتبع في كل مقدس الكاهنة التقية العالمة . ولكن هذه الرسالة ذات مغزى : فعندما نستحوذ على أصغر وثيقة دقيقة ، فان ما يشبه عشيرا من الآلهة يتجلى مدائن منير وقراها ، كما يتكاثر بين ظهرانينا القديسون والقديسات .

وتوجد شواهد ترجع الى أقدم عهود على وجود ثور الهي في منف ، ولكن يبدو أنه لم يعقد الصلة بينه وبين بتاح الا في عهد متأخر الى حد ما . انه بداية بدء ، كما جاء في بردية هاريس Harris المقدسة ، با (روح) بتاح الجليلة ، أي انه يمثل جزءا هاما من شخصية الاله . وبعد ذلك يطلق عليه « رسول بتاح » ولكن ماذا يدل عليه هذا التعبير حقا ؟ اننا سنلقى عناء في تعريفه . انه دون ريب مهبط وحي أبيس الذى يعلن ارادة الاله وكذلك يتخذ العناية في امداد مذابحه بوفرة . وبهذه الصفة ، فانه يرسم في غالب الاحيان مع مينيفس (هاريس) Menevis ثور هليوبولس الذى كان يؤدى نفس الدور في حضرة رع ، أمام موائد القرابين التى تهيأ لحورس في ادفو أو حاتحور في دندرة . ولقد جرت العادة ، منذ عصر الامبراطورية الحديثة على دفن عجول أبيس في دهالين مقابر سفلية تقع في داخل الهضبة الليبية تجاه منف . وفي الفناء الذى كان يحيط سطح المنطقة

(١) راستاو — أصل هذا اللفظ في اللغة المصرية ومعناه فتحة أو باب الممر وهو اسم شائع يدل على طريق أو ممر في مثوى تحت الارض . وقد توسعوا في مدلوله فصار يطلق على مقدس سوكارس في ممفيس وجبانة الجيزة والجبانة على وجه عام في الأسلوب الشعرى — (المترجم) .

(٢) الاسم الدينى لمنف وقيل ان لفظ Aegyptus اشتق منه — (المترجم) .

المقدسة ، أقيم في عهد رمسيس الثاني مقدس لتقديم العبادة الجنازية للثيران الموتى ، أطلق عليه « بيت ــ آوزيريس ــ أبيس » وهو الذى نسخه الاغريق فى لغتهم بلفظ بوسرابيس Poserapis • وفى زمن بطليموس الأول ، أضيف اليه مقدس للاله سرايس الذى كانت عبادته تعمل على توحيد الاغريق والمصريين • ولقد كان هذا سيرابيوم منف ذائع الصيت الذى عثر عليه ماريت عام ١٨٥١ ، مع الطريق dromos اليه والبناء نصف المستدير hémicycle الذى كان يحوى تماثيل الشعراء والفلاسفة الاغريق • ان مجموعة أدراج البردى الديموطيقية والاغريقية التى قدمها السرابيوم للمنقبين خفية ، فى بداية القرن التاسع عشر ، تسمح بتكوين فكرة عن تصميمه أفضل كثيرا مما يمكن أن يهيئه الموقع نفسه فى يومنا ، بعد أن أصابه الدمار ، وقد عبدت الى جانب الآلهة التى صادفناها ، ايزيس وحورس وعشتار السامية التى مثلت بحاتحور ــ افروديت ، وسخمت وتحوت وآمون ، واموثس (امحتب) ــ اسكلبيوس • وكان الموظفون المحليون من مواطنين واغريق يشملون فى زمن حكام بيت لاجوس الأوائل ، من كان يطلق عليهم كاتوخوى Katokhoi ، ذائعى الصيت ، وكانوا وهم يعتزلون تطوعا يقومون بخدمة الاله ، دون تجاوز حدود النطاق المقدس •

* * *

وعلى بعد ثمانية أو تسعة كيلو مترات الى الشمال الغربى من القاهرة ، قرب حافة الصحراء ، تغطى قرية أوسيم المتواضعة بقايا خم Khem ، ليتوبوليس Léthopolis عند الاغريق • وقد كانت حاضرة المقاطعة الثانية فى مصر السفلى • وكانت تمجد الها له مظهر مزدوج واسم مزدوج • فأحيانا كانت له عينان ويدعى مخنتى ــ ارتى ، وأحيانا أخرى يكون قد فقد عينيه الاثنتين وعند ذاك يدعى مخنتى ــ ان ــ ارتى • ويتضح فى جلاء المنهج الرمزى لهذه الثنائية فى الشكل :

ان صورته المقدسة هى شكل اله الأفق
«خنتى ــ ان آرتى» فى شكله كمومياء فى منطقة الجفاف
« خنتى ــ ارتى » عندما تكــون الشــمس والقمر فى محياه :

عيناه اليمنى واليسرى هما قرص النهار وقرص الليل
عيناه الالهيتان تنشران الضوء صباحا ومساء •

وبعبارات أخرى ، يكون لاله الشمس ، هذا الصــقر المحنط ، كما يرسم فى غالب الأحوال ، عيناه عنــدما يبرز القمر والشمس • وهو يحرم منهما عندما يتوارى الاثنان• ولــكن من الــراجح انه أقل قدما فى لتوبوليس عن الاله الكبش خرتى ، وطبيعته خافية تماما عنــا • ولقــد مثــل « مخنتى ــ أرتى » بحورس فى شكل حرويرس (حر ور) • وكان يشترك فى الفاجعة الأوزيرية ، مما أهله لأن يظهر فى مكان هام فى الفقرة التى جاءت فى نصوص الأهرام التى يوجه فيها السباب المهين لجماعة الآلهة الأوزيرية • وكانت الالهة التى قدمت اليه كشريكة تبدو للاغريق معادلة لالهتهم اتو Leto (١) ومن هنا جاء الاسم الذى أطلقوه على مدينــة « خم » التى كانت أهميتها الدينية كبيرة •

وبين الجيزة وأوسيم فى قرية يطلق عليها « اكمتا ــ سبد » كان يوجد مقدس لاله شرقى الدلتا هذا ، ومن حول لتوبوليس فى « خاس » وفى قرية «است» كانت تقدم عبادة لسخمت • وبالتزام حافة الدلتا ، ولكن على مسافة أبعد الى الشــمال ، فى اتجــاه قرية طرانة الحالية ، كانت المدينــة

---

(١) Latone — Leto :
ترسم وهى تحمل طفلبها على ذراعيها ، هاربة أمام الثعبان بايثون Python الذى يطاردها • استبدت الغيرة بيونو (Juncn : Héra) لحب زيوس لها • وقد ضربت فى الآفاق بحثا عن ملجا وهى على وشك الوضع • وترفق بها بنتون (بوسيدون) وبضربة برمحه ابرز من البحر جزيرة ديكوسى وفيها اخرجت ابولو وديانا ـ (المترجم) •

« ساخبو » تعبد حراختى (شكل ٦) وكان يرسم كانسان له رأس صقر يعلوها قرص الشمس • ووفقا لما جاء فى بردية وستكار Westcar ، قدر أن يكون هذا الاله أبا للملوك الأسرة الخامسة ، وعلى هذا كان له شأن فى العصر القديم • وكان يقدم التكريم أيضا الى حربوقراط (شكل ١٠) فى تلك المدينة التى هوت شيئا فشيئا فى مدرجة النسيان •

وعن كثب من طرانه ، يستوى كوم آبى بلو الذى يغطى طرينوثس القديمة • ان اسمها مشتق من الالهة ارموثس التى سبق أن صادفناها فى الفيوم • ولقد كانت تعبد فى تلك المدينة الريفية • ولكن ربة المكان كانت حاتحور سيدة الفيروز ، تلك التى تقيم فى عرض صحراء سيناء فى معبد سرابيط الخادم ، حيث تتخذ على التوكيد مكان « بعلات » سامية • ولا تزال بعض أجزاء من حيطان معبدها تقوم فوق ربوة الركام ، كما تعرض كتل أحجار من الأسوار المهدمة الآن فى متحف بوسطن •

وعلى مسافة أبعد الى الشمال ، يغطى كوم الحصن القريب جدا من الصحراء والواقع فى موازاة مدينة طنطا الحالية ، موقع اماو القديمة • لقد اشتق اسمها من آشجار المكان المقدسة (ربما أشجار النبق) (١) ، التى كانت حاتحور سيدتها • وهناك ، كما فى أمكنة أخرى ، كانت تتخذ شخصية بقرة سماوية ، وعلى الأخص سقات حر « تلك التى تغذى حورس » • وكان يطلق على أحد الكهنة « المشرف على حرم ذوات الكمال (أو الجميلات) » • لقد كن كاهنات حاتحور اللواتى يقمن بدور فى شعائرها المحجوبة ، الليلية ، التى لدينا علم بها فى مداموود وفى دندرة وفى طرة • وكان المعبد الكبير يأوى أيضا « خنتى ختى » اله اتريب وحرسافس اله هيراكليوبوليس •

---

(١) Jubier اسمها العلمى Zizyphus Spina Christi Wills وهى nbs بالمصرية وتقابل (نبق) العربية ـ (المترجم) •

وعندما نواصل السير صوب الشمال ، ملازمين على الدوام الجهة الغربية من فرع رشيد ، نبلغ نوكراتيس، التى كان اسمها المصرى بامرى • وبخلاف المدينة التى تنازل عنها آمازيس للاغريق والتى كانت معابدها مخصصة لآلهة هلينية ، كانت توجد قرية مصرية أقيم فيها معبد للاله « مين » • وثمة حاتحور كانت تقيم فيها أيضا • ولو ان الاغريق كانوا قد تعرفوا بعض الآلهة المصرية على أنها آلهتهم هم ، فانه يكون من الشيق أن نلحظ أنهم لم يقيموا معبدا لحاتحور ـ افروديت التى كانت مشتركة بينهم وبين الوطنيين •

وعلى قرب من دمنهور الحالية كانت تقع هرموبوليس بارفا ، ولا يبدو فى الواقع لزوم الخلط بينهما • فليس مما يمكن تصوره أن مدينة هرمز توارت لصالح حورس ، الذى كان أقل شهرة لدى الاغريق • وقد اهتم أفلاطون عند مروره على هرموبوليس ، التى كانت على مسافة قصيرة من نوكراتيس ، بالاله تحوت الذى جعل منه بعد ذلك بزمن ، الشخصية الأولى فى الأسطورة التى بلغت حد الجمال والتى أدمجها فى محاورته المسماة « فيدرا » ، ولم يكن يلزم أن يختلف علم لاهوت اله الحكمة والعلم فى خطوطه العراض ، الا قليلا عن ذاك الذى كان ينادى به كهنة هرموبوليس ماجنا • فى عهد نقطانبو (نخت نبف) الثانى ، وكان يتخذ زوجة له « نحمت تاوى » وربما ابنا له « حر نفى » حورس ـ الكامل • وكان لأوزيريس مقدس قريب من مقدسه • أما عن دمنهور واسمها هو انتساخ بالعربية للأصل المصرى فانها « مدينة حورس » •

وعندما نواصل السير ملتزمين الفرع الكانوبى ، تجاه الغرب ، تصبح الوثائق نادرة ، رغم أن المنطقة كانت تغص بالسكان فى العصور القديمة • ويجب الوصول الى قرية

راكوتس (١) حتى نجد مقدسا للثور أبيس • وعندما قام الاسكندر بتأسيس الاسكندرية فى ذلك الموضع ، حجبت روعة المدينة الملكية العظيمة ، ذكريات الماضى ولقد حلت عبادة سيرابيس محل عبادة أبيس أو امتزجت بها • ولم يبق من سرابيوم الاسكندرية ذائع الصيت ومن مكتبتها ، الا موضعهما وتمثالان لابى الهول لا يكشفان لغز تنظيمها القديم • وكانت تقدم لايزيس وأوزيريس عبادة ، يؤديها الاغريق عن طواعية لالهى خلاص انسانيين وقريبين منا • وفضلا عن هذا، فان الاسكندرية لم تكن على الاطلاق مصرية تماما • وكان يطلق عليها فى العالم الاغريقى ــ الرومانى الاسكندرية الملحقة بمصر Alexandria ad Aegyptum ، مما يدل على أنهم تصوروها اضافة هامشية لمصر لا على أنها تؤلف جزءا من صميمها • وعندما حدث فى عهد بطليموس الثالث «آدرجت»(٢) ، أن نوعا من مجالس الكهنة تشكل ، بناء على رغبة البلاط فيما يرجح كثيرا ، لم يجتمع المجلس فى الاسكندرية ولكن فى كانوب ، فى معبد أوزيرى • وعندما أتيح للكهنة المصريين أن يسيروا وفقا لوحى ذواتهم ، منذ عهد الملك التالى ، كانت المجامع المقدسة تجتمع فى منف •

وعلى آية حال ، كان يجب الافادة من المكان كمرفأ منذ زمن بعيد ، ولقد أمكن تحديد تنظيمات ، يبدو أنها كانت أقدم عهدا من تلك التى وضعها المقدونيون واننا نعرف آنه فى عهد أسرات هيراكليوبوليس ، أخضع ملوكها شطرا من الدلتا حتى البحر : ليتمكنوا من الحصول على أشجار لبنان الصنوبرية التى كانت من مستلزمات العادات الجنازية وعبادة الآلهة • ويكون مغريا آن نحدد رحيل السفن المصرية من المرفأ الوحيد الذى كان على شىء من الصلاحية : راكوتيس • خاصة وأن كشفا حديثا قد أثبت وجود معبد ،

---

(١) الاسم الاغريقى pa Kwtis يرجع الى الاسم المصرى رع قدت وهى : قودة ــ (المترجم) •

(٢) Evergète ــ صانع الخير •

على بعد ٢٠ كيلومترا الى الغرب من مرسى مطروح وعلى بعد ٣٠٠ كيلو متر ونيف من الاسكندرية ، وكان معبدا مخصصا لآلهة طيبة ، داخل حصن يرجع الى زمن رمسيس الثانى • ولقد هيأ المصريون لانفسهم مقاما فى هاتيك الجهات مع عباداتهم وتركوا فيها آثارا عديدة حينما اضطروا فى مناسبات عديدة الى ترك المجال أمام الغزاة الليبيين ، غير أن التطور البالغ الذى حدث فى منطقة الاسكندرية فى زمن الاغريق قد محا هذه الآثار تماما •

وكان يوجد فى كانوب ، التى تقع الى الغرب من أبى قير الحالية ، معبد ذائع الصيت ، لأوزيريس فى العهد المتأخر • وكانت تجرى فيه صنوف رائعة من الاستشفاء ، استرعت انتباه الامبراطور هدريان ، حتى انه ود لو أنها تحدث فى قصره الصغير تيفولى Tivoli الذى يملكه ، وقد كان يحتفل بأوزيريس بحمله فى نزهة فى قاربه فى وقت أعياد الاله السنوية ، من معبده حتى معبد امون الذى لابد انه لم يكن يبعد عنه كثيرا • واذا كان اسم كانوب المصرى لا تقوم شواهد عليه قبل الاغريق، فان شهادة غريبة جديرة بالانتباه أوردها اليوس ارستيد Aelieus Aristide وهى أن كاهنا مصريا آكد له فى نفس المكان أن اسم كانوب لم يشتق من اسم ربان منلاوس ménélas ، ولكنه كان سابقا له كثيرا ومعناه فى اللغة المصرية « أرض الذهب » • ان آثارا تذكارية مختلفة ، وكلها لا يرجع مصدرها الى مدن أخرى فى الدلتا ، يبدو أنها تؤيد هذه الاقوال : تماثيل ، وتمثال لأبى الهول لأمنمحات الرابع ولرمسيس الثانى • ومنذ عهد قريب استخرج تمثال لأبى الهول من الكوارتز ولرمسيس الثانى من جبانة قديمة ، قريبة من قبو تحت الأرض مملوء بمومياوات أبى منجل : مما يسمح بالظن بأن معبدا لتحوت يوجد فى الأمكنة المجاورة • وعلى هذا النحو ، تتكشف عبادات أقدم عهدا • ان اسما قام الاغريق بتفسيره وفق منهاجهم ، كما فعلوا

باسمى فرسيه Persée وأنتيه Antée يدعو هنا الى المجازفة بأن نجدد شباب الموقع ، لو أنا آخذناه بمعناه الحرفى ٠

لنترك كانوب ، ولنتجه صوب جنوبى بحيرة البرلس ، لزيارة شاطىء فرع رشيد الأيسر ٠ ففى آحراش الغاب ، عظيمة الكثافة التى كانت تغطى ، فى الآزمنة البدائية ، هذه المنطقة غير المحددة التى توارت شيئا فشيئا فى البحر ، كانت آلهة ــ صل تستوى فوق ساق بردى ، تقــوم بالحراســة ٠ وكانت تسمى اوتو (واجت) ، (شــكل ٢٢) كمــا كانت مدينتها بيت اوتو ، تســمى بوتو ٠ وتســتخدم النصــوص المصرية ، فى غالب الاحيان اسمين للدلالة عليها : بى ودب ٠ وفى الواقع ، فان مما يثير الدهشة فى تل الفراعين وهــو الاسم الحديث لمكانها ، رؤية مخلفات قريتين متجاورتين غير مختلطتين ومعبد معظم آجزائه التى مازالت باقية ، مزدوجة ٠ وكانت اقصى الشمال ، منذ بدايات الملكيــة ، هى الحاميــة للملك ٠ وعندما توحدت مع الهة الجنوب « نخبت » غــدت تستقر فوق التاج وتفنى اعداءه بحرقهم ٠ وبالاضــافة الى هذا فانه لما كان يدل عليهــا ، اسم اللون الأخضر الذى كان يرمز للنمو والتفتح ، كانت آوتــو (واجت) فى المعتــاد ، مصدر غــوث ومرح ٠ وقد تمثلت فى البــداية بعين رع ، بفضل الدور الذى كانت تؤديه فوق التاج ، وآخذت هوية ايزيس التى قدمت لها العون حقــا عنــدما أخفت حورس الصغير فى الغدران المجاورة لخمس ، لتنحيه عن حيل قاتل آبيه ٠ ولقد جعل منها الاغريق معــادلات لالهتهم ليتو Leyto وفى زمن هيرودوت كان المعبد يشتهر بأنه مهبط وحيها ٠

وعلى بعد ٢٤ كيلومترا ، الى الجنوب الشرقى ، كانت توجد المدينة التى سماها الاغريق اكســويس Xois وهى خاســوو (١) بالمصرية والتى ترجع اليهــا الأسرة الرابعــة

(١) سخا ويرجع اللفظ الى اسمها المصرى - (المترجم) ٠

عشرة الوطنية ، على ما ذكره مانيثون • وكان ربها القديم «رع» الذى أصبح فى الدولة الوسطى آمون ـ رع ـ وكان يصحبه فيها تفتوت وشو • ثم تألف الثالوث فى عهد البطالمة مرة من آمون ـ رع وموت وخنسو ـ حر ـ اختى ـ الصغير • ولعل بعض هذه الآلهة كان يأخذ شخصية البعض الآخر • وكانت تعبد فيها أيضا حاتحور •

وصوب الجنوب الغربى ، وغير بعيد من فرع رشيد كانت لمدينة صا الحجر (سايس) ، فى جميع الأزمنة ، أهمية دينية عظيمة • وعندما حاول تفناخت اميرها ، حوالى عام ٧٣٠ ، اعادة وحدة القطر ، ثم على الأخص فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ، عندما أصبحت الحاضرة ، عرفت سايس شهرة بعيدة المدى • وقد ضاعف من أهميتها وجود مجمع من الكهنة الذين كانوا بلا شك علماء كثيرى النشاط • وفى عهد اسرة ملوك فارس نجح « أوجاحورستى » فى اعادة بناء « بيت الحياة » فى سايس وعلى الأخص مدرستها الطبية • ولقد اقام فيها افلاطون حينا من الزمن ومن الراجح جدا أنه هو الذى وجه اليه أحد الكهنة الكلمة ذائعة الصيت والتى قيل انها قيلت لصولون : « أيها الاغريق ، انكم على الدوام أطفال ! والاغريقى الذى يكون مسنا ، لا وجود له ! » • ولقد أتيح لشامبليون آن يشاهد فناء معبد مقام باللبن • ولقد بدا له أنه « خندق حصار جبابرة » • واليوم ، من المعبد ومن بحيرته المقدسة ومن قبر أوزيرس Osireion ومن قبور الفراعنة الصاويين ، لم يعد شىء باقيا • وتسمح بركة من الماء وسط حفرة منخفضة بظهور بعض كتل من الأحجار المتناثرة وتعكس السماء ، التى يبدد هدوءها البط والأوز •

ومع هذا ، فقد كانت آلهتها نايت (شكل ١٧) احدى معبودات مصر العظيمة • وتذكر نصوص الأهرام وكذلك نصوص النواويس ، أنها كانت تقوم بحماية أوزيرس والملك المتوفى ، مع ايزيس وسلكس (سرقت) ونفتيس • وقد

كانت بالغة القدم • وكان رمزها سهمين متقاطعين ربما فوق ترس (١) • وكان معبدها البدائى ، عظيم البساطة ، يتألف من جوسق من الغاب بسقف منحن ، يحيط به فناء يضم أشجارا مقدسة • ومنذ الدولة القديمة يبين دعاء موجه اليها ، علماء اللاهوت وهم يتدبرون النظر فى الصلات التى تجمعها بأله لا يذكر اسمه : « انها هى التى خرجت منه ، التى خرجت منك » • انها ام وفى الوقت عينه ابنة الاله ، فى نوع من التناسل المتبادل • ولكن دورها كمحاربة بالسهام كان يتيح لها ان ترد أعداء رع ، الشمس ، وكذلك أعداء اوزيريس واعداء الملك • ولن تفقد أبدا هذه الصفة • وقد كانت لها صفة اخرى اكثر غرابة وتخصصا ، فقد كانت تخدر بسهامها الاطياف والكائنات الشريرة ، التى تسعى فى جنح الليل • ولهذا درجوا على نقش صورتها على الوسائد التى كانت تستخدم عند النوم • وكانت تقوم فى علم اللاهوت المتأخر — باصدار الأمر الى تيثويس والارواح الشريرة وكانت قادرة على السيطرة عليها •

وكانت تصور فى العصر المتأخر وهى تقوم بارضاع تمساحين • ذلك أنه كان معروفا منذ آمد طويل أنها كانت أما للاله سبك وكذلك لشو ولتفنوت • وقد كان هذا الرأى رائعا • لقد جعل من نايت آلهة للبدايات الأولى بما أن شو وتفنوت كانا أول مخلوقين جاءا الى العالم • وكانت أيضا أما لأوزيريس • وان الدلائل التى قدمها لنا الكتاب الاغريق عن موضوعها لتنطوى على علم لاهوت دقيق تكشف العناصر المصرية المعروفة عن بعض جوانبه ، دون أن تتيح لنا تحديده على وجه التحقيق • ولكن نقوش اسنا التى نشرت وترجمت منذ عهد قريب ، تلقى ضوءا باهرا على ربة سايس • وتوضح محتوياتها أن كهنة لاتوبولس (اسنا) آفادوا من وثائق اصلية يرجع مصدرها الى الدلتا وتشهد رسوم أو

---

(١) يقول ارمان فى كتابه (ديانة المصريين) انه قوس — (المترجم) •

إشارات أدبية أكثر قدما على أن المبادىء وان وضعت لتناسب الذوق السائد فى العصر الرومانى ، فانها ترجع أساسا الى حقبة سابقة له كثيرا ٠

وقد أمكننا أولا أن نحزر بعض قسمات من علم أساطيرها : فى البدايات الأولى تحولت الى بقرة ثم الى سمكة لاطس (قشر بياض) lates(١) ولما كانت قد شبهت بالأبقار السماوية البدائية ؛ فقد قامت بنجدة الشمس التى كانت قد خلقتها عندما كانت غارقة فى العنصر الرطب ٠

لقد وضعتها على رأسها وهى فى مظهر البقرة «احت» ثم سبحت وهى تحملها بوصفها « مثير » ٠

وفى معبد بوهن الذى يكاد يواجه وادى حلفا ، ترى البقرة « احت » منذ زمن حاتشبسوت وهى تحمل رع الطفل بين قرنيها ٠ انها ليست أم سبك وشو وتفنوت وحسب ولكنها أيضا أم رع وأوزيرس اللذين ترضعهما كذلك فى شكل تمساحين ٠

لقد أضفيت عليها مجموعة من الأوصاف الالهية ، ولنترك مظهرها المحارب ، فقد كان يتيح لها حماية بطريقة نافذة المفعول، خاصة وأنه كان يلبس التاج الأحمر تماما كما تفعل هى ٠ ان هذه الناحية من علم لاهوتها التى يبدو فيها الشكل الآدمى الى حد بالغ ، لا يجب ، أن يخفى ، أنها كونية كما سبق أن رأى هذا بروجش وبيريه Pierrets على الوجه الصائب :

انك القبة السماوية ٠٠

تلك التى أنجبت النجوم ، كلها ، مهما كان مقدارها ٠

---

(١) لاطس Lates niloticus ، سمك فى النيل من فصيلة القشور serranidae تعرف له فى مصر أسماء كثيرة منها القشر والفرخ وحمار البحر (معجم الحيوان ، امين المعلوف) ـ (المترجم) ٠

ومن الجلى أنها كانت ترمز الى المكان الذى تكون فيه رع • ولقد كانت كذلك سيدة الصحراء والأقطار الأجنبية وخالقة كل ما يوجد فى باطن الأرض من معادن وأحجار كريمة • لقد كانت هذا « الكل » العظيم • ولما كانت أقدم من جميع الآلهة ، فى باطن المياه الأولى ، فقد جاءت للوجود من تلقاء ذاتها • وهذا هو نعت آتوم أو رع الخاص بهما على قدر ما هما أبديان ولكنه فى صيغة التأنيث • لقد كانت تستحوذ على الأبدية الفضائية والزمنية التى عبر عنها هذه المرة بصور لا تستعير شيئا من جماعة الآلهة الشمسية •

اليك التمجيد ،

عاليا كالسماء ،

والتبجيل ،

عريضا عرض الأرض ،

والتهليل ،

فى كل لحظات الزمن !

ان تبجيل شخصك

يمتد حتى الأخضر العظيم (١)

انها سيدة الحياة الكونية

انها سيدة الصحة

والحياة رهن أوامرها •

---

(١) الأخضر العظيم هو البحر ، وفى اللغة العربية الأخضر البحر (المسلسل ص : ١٥٨ مجموعة « تراثنا ») — (المترجم) •

ربما كان لهذا السبب انها كانت تقوم على حماية أوانى كانوب (١) الموتى وتمثلها صورة من أكثر صورها التى نملكها اغراء ، وهى تقوم مع ثلاثة من صواحبها ، بحراسة أوانى كانوب توت عنخ آمون · انها كانت تملك « كل القدرة » · والتى كانت تتجلى ، على الاخص ، فى «ازدواج» وقد كانت مذكرا ومؤنثة فى آن واحد ، وهو ما عرفناه من حرابولون Horapollon · وتشرح هذه الامكانية انها كانت تستطيع ان تكون قدرة خالقة كالاله بتاح ، دون اية معونة خارجية · وذلك ، دون ريب هو السبب الذى من اجله لا نعرف لها آى قرين ·

وكانوا يستخدمون التورية فى نطق اسمها القريب من النيض ويقولون انها المحيط الأزلى وانها كانت سابقة للاله تاتنن والاله نون ، الذى يصبح ابنها وكذلك فانها هى الخالقة الوحيدة ·

ان كل ما هو كائن خرج من نسلها

ولا يوجد كائن ولد خارج ما قامت بصنعه

(ترجمة سونيرون) ·

تجمع النصوص آحيانا على انها خلقت الزمن وكل عناصره · كما تستخدم الأسطورة آحيانا · وكان من المسلم به أن اله الشمس رع هو الذى قام بعملية الخلق فى البدء · ثم ان نايت بعد أن نسلت الآلهة الأزلية ، دون أسماء ودون تحديد كامل لها قد آخبرتها سلفا بكل ما ستصنعه الشمس ، وقد كانت كلماتها خالقة · ولقد « لفظت » ايضا اسم « الشمس » وكان هذا معادلا لجعلها تظهر للوجود · واذا كان رع بعد ذلك قد خلق تحوت ، فانه كان من خلق نايت فى المرتبة الثانية · فهى فى النهاية منشئة جميع

---

(١) الأوانى التى كانت تحفظ فيها أمعاء الميت بعد انتزاعها منه ـ (المراجع) ·

مواضع الخلق المعروفة فى مصر وكذلك الآلهة التى صورت الخلق • لقـد صنعت مصر ، مركز العالم ، بأكملها وكذلك بوتو وعلى الأخص « دب » وسايس واسنا وهذا دون حاجة لقول • والاله رع فى مظهره المزدوج كآمون القديم وكخنوم وجماعة آلهة هرموبوليس الثمانية التى لا غنى عنها وأتوم ، وهى أم لأوزيريس ، النبات المتكاثر •

ما آبعـدنا عن الارشـادات الهزيلة التى كان علينا ان نقتنع بها ! • حين نرى تمثال الفـاتيكان حامل النـاووس naophore : يسميها ام رع التى أسـهمت فى ميـلاد جميع الآلهة • حقا ان التمثال الشافى المحفوظ فى اللوفر يحـدد أنها كانت اما لحورس ، وهو ما يؤدى الى تشبيهها بايزيس • كما أن ترانيم الصلوات فى اسنا تشبهها بسوثس (الشعرى) وبسشـات وبمنحيت وبنبوت وبمـوت وبنخبت وبسـخمت وبنوبت وبوررت وبحاتحور وبباستت • وهذا يجعل منهـا المعبودة الواحدة ، التى ذابت فى شخصيتها الآلهة والالهات ، لهذا نفهم تماما لماذا استطاع يمبلك آن يذكر فى « الشعائر المحجوبة المصرية » ذات التقليد المذكور فى المقادس والمكتوب بالهيروغليفية فى مدينة سايس المصرية : والذى يقـول ان اسم الاله معناه ذاك الذى ذاع فى العالم كله •

واذا رحلنا عن سايس ويممنا وجهنا صـوب الشرق ، على نفس خط العرض مجتازين المزارع اليانعة والقنوات ، فاننا نصل الى سمنود الحالية ، على حافة فرع دمياط • لقد كانت فى القدم سبنوتس Sebennytes ، العجل الالهى ، مهد ملوك آخر اسرة وطنية • والتى غدا آنورس ــ شو ، ابن رع ربها وسـيدها وحتى لو سـلمنا بآن العجل الالهى ، الآكثر قدما ، كان يمثل حورس ، فقد كانت قرينتـه تفنوت التى مثلت بمحيت أو بباستت • غير آن آوزيريس وايزيس كان يقيمان بها آيضا •

وليس فى الواقعة ما يستغرب عندما يعلم أن هذه البلدة تقع فى منتصف الطريق بين مدينتين متقاربتين ، بهبيت الحجر الى الشمال واسمها القديم اسيوم Iseum مقر ايزيس ، وآبو صير (بوصيرص) الى الجنوب « جدو » وطن آوزيريس ، ومن هذه المدينة الأخيرة لم يعثر الا على تل من التراب تقبع فوقه قرية حديثة • ومن اسيوم ، لا تزال توجد كومة من كتل الجرانيت تزخرفها رسوم دينية • وهذا هو كل ما تخلف عن معبد عظيم يرجع تاريخه الى الملوك المقدونيين الأوائل وان كان الها المدينتين بالغى القدم • ولقد أشرك أوزيريس (شكل٢١) فى (أبو صير) باله يدعى عنجتى ، لم يغمره النسيان تماما ولكن شخصيته محتها ، الى حد عظيم ، شخصية رفيقه • على أن الاسطورة الأوزيرية هى واحدة من أعظم الأساطير التى خلفتها مصر القديمة ، اثارة للمشاعر • ان معالمها الجوهرية توجد منذ عهد الأهرام ، ولكن لم تصل الينا قصة متصلة لأحداثها فى المصادر الوطنية • ويجب أن نحللها وفقا للعجالة التى صنفها بلوتارخ عن ايزيس وأوزيريس •

ولقد ولد أوزيريس وحرويرس وست ايزيس ونفتيس على هذا الترتيب، من نوت الهة السماء فى خلال أيام النسىء الخمسة، ولقد تزوج أوزيريس من ايزيس وست من نفتيس• وعندما أصبح أوزيريس ملكا ، علم الناس الزراعة وتربية الماشية والفنون وعلى وجه الاجمال الحضارة • ولما لم تكن لست قدرة على الخلق ، فقد أتاه النجاح ، بمعونة شركائه المتواطئين معه ، على أن يورد أوزيريس موارد الهلاك وذلك بأن حبسه ، بطريق الحيلة ، فى صندوق آلقى به فى اليم • وعمدت ايزيس وقد آلمت بها الفجيعة الى البحث عن الجثمان وفى خاتمة المطاف وجدته فى ببلوس التى رسا فيها • ولقد نمت شجرة خلنج (١) حول التابوت ووقته بخشبها• وانتهت

(١) Erica, arborea _ خلنج ، اريقى
E. Aegypiacus _ زبل الفار _ ريحان فاسد ، عن معجم النبات للدكتور احمد عيسى _ (المترجم) •

الحال بالآلهة ، بعد أن حازت على عطف ملكة المنطقة ، بأن تستعيد جثمان زوجها الذى حملته الى مصر • وفى أثنـاء ذهابها لبوتو ، لرؤية حورس الصغير ، وجد ست الجثمان ، الذى كانت ايزيس قد أخفته ، وجزأه الى أربع عشرة قطعة ألقى بها فى النهر • ولقد أخذت ايزيس على عاتقها البحث عن الأجزاء المختلفة وأقامت قبرا فى كل مدينة عثرت فيها على جـزء منهـا • ولكن بلوتارخ ، حتى لا يفشى أسرار الشعائر المحجوبة يمسك تمـاما عن الافصـاح بأن ايزيس نجحت فى اعادة الروح الى بقايا الاله وأحيت زوجهـا الذى كان عليه ، منذ ذلك الحين ، أن يحكم الأموات • ومع هـذا ، فانه يضـيف بأنه أصبح لها من أوزيريس ، بعـد مـوته ، « حربقراط » الصغير ، مما يفهم منه أن أوزيريس عاش من جديد ، ولقد قامت بين حورس وست سلسلة من المعـارك والمناظرات انتهت بالانتصار النهائى لحورس المنتقم لأبيه •

ونستطيع ـ من الناحية الشكلية الخالصة ـ أن نجد ـ بفضـل متنوع الصـيغ البـديلة التى أوردها بلوتارخ أو جمعت من التلميحات المصرية ، أن علمـاء اللاهوت عانـوا مشقة فى ادماج حورس فى جماعة الآلهة الأوزيرية • لقـد كان حورس (راجع الأشكال ٦ ، ٩ ، ١٠) الهـا للسـماء سحيق القدم ، وراعى الملكية منذ عصر ما قبـل التاريخ • وكان له شكل الصقر وكان يرتبط بمواضع محـددة تمـام التحديد ، مثل مدينة ادفو ، ومثل مدينـة بحـدتى أى تل البلامون فى الشمال • منذ البدايات الأولى ، هو حـورس • وقد كان ، بوصفه اله الملكية ، المنظم الذى يدفع الفـوضى والصحراء لأنه سيد القطر الاسود أى وادى النيل الخصيب ، « كيمى » • وكان له ، طوال الزمن عدو هو ست (شكل٢٨) ، العقيـم ، اله القطر الوردى اللـون « دشرت » • وكانت المعارك التى قامت بينهما مروعة وعلى الرغم من انتصـار حورس ، فان ست لم يهزم هزيمة سـاحقة عـلى الاطلاق ، وكان الصراع يعود بينهما من جديد • وكان يبدو انه آثر

على الملكية ، عينها ، فى نهاية الأسرة الثانية ، حيث أعلن ملك انه ست وليس الاله حورس · كيف أمكن النجاح فى ادخال حورس القديم فى الجماعة الأوزيرية ، التى كانت لاحقة له ؟ ان علماء اللاهوت لا تعوزهم الشروح بتاتا · لقد ذهب تصورهم الى أن ايزيس وأوزيريس قامت بينهما علاقات وهما فى بطن أمهما نوت ، وأنه على هذا النحو ، كان حورس القديم ابنا لهما ·

ومهما كان الأمر ، فان عبادة أوزيرس ترجع الى عهد بعيد القدم فى شرقى الدلتا وربما كانت تقوم صلة بينها وبين عبادات آسيا القريبة ، فى عهد ما قبل التاريخ · انه اله الزرع بينما ست ، وقد توطد كذلك منذ عهد بعيد فى نفس المنطقة ، هو اله الحرب والصحراء المجدبة · لقد تشكلت أسطورتهما ، دون ريب ، شيئا فشيئا ، قريبا من نهاية عصر ما قبل التاريخ · ثم حدث ابان ازدهار الدولة القديمة ان امتزجت بأسطورة حورس وست وتوحدت التقاليد وامتد سلطان أوزيريس من الدلتا الى مصر العليا حيث أقام فى ابيدوس · ومن الجلى أن طابع الأسطورة الانسانى العميق قد قام بدور جوهرى فى نشر العبادة · ان وفاء ايزيس لزوجها وحب الأمومة التى يتملكها وصراع حورس للانتقام لأبيه والاستيلاء على ارثه كانت خصالا من شأنها أن تلمس قلوب الأوفياء وتوسع دائرة المؤمنين · وكما أن أوزيريس قد أصبح الها للموتى ، فقد استطاعت ايزيس العثور على « دواء الخلود » ووفقا لما جاء فى ديودر ، كانت « المخترعة لكل حياة » كما قال التقى ازيدوروس Isidoros · لقد صنعت من أوزيرس بسحرها نموذج الموتى الذين استدعتهم لحياة سعيدة · وبفضلها كان أولئك الذين يتخذون هوية أوزيريس ، الذين يصيرون أوزيريس بالاشتراك فى شعائره المحجوبة ، يجدون الحياة ويوطدون من جديد ليعيشوا الى الأبد · ولقد أصبح الدين الأوزيرى دين الخلاص · وبهذه الصفة ، برزت كل الأسطورة الأوزيرية فى نصوص الأهرام ،

للحصول على الخلود للملك • وفى الدولة الوسطى يرى المرء كل عامة الشعب يتمنون « التآزر » ، اذا جسرنا على المجازفة باستخدام هذا التعبير •

على انه لم يكن كافيا ــ لكى يتحول المرء الى اوزيريس ــ أن يتلقن الشعائر المحجوبة ويمارس الفرائض وانما كان من الواجب ان يسير وفق المثل الاعلى الخلقى عند الاله الذى قدم للناس الحضارة • لقد كان أوزيريس اله الخير • وعلى هـذا كان واجبا على الانسان الذى يريد التمثل به ، ان يتمرس بالخير • وقد كان على اوزيريس ان يحاسبه قبل أن يدخله حياة النعيم ، وفى عهد الامبراطورية الحديثة ، يقدم كتـاب الموتى فى استفاضـة ، قائمـة الذنوب التى كان يجب أن يكون المرء مبرأ منها حتى يمكنه أن يجتاز مظفرا المحكمـة المروعة •

وبعض هذه الخصال على أرفع مستوى خلقى : « لم اكن سببا فى بكاء أحد ، لم أصب أحدا بألم ، لم أبعد اللبن عن فم صغار الأطفـال ••• لم أجـدف عـلى الاله ، لم أمتلىء صلفا » • وهكذا وسع دين اله (أبو صـير) ، دون انقطاع ، دائرة اشباعه • والملوك الذين درجـوا فى الأسرة الثامنـة عشرة على وضع أوزيريس، يمثله الزرع النامى، فى قبورهم لم يتخلوا عن ذلك لصالح الشعب وحده •

وفى عهد الامبراطورية الحديثة خلع دين آمون عـلى نفسه خصيصة خلقية جلية كل الجلاء • كان اله الامبراطورية يحتم على الانسان احترام العدالة وأن يتقرب بهـا اليـه ، وكثيرا ما كانوا يعرفون أوزيريس ــ مستخدمين التـورية باسمه « الخفى » ــ بأنه « ذاك الذى يستخفى اسمه » وذلك أن مقتضياتها الخلقية كانت متقاربة •

وإذا كان عدم جمع الوثائق كلها حتى اليوم قد جعل من العسير علينا أن نتقصى تاريخ غزو أوزيريس للسماء المصرية ، فان المرء يطالع منذ العهد الأثيوبي توسعا بالغا في عبادة هذا الاله • ففي الكرنك ، يحيط معبد آمون بهياكل من كل نوع وينتهي بأن يستحوذ فيه على معبد مولده • ان أربع عشرة أو ست عشرة مدينة تحتفل ، في ورع شديد ، بأعياد البعث في شهر كيهك وقد أقامت ايزيس في كل منها ضريحا بعد عثورها على جزء من الجثمان المقدس •

ولقد ذكر تعدادها في عناية ، في الورد المحفور في أحد القبور الأوزيرية في دندرة ، وقد كانت ايزيس تحتل الى جوار زوجها ، مكانا هاما • ان الأم التي تستدر الشفقة وهي ترضع الطفل فوق ركبتيها بعد اغتيال الاله ، كانت صورة تثير المشاعر الى حد بالغ جعلها تأخذ مكانها في القلوب • وفي عهد أسرة لاجوس اجتاز الثالوث الاوزيرى حدود موطنه الضيقة •

ولما لم يكن للاغريق ما يعادلها فقد تبنوها في يسر • وقد كانت لها معابد في ديلوس في القرن الثاني ق•م ، وفي بومباى ، توجد معابد وبيوت وآثاث قد نقشت عليها مراحل تطور دين ايزيس في ايطاليا •

ولقد جاء عرض لها في قصة ابيليه دى مادور Apuléo de Madaure • ووصلت الى بلاد الغال وشطوط الراين ، شمال — شرقي الامبراطورية ولم تخل مكانها الا للمسيحية •

وفي مصر نفسها ، يمكن تقصي المنعطفات التي ارتفع بها أوزيريس وايزيس — اللذان لم يكن لهما الا دور ثانوى ، على غرار كثير من الأرباب المحليين غيرهم — الى مرتبة آلهة الكون • ان مغزى الأسطورة ، في الواقع ، واضح كل الوضوح • ان أوزيريس ، اله الزرع يموت أثناء فصل

الجفاف • ويغطي الفيضان الآراضى الصالحة للزراعة. ولا يبرز من المياه غير القرى أو الصحراء الصهباء وحينئذ. يكون هو المظفر •

ولكن ايزيس تعيد للحياة زوجها ، ومن جديد ، تعمل الارض على ان يخرج النبات فيحيا وياتى بالتمار، على شريطة أن يسود القطر النظام • وكذلك يرمز اوزيريس الى الحضارة • انه هو « الذى يرسى ماعت فى ارجاء الشط المزدوج (مصر) والذى يضع الابن على كرسى أبيه ، الذى لا يكف عن تقديم الحمد لابيه جب والذى لا يكف عن حب امه نوت » • انه يتقاسم مع رع حق توطيد ماعت وربما كان له هذا الحق منذ القدم • وفضلا عن هذا ، فانه يعد الها ازليا منذ الدولة الوسطى • وحكمه كوني ويمتد فوق الماء والهواء وحياة الزرع والتربة والسماء • لقد مثل برع نفسه واصبح الها خالقا دون ريب فى اثر الاله الشمسى •

وكذلك اضفيت عليه نعوت آموت : انه « ملك الآلهة ». او بالمعنى الحرفي « الملك الجنوبى والشمالى للآلهة » • هو فى كلابشة فى النوبة « ملك مصر العليا ومصر السفلى ، الوصى ••• حاكم جميع الآلهة ، الذى خرج من الرحم واليورايس على محياه وقد خلق قرص الشمس فى رحم آمه » • ومنذ عهد الامبراطورية الحديثة ، كذلك ، تصوره فى شكل ينتمي الى مذهب وحدة الوجود (١) ، الذى كان قد تاكد فى الدولة الوسطى :

ان تربة الأرض فوق ذراعيك ،
وأركانها تستقر فوقك ،
حتى عمد السماء الأربعة •

---

(١) Panthéisme ــ مذهب وحدة الوجود • مذهب من يجعلون الله والعالم شيئا واحدا وله صورة مختلفة باختلاف الفلاسفة ــ (المترجم) •

واذا تحركت ، فان الأرض ترتعد ...

ان كل ما يوجد فوق الأرض

يظل فوق ظهرك

وكل شيء يستقر فوق عمودك الفقارى .

انك أب الناس وأمهم

انهم يعيشون بأنفاسك

انهم يطعمون لحم جسمك ،

والاله الأزلى ، هذا هو اسمك .

ومنذ الدولة الوسطى ، كان له أسماء متعددة . وفى عهد البطالمة ، يشير كتاب دعاء وردت فيه أسماء جميع الآلهة ، في جلاء ، الى أنها اسماء أوزيريس ، المعبود الأصلى .

ولم تكن ايزيس ، من جانبها ، مدينة بشيء لزوجها . من الجائز أنها كانت فى البدايات الأولى الهة سماء . وعلى أية حال ، فانها منذ زمن مبكر جدا ، اتخذت شخصية الهات أخريات وفى العهد المتأخر أصبحت عند المصريين ، قبل أن تصبح فى العالم الاغريقي ـ الروماني ، معبودة كونية ، وفى طيبة ، يعلم الكهنة أن « أفق السماء الغربى بين ذراعى ايزيس ، والشرقى بين فخذيها » وفى دندرة « أنها جاءت للوجود فى البدء » مما كان يجعل منها الهة أزلية . وهناك يقوم خلف معبد حاتحور المقدس الذى ولدت فيه ، « فى ذلك النهار الجميل لليلة الطفل فى مهده ، ذلك العيد العظيم الذى يعم نطاق القطر بأجمعه . وقد ولدت ايزيس فى دندرة أنجبتها « ابت » المبجلة (وهذا اسم لنوت) فى هيئة امرأة سوداء ووردية ، ممتلئة حياة ، عذبة الحب ،

وقد قالت لها أمها (نوت) عندما رأتها : «كونى خفيفة (از) لدى أمك!» وهذا هو السبب فى أن اسمها كان ازيس»(١) .

ان هذا الاشتقاق ليس افضل مما يجرى عليه المحدثون ولكن له ميزة ان به ، على الاقل ، رشاقة ورقة ، وهنا أيضا تذكر النقوش الدور الذى أدته الالهة في الخلق . لقد غدت ما كانت ستؤول اليه ايزيس ابيليه Isis d'Apulée انها فريدة. تماما على شاكلة ايزيس مدينة ماضى أو ايزيس بردية أوكسورنخوس Oxyhinque (البهنسا) :

« انها « ننحبت » في الكاب و « تاننت » في هرمونش (أرمنت) و « ايونيت » في دندرة و « ايزيس » في آبيدوس و « سشات » في أونت ، و « حكت » في انطينوى ... و « نايت » في سايس ... وسيدة فى كل مقاطعة ، انها هى التى توجد فى كل مدينة ، في كل مقاطعة مع ابنها حورس» .

انها لا تختلف عن نايت أو عن غيرها من المعبودات المصرية المحلية ، بما لها من ادعاءات ، غير أن من المؤلم أن نرى هذه الادعاءات لدى آلهة نازعت مثرا ونازعت المسيح على السيادة الدينية فى عالم البحر المتوسط .

* * *

في استطاعتنا أن نجتاز في سرعة شرقى الدلتا ، الآن، ونهبط الى هليوبوليس . ذلك أننا لن نجد مصادر تتيح لنا أن نعيد تكوين علوم لاهوت مماثلة ، واذا سرنا الى الشمال ، والى الشرق من فرع دمياط ، نجد تل البلامون الحالى يحتل موضع سام ـ يحدث ، موطن حورس ادفو . وهو ، اله مصر السفلى ، الذى ناضل ست ، اله أومبس ، وكان قصارى أمره أن تغلب عليه فى كل مكان ، أو استبعده . وكان يرسم فى

(١) وقد عبد صنم فى الجاهلية باسم أسيه ـ (المترجم) .

شكل قرص بجناحين منشورين • ومع هذا ، فقد كان عليه أن يرجع القهقرى أمام جار مقلق له ، هو آمون الذى كان يقيم على مقربة منه مع موت وخنسو • وعندما نعبر النهر صوب الجنوب • فاننا نصل الى طما ــ الأمديد ، منديس القديمة حيث كان يعبد كبش يدعى « الكبش ــ سيد ــ منديس » • على أنه يحتمل ــ فى الواقع ــ أن يكون الكبش قد آخذ مكان تيس قديم له قرنان أفقيان انقرضت سلالته فى الدولة الوسطى ، فقد كان هو وحده الذى يستحوذ على مثل هذه القرون • لقد كان اله الخصب والتناسل • وكانت قرينته الالهة حاتمحيت التى ترسم وفوق راسها سمكة •

وصوب الشرق ، وعلى بعد قرابة ثلاثين كيلومترا ، فى خط مستقيم يغطى موقع صان الحجر ، فسيح الارجاء ، مدينة تانيس القديمة ، التى شيد بها ملوك الأسرات التاسعة عشرة والعشرين والواحدة والعشرين ، معابد بالغة الاهمية • وكانت معبوداتها آمون ورع وبتاح وست وآتوم وأوتو (واجيت) • وكان يتقبل العبادة فيها ايضا ، حورون وعنات، وهما من أصل سامى • وكانت عنات تستحوذ فيها كذلك على معبد شخصى • غير ان هذه الآلهة لم تكن لها ــ كما نرى ــ خصائص الآلهة المحلية • ويبدو أنها تجمعت بارادة حكام كانوا يرغبون فى تطور تلك المدينة فى الدلتا، نظرا للصعاب التى يمكن أن تقوم فى الشرق • وكان لست الذى تعرف الهكسوس شخصيته فى معبودهم الأصلى الذى لا شك فى أنه بعل ، مقر هو الآخر فى هاتيك المناطق وعلى الأخص فى مدينة آفاريس الممقوتة ، التى كانت آسراتهم تحكم منها مصر « دون رع » • وعلى مسافة آبعد الى الشرق ، فى ثارو ، التى يرجح أنها القنطرة الحالية ، على حافة قناة السويس ، كان يعبد حورس فى رفقة أوزيريس وايزيس •

وفى العودة صوب الدلتا ، كانت شدنو القديمة ، فاربيثوس pharbaithos وهربيط الحالية ، مركزا لعبادة حر

مرتى « حورس ذى العينين » • وكانت هاتان العينان وهما ، الشمس والقمر ، قد انتزعهما ست منه فى خلال معركة ثم أعادهما اليه تحوت • انه يشن قتالا مع المارد أبوفيس الذى تعرفوا هويته فى العهد المتأخر فى ست ، بينما كان ست قد حارب فيما سبق عدو الشمس •

ويبدو أن حاتحور ــ ايوساس وأوزيريس كانا الهين شريكين • وعلى مسافة أخرى الى الغرب ، كان يوجد فى ليونتوبولس ، تل المقدام الحالية ، معبد « الأسد ــ ذى ــ النظرة ــ المتوحشة » ميوسس • ويبدو أن الاله لم يكن بالغ القدم • انه محارب يصارع مع رع ضد أبوفيس • وهو يقدم أحيانا على أنه اله شمسى وتنسب اليه نصوص اغريقية خصال اله ريح وعواصف •

وكان يربى فى معبده « أسد ــ حى » ، وكان يدفن فى ضريح قريب ، وكان ميوسس يعتبر ابنا لباستت التى كانت جارة له • وكانت باستت تسود دون منافسة فى بوباسطة ، حيث كان لها معبد عظيم ، توارى اليوم •

لقد كانت معبودة ترجع الى عهد بعيد القدم ولكن من العسير تعريف شخصيتها لأنها أحيانا تكون قطة وأحيانا اخرى لبؤة وكانت منذ نصوص الأهرام ، تمثل بالهات أخريات • ومع هذا فان ، ما كان يبدو أنه يغلب عليها هو الوداعة • وكذلك كان يقال عن حاتحور ، « انها سخمت فى الغضب وباستت عندما تكون فرحة » وكانت تقام من أجلها أعياد تطابق عيد النشوة الحاتحورى ، وقد وصف هيرودوت مظهرها فى القرن الخامس وذكر : « انه يتناول أثناء هذا العيد مقدارا من نبيذ العنب أكثر مما يتناول بقية العام » • وكان المعبد يضم قططا مقدسة •

وقد عثر على مومياوات لها وكذلك على عدد لا يحصى من التماثيل الصغيرة البرونزية التى تمثلها • وفى النهاية ،

آلف الكهنة ثالوثا كان آتوم يقوم فيه بدور الزوج وموسيس، آو حد ــ حنكو بدور الابن ·

ومن بين معبودات وادى الطوميلات ، يجب على الاقل آن تكون لنا معرفة بالمعبود الأعظم أصالة · « سبدو » رب صفط الحنة باسبدو القديمة · ويحمل هذا الاله ــ الذى يمت الى اصل اسيوى يرجع الى عهد ما قبل التاريخ ــ لحية سامية كاملة كثيفة وليست لحية الآلهة المصرية النابتة عند الذقن وحدها ويعلو راسه تاج وريشتان محدبتان لهما مظهر اجنبى يلاحظ كذلك في منزره الذى يشده حزام ، ولذا كان سيد البلاد ــ الاجنبية وسيد الصحراء الشرقية · وقد امتد نفوذه ليس الى آسيا الدانية والى شبه جزيرة سيناء وحسب، ولكن كذلك الى ساحل البحر الاحمر حتى القصير · وقد اعاروه رآس صقر حورس ليبدو في مظهر اكثر مصرية وشيئا فشيئا ربطته عوامل التمثيل بحراختي وشو وموسيس ·

وعندما نعود صوب منف (ممفيس) ، فاننا نصل الى ليونتوبولس آخرى ، تدعى تل اليهودية ، تكريما لذكرى المعبد المنافس لمعبد أورشليم (بيت المقدس) الذى قام بتشييده آونياس والذى آغلقه فسبازيان Vespasian وكانت تقدم العبادة فيه لشو وتفنوت ، ولكن من العسير القول ان عبادتهما المحلية كانت قديمة ، بينما كان هذان الالهان ــ كما يبدو ــ شخصيتين لاهوتيتين على وجه الخصوص ·

ونصل في خاتمة المطاف ، الى هليوبوليس « مهد كل اله » ، كما جرى عليه القول ، في الدولة الوسطى · ولا شيء أعظم مدعاة للأسى من أن معبد تلك المدينة توارى تماما ولم تبق الا مسلة سنوسرت الأول ، التى تشير الى مكان المعبد ، مع أن عمائرها الدينية كانت تنافس عمائر طيبة ومنف · لقد شاهدها هيرودوت في تمام بهائها وقدم اليها آفلاطون

ليناقش كهنتها • وكان يوجد بها بخلاف معبد رع ، الذى كان طول احد جوانب فنائه يزيد على ألف متر ، معبدا أتوم وحورس • وكان يطلق على المدينة اسم « آون » يضاف اليه « رع » أو « الشمال » للتفريق بينها وبين هرمونثس (ارمنت) او دندرة • وفى البداية كان أتوم سيدا لها : انه اله للعالم السفلى وكان حيوانه المقدس النمس ، ودون ريب ، ثعبان الماء (١) وقد كانت هذه السمكة ، على اية حال ، هى التى تصور على الصناديق الصغيرة المصنوعه من البرونز فى العصر المتاخر والمرتبطة بعبادتها • لقد كان اتوم ازليا وخالقا • لقد تجمع مكتملا — كما كان يقال بالتورية باسمه — فى باطن المحيط الاول • ثم ظهر تل الرمال الذى استطاع الوقوف فوقه لخلق اول زوج • ولقد تعرفوا هوية ذلك التل فى الحجر « بنين » ، الذى ظهرت فوقه الشمس •

ولكن ما يميز مدرسة هليوبوليس هو طابع تفكيرها النظرى وقد تبنت فى البداية — ولا تدرى كيف حدث ذلك — الى جانب الاله اتوم ، الاله رع الذى يحمل اسم الشمس ، عينه ، فى اللغة المصرية • ولهذا فان هويته جلية تمام الجلاء • وقد كان أيضا الها خالقا ، démiurge على شاكلة اتوم الذى يحتمل أنه استعار منه أكثر من قسمة مميزة • ولكنه أضفى عليه طبيعته الشمسية فكيف أمكن تنظيم وجود هذين الالهين معا ؟ لقد ذهب تصور الكهنة الى أن أتوم كان شمس المساء ، قريبا من (اتمام) نفسه على الأرض بينما رع كان شمس الظهيرة ، فى السمت • وكان يكفى خلق شكل من شمس الصباح ، فكان الاله خبرى « ذاك — الذى يجىء — للوجود » يمثله جعل يكتب اسمه بنفس الحروف الأصلية • وكذلك ، يقرأ الانسان فى ورد يرجع

---

(١) anguille اسمه العلمى Anguilla vulgaris. Eel انقليس وانكليس (يونانى معرب) سمك فى المياه العذبة والبحر الملح يعرف فى الشام بالجنكليس وفى مصر بثعبان الماء • معجم الحيوان — امين المعلوف — (المترجم) •

الى عصر الامبراطورية الحديثة وان كان مضمونه يرجع الى عهد أبعد قدما :

التحية لك يا أتوم ! التحية لك يا خبرى !
لقد جئت للوجود فوق التل الأزلى ،
لقد ظهرت فوق الهريم فى مقر العنقاء فى هليوبوليس ٠
وأخرجت من فمك شو وتفنوت ٠

وفضلا عن هذا ، كان رع يرتبط بحراختى العتيق ، حورس الافق ٠ كما كانا ــ فى غالب الاحيـان ــ يمتزجان باسم رع حراختى الذى كان يرسم كانسان له راس صقر يحمل قرص الشمس فوق راسه ٠ ولم تكن هـذه المعبودات الثلاثة تشكل فى الماضى غير معبود واحد ، فى نظر علمـاء اللاهوت ٠ ويمكننا أن نحدس تاريخ تطور رع ، بفضل هذه الأسباب التى تربطه بالملكية ٠ وقد نجح فى عهـد الاسرة الرابعة فى فرض نفسه الى جوار اله الامبراطورية ، بتاح ، وأضاف الملوك الى قائمة أسمائهم اللقب الجديد « ابن رع » ٠ وتعرض اسطورة كيف أن الملوك الثلاثة الأوائل فى الأسرة الخامسة كانوا أطفاله بأجسادهم ، وتعبر الأسطورة عن ذلك بمصطلحات يتبين فيها المرء تكييفا لموضوع يتصـل بالصلاة يطلق عليه فيما بعد « المولد الالهى » ٠ ونحن نعرف صيغة منه ذات طابع عتيق جـدا ، من عصر حاتشبسـوت وكانت ما تزال تقدم فى صورة تتضمن تعديلا طفيفا خلال الأيام التى كان أنطـونيو وكليوباترة يريان فى ذاتهما تجسـيدا لآلهة الاغريق ٠

كيف حاول علم لاهوت هليوبولس تنظيم جماعة الآلهة وتوحيد هذا العالم الالهى ، الذى لا نهاية له ، اننا سنرى هذا على التو ٠ يجب أن نضيف فقط أن ثورا ، يشبه العجل أبيس وهـو منيوس (مرور) ، كان يكرم فى هليوبوليس

ويطلق عليه كذلك فى زمن متاخر « رسول رع » • وكانت له مهام تشبه تماما مهام ابيس ، دون ان يعرف مثل تلك الشهره الواسعه • واخيرا فان البلشون الرمادى ، الطائر بوينى (بنو) الذى نسخ بالاغريقية Phoinix (وهو العنقاء) عرف شهرة واسعة ، وعلى الاخص منذ ان قص هيرودوت مغامراته الاسطوريه •

* * *

هكذا ينتهى حجنا للمعابد المصرية • وقد كان فى قدرتنا ان تضاعف وقفاتنا الى مالا نهاية ، فما توجد قرية فى الوادى ، لم تستحوذ على معبد لها ، مهما كان شأنه متواضعا ! ولقد تلبثنا فى بعض الامكنة التى كانت موضوع بحوث حديثة ، غير مستهدفين سوى توضيح كثافة التقاليد الدينية ، عندما تسمح الوثائق بأن نعيد تكوينها • وقد يحدث احيانا أن تكون الكتابات الآدبية فى احدى المدن وفيرة ، تتيح لنا أن ننفذ الى أعماق خصائص أحد الآلهة ، كما يحدث نقيض ذلك فى أحيان أخرى • حيث توجد عبادات لابد انها كانت على درجة عظيمة من الأهمية ، لا يمكن أن نعرف الا النزر اليسير عنها لنقص المعلومات • ان العلم بأن قديسا يكرم فى احدى كنائسنا لا يسمح الا قليلا ، بمعرفة عبادته وشخصيته ، فى حين أن الشيء الذى يجب الوصول الى التثبت منه هو قدمه وأصله • أى قديس من بينهم ، يحتفظ فى كنيسته بأحجار يرجع تاريخها الى عصر سابق للمسيحية ويملك احيانا مزايا ما تزال قادرة على التأثير ، ففى أحد وديان جبال البرانس يوجد هيكل منعزل ، شيد فى القرن الحادى عشر أدمج فى بابه مذبح نذور عتيق مقام للاله المحلى • وقد أقيمت كنيسة للعذراء « نوتردام » معلقة فى سطح أحد جبال الجنوب العصية فوق سقيفة حجرية (دولمن) (١) من عصر ما قبل التاريخ • كما

---

(١) Dolmen — اثر يتالف من حجر عظيم مستو فوق احجار منحوتة ، قائمة لتكون غرفة دفن ، فى عهود ما قبل التاريخ — (المترجم) •

آن كاتدرائية سوراكيوز Syracuse بنيت داخل معبد للآلهة أثينا ، وتسمح دراسات تجرى في عناية بأن نرى ما اذا كانت الاعياد التي يحتفل بها لهؤلاء القديسين او القديسات والقدرة التي تنسب اليهم لا ترجع الى زمن بعيد في عهد ما قبل التاريخ او في العهد التاريخي • لقد امكن وضع كتاب عن القديسين ، خلفاء الآلهة ••• ولقد لاحظنا اننا مهما رجعنا الى اعماق تاريخ احدى العبادات و العقائد في مصر ، فاننا لا نصل بتاتا الى حالة سابقة للمصرية ، ولكن ، على الأكثر في استطاعتنا احيانا أن نستشعرها سلفا • وكذلك فليس في قدرتنا أبدا أن نلمس تغايرا جذريا بين مراس ديني ما ، وبين علم اللاهوت الشامل ، وما أندر أن يحدث أن نجد بعض القسمات الخاصة التي نجد أسبابا لنسبتها الى مدرسة محلية ! • على أننا لا يمكن أن نكون على يقين تام من أننا أصبنا الحقيقة ، وعلى أية حال، فاننا لا نصل الا الى آراء دينية مزجت وأعيد مزجها واختلطت بكل علوم اللاهوت الأخرى وتأثرت بالكثير من جانب شعب قديم جدا ، ولم تبذل المحاولات لتوحيدها وحسب بل ولاعطائها شكلا واحدا ، وقد أعيدت صياغتها الى الحد الذى يصبح معه من العبث الاعتقاد بامكان الرجوع الى المصادر الأولى • فهذه المصادر تقع قبل اختراع الكتابة وتخفى علينا كل الخفاء • ومنذ الأسرة الثالثة ، كان المصريون الذين دونوا كتابة النصوص الدينية أو صنفوها ، قوما على درجة بالغة من التحضر والتهذيب فسروا على أسلوبهم وعرضوا على نهجهم ، الأساطير والشعائر وعلم اللاهوت • ولن يتاح لنا الخروج من الكساء الذى نسجوه لمعتقداتهم ، ويبدو لنا أنه سيكون وهما تاما أن نعتقد امكان الوصول بالتحليل الى اكتشاف عناصر غير قابلة للايجاز •

الفصل الخامس

● التحديد اللاهوتى

من بين القوى الالهية التى كانت تعبدها مدن مصر وقراها ، قوى كانت تعبد فى كل مكان مع انه لم يكن لها معبد فى اية جهة . وهى المعبودات الجغرافية او الزراعية او الآلهة المالوفة • كانت تقدم للنيل قرابين فى جبل السلسلة وفى الفنتين وفى شمال ممفيس عند منبع نيل مصر السفلى • وفى زمن هذه الأعياد ، فى الوقت الذى كان يصل فيه الفيضان ، كانت تغنى الأناشيد التى تؤكد مصدره الأسطورى : لقد كان ينبع من المحيط الأزلى • وكان هو نفسه ذلك المحيط الذى جاء ليخصب مصر • ولكنه ظل خافيا : « ان المكان الذى يقيم فيه ليس معروفا • ولا يجد المرء كهوفه بفضل نجدة الكتب » ولم يستطع المصريون وفقا لما جروا عليه ، أن يحجموا عن جعله الها آزليا لقربهم الكبير من المصادر الأولى : انك الأوحد الذى يخلق نفسه ، أنت ، يا من لا يعرف جوهره (ترجمة برجيه Berguet) • ومنذ نصوص الأهرام ، كان الكتبة يرددون الأغنيات للماء الذى يجلب الخصب والذى يحمل الحياة للقطر •

أما معبودات المراعى والحقول ، فهى أكثر غموضا ولم تكن تحمل الا أسماء مشتركة تدل على أشكال جغرافية محددة • وكانت تتناوب — فى الأجزاء السفلى من جدران المعابد — مع آلهة النيل البدينة المكتنزة فى حمل القرابين • ولقد التحق بها اله النسيج وآلهة أخرى ، غيره • ولكن

نبرى اله الحنطة وآمه ارموثس الهة الحصـاد التى سيؤول الأمر بها ، عند هذا الشعب من الزراع ، الى أن تصبح الهة القـدر والمصـير ، انضما بعـد ذلك بزمن وجيز • وكانت ارموثس ترتبط بثعبان منذ ابعد العصور القديمة • ولقد كان هذا الزاحف هو الذى يحدد اسمها فى الدولة الوسطى ، وقد صورت براس ثعبان فى قبر خامحات (خع ام حات) فى طيبة • تتخذ ــ في أغالب الأحيان ــ شخصية احدى الالهـات التى تشرف على عمليات الوضع فى هياكل الميـلاد وتظل ، أساسا ، سيدة الصوامع والمخازن ، التى عهد اليها بالسهر على وفرة الغذاء • ان هذه المعبودة تذكرنا بالآلهة المساعدة عند الاغريق « ديمون » (١) وبآلهة الزراعة عند الرومان• ان هـذه المعبودات تقف فى منتصـف الطريق بين القـوى السماوية وبين البشر •

لم تكن هذه الآلهة وحدها ، ففى المنازل وكذلك هياكل الميلاد حيث كان يحتفل بالمولد الالهى ، كانت توجد معبودات مألوفة ، حاميات الميلاد والنساء اللاتى يضعن ، والاطفال • كانت « تويرس » (تاورت) الالهة التى لها شكل فرس النهر «ومسخنت» التى كانت تمثل فى شخصها مقعد القرميد الذى كانت « تستريح » عليه السيدة للوضـع ، و « بس » القزم المشـوه الذى كانت حاتحور قد جلبته من منطقة « بوجم » الجنوبية ، والذى كانت حركاته تثير ضحك الفأل الحسن • وكانت تماثيل هـذه المعبودات تنحت فوق الـكراسى ذات المساند التى كانت تعد للجلـوس عليهـا ، أو على آخشـاب الأسرة • وكانت هناك تعويذات وفيرة العدد تسمح كذلك بحملها ، وعلى الأخص فى العصر المتأخر •

---

(١) فى نطاق ديانة الاغريق كانت توجد آلهة دون مستوى الآلهة العظام ومن بينها الديمون وهى التى تؤدى وظائف معينـة لأن قدرتهـا ونشـاطها تنحصر فى وظائف محدودة وقد اخترع لها اسم Sondergotter اى آلهة اخصائية ومن امثلتها « بطل سكة الحراث » واونسطس Eunostus « بطل الحصـاد الجيد » و « بطل الفول » الذى يعنى بالفول و « بطل الطاحون » الذى يشرف على طحن الغلال ــ (المترجم) •

والملك نفسه ، ألم يكن الها ؟ انه يدعى الاله الكامل ، فيما جرت العادة عليه، وكان يسمى حورس وابن رع وكانت الشخصية الالهية التى كان يمتلكها ميتافيزيقية وقانونية في نفس الوقت • كان هدفها تدعيم السلطة الملكية قانونا• ولم تكن هذه الشخصية الالهية تنتزع شيئا من صفة الملك الانسانية • كان على هذا الملك أن يقدم الحساب للاله رع ولم يكن فى استطاعته أن ينتهك ، دون عقاب ، حرمة ماعت رمز النظام العام التى يجب تكريمها باقامة العدل والأمانة والصدق والاستقامة • وقد صار بعض الملوك ألهة سماويين . كان امنوفيس الأول من عدادهم ويبدو أن رمسيس الثانى كان كذلك حتى فى أثناء حياته • ولكننا نجهل السبب الذى دعا الى هذه الترقية فى نظام وظائف الكائنات • على ان الملوك لم يستأثروا وحدهم بأمتياز التاله ، فقد اله كذلك رجال كانوا على الأخص وزراء مثل ازى ادفو وامنوثيس بن حابو وزير امنحتب الثالث ، وعلى الأخص اموتس (امحتب) ذائع الصيت ، مهندس عمارة الملك زوسر ، الحكيم الذى مثله الاغريق بالههم اسكلبيوس• وبينما كان للملوك الذين ألهوا عبادة محلية ، محدودة جدا، فى معظم الأحيان ، فان امحتب قد اكتسب شهرة أعظم ذيوعا ، وصلت فى عهد متأخر حتى الى فيلة ، حيث يمتلك معبدا بمحاذاة طريق الدخول dromos • وقد أله رجلان وكانت تقدم لهما العبادة فى دندرة ، فى النوبة • ولكن الأسباب الحقيقية التى من اجلها كانت تقدم لهما أنواع التكريم الالهى ، تظل غامضة • كيف تأتى ، على سبيل المثال، أن الغرق فى النيل كان يمكن أن يكون مبررا كافيا للتاليه ؟ •

الواقع أنه لم يكن يوجد بين الناس والآلهة ـ بمقدار ما يمكننا أن نحزر ـ اختلاف فى الطبيعة • كان يبدو أن الاله يستحوذ فى استكمال ودوام ، ان لم يكن دون نهاية فعلى الأقل لأمد طويل ، على ما كان يستحوذ عليه الانسان

جزئيا وفي وقت عابر ، ولهذا فان هذا العنصر الجوهرى للشخصية وهو « الكا » المعادل للاسم ، والذى يصاحب الانسان دون انقطاع ، كقرين ، كان الآلهة يستحوذون عليه أيضا ، ولكنهم يستحوذون على عدد منه : فكان لرع أربعة عشر « كا » • وكان « البا » ، وهو الجزء السماوى الذى يرتبط بالضوء وبالشمس ، يملك قدرات اعظم لديهم • وفي غضون الحياة الانسانية ، كانت هذه العناصر كأنها محتجزة في الجسم • وكان في استطاعة الآلهة اطلاق سراحها وكان واحد منها يملك العمل في استقلال تام • وهذا هو ما توحي لنا به طائفة من النصوص المتأخرة التي تعرض كيف حضرت الآلهة الى معابدها :

« عندما يفد جلالته من السماء في زمنه المحدد وبعد أن يكون قد تامل هذا الأثر التذكارىالجميل الذى ضنع لكاه ، فانه يحوم في شكل انثى صقر بلون الفيروز ، تحيط به حاشيته عن كل جانب من جوانبه • ويستقر فوق جسمه في فنائه المقدس • وتتحد « باه » مع تمثاله — « بس » • ويسر قلبه عندما يكون قد نظر شكله • يتهلل وجهه أمام صورته الالهية » •

كان على أحد الكهنة في عيد السنة الجديدة ، أن يجذب أولا « الكا » الى التمثال وهو يعانقه ، أى ، وهو يقوم بالحركة التي تصور كلمة « كا » في الكتابة المصرية • ثم يعرضه لأشعة الشمس بينما يعمل الكهنة على احضار « البا » الذى كان يتحد على هذا النحو ، « بالكا » ويمضى كل شيء وكان العناصر الالهية كانت تشترك في موكب سماوى ، لا علم لى به ، يجتذبها اليه جمال الآثار التذكارية التي أعدت لها • ولكن بينما يكون « البا » في ضوء الشمس أو في حضرة اله الشمس ، يكون « الكا » في مكان آخر في السماء ، بما أنهما يكونان في حاجة الى الالتقاء معا • وكذلك كان للآلهة — على شاكلة الناس — « بطن » و « قلب » بمعنى « الغريزة »

و « الذكاء » اللذين تصوروهما شبيهين بعض الشيء باعضاء الجسم البشرى ٠

وكذلك ، افليس مما يبعث على الدهشة ان الناس سعوا الى ان يصبحوا آلهة ليظفروا بالخلود ؟ واكثر من ذلك فقد كان عليهم ان يصيروا على شبه بالآلهة الازلية العظام ٠ لآن غيرهم « ليسوا خالدين وليسوا غير قابلين للفساد » ٠ لقد تحطم أوزيريس تحت وقع ضربات ست ٠ وفضلا عن هذا فما يوجد معبد ، له شيء من الأهمية ، ليس له فى الجبل المجاور قبره المعد للموتى من الآلهة ٠ كان لادفو قبرها وقد اشارت اليه النقوش مرارا عديدة ٠ وهنا أيضا يقدم بلوتارخ شرحا وافيا « بأن جسومها ترقد بيننا ، مدفونة ويقدم لها التكريم ، بينما ارواحها تستقر فى السماء ، نجوما لوامع» ٠ لقد تقاسمت المصير الذى كان الناس يرغبون الوصول اليه ٠ وبالاجمال ، لم يكن يوجد الا اختلاف فى الدرجة بين النوعين من الكائنات التى كان يتألف منها الناس والآلهة ٠

***

ومع هذا ، فقد كانت توجد آلهة تختلف تمام الاختلاف عن الآلهه المحلية والجغرافية أو المألوفة ٠ انها كانت التجسيد الخالص لأفكار عامة أو لعمليات ذهنية ٠ وكان الطراز لها ، الالهة ماعت ٠ انها تمثل التوازن الذى لا يغرق العالم بفضله ٠ وبفضلها يؤدى الآلهة والناس وظائفهم ، انها المعيار الذى يجب أن يسير بمقتضاه هؤلاء وأولئك ٠ وفى عهد الامبراطورية الحديثه ، كان قربان ماعت يتالق فى مركز العبادة اليومية التى كانت تقدم لآمون ، عينه ، وعندما كانت تقدم للاله هذه الهبة الأساسية ، كان الكاهن يتلو أنشودة تسمح بتحديد صورتها ٠ لقد كانت ابنة رع منذ عصر الأهرام ٠ ولم تكن تترك الاله وكل قربان يقدم له يتخذ هوية الالهة ٠ وكانت اشارة من الاشارات الواقية التى

كان يملكها هي الالهة نفسها • وعلى شاكلة الهـة أفلاطون في محاورته المسماة « فيدرا » عاش آمون على ماعت وتغذى بها لدرجة أن الالهة جعلتها تصل اليه • وآخيرا فانها ضمان وجود امون « انك على قيد الوجود لأن ماعت على قيد الوجود والأمر متبادل » • وكان هـــذا ارتباطا بما لا فكاك له بين الوجود الالهى وبين اعظم المقتضـيات الخلقية عمقـا في الطبيعة البشرية وجعل كل واحد منهما يتوقف على الآخر • ولمرة واحدة ، يوجد لدينا في اللغة المصرية عينها ، التعبير المزدوج عن حقيقة ميتافيزيقية : فهناك من ناحية ، العرض المجرد للفكرة التي قرأناها ومن ناحية أخرى ، الصور التي يكون الهدف منها تأدية نفس الفكرة : فماعت تعـد بوجه عام ، ابنة رع ، ومع هذا فانها احيانا تقدم أيضا على انهـا أمه ويجيء هذا في نفس مجال النص • ومن الجلي أنه لم يكن يوجد في فكر محرر النص غير الرغبة في التعبير عن تبادل الرابطة التي كانت تجمع بين الاله والقيم الخلقيـة الأساسية للكون وللفعل الانساني •

ولم يمنع هذا الوضع الميتافيزيقي المحكم الالهة من أن يكون لها شكل خاص : انها سيدة جالسة ، بوجه عام ، وهي تحمل على رأسها ريشة تستخدم لكتابة اسمها • ويقدم الملك هذا الرمز لمعبودة أحد المعابد في مكان التكريم ، في أقصى نهاية قدس الأقداس ، على جانبي المحور : وهذا مما يعبر تماما على أنه القربان الأساسي • ولما كان المصريون أوفياء لنهجهم الفكرى فقد جعلوها اثنتين : ولهذا توجد الهتـان ماعت ، في « قاعة الحق المزدوجة » التي يحاكم فيها أوزيريس كل المتوفين • وكان المؤمنون يعرفون أن آمون رع وماعت لم يكونا الا شيئا واحدا • وهذا هو ما كان يتلوه في قبره ، نفر حتب ، كاتب آمون ، العظيم : « يا رع يا من ترضى عن ماعت ، لجبهتـك انضمت ماعت • يارع يا من تطلع في ماعت ، ان ماعت تعانق كمالك • يارع يا من اكتملت في ماعت ، لقد ثبتت ماعت في قاربه الالهى • يارع الغنى في

ماعت ، انك تعيش عليهــا كل يــوم · يارع يا من تنجب ماعت ، اليك تقــدم ماعت · لا تكف عن وضــع ماعت فى اتجاه قلبى حتى ارفعها صوب «كاك» لانى أعرف انك تعيش بها · انك انت الذى خلقت جسمها · انى عادل وبرىء من الجور ، وما ارتكبت جريرة · أيها الآلهة ، أسياد «الماعتين» ، لا تكفوا عن استقبال كاتب آمون العظيم ، نفر حتب ، فى ســــلام » ·

ان علم اللاهوت هذا لا يختلف اساسا ، عن علم لاهوت الدولة القديمة الذى كان اقل اسهابا : فقد كتب معــاصر للملك تيتى فى قبره : لقد انجزت ماعت من اجل سيدها · لقد ارضيته بوسيلة ما كان يحبه · قلت الحق (ماعت) لقد اقمت الحق (ماعت) عملا ، ولذا فان المرء لا تاخذه الدهشة عندما يجد فى الدولة القديمة طائفة من الآلهة ، التى ليست الا تصورات عقلية محضــة لها طابع أشــخاص · والواقع ــ وكما رأينا عند زيارة معبودات الحواضر ــ أن علم اللاهوت قد حاول ــ منذ أبعد زمن يمكننا الرجوع اليه ــ أن يتعمق الطبيعة الالهية وأن يفهم الروابط التى توجد بين ما هــو الهى وظواهره العديدة وكذلك بين العالم وعناصر الــكون والآلهة ، حتى ليجد الانسان ، دون انقطاع ، أن آلهة معنوية بصفة خالصــة قد اختلطت بالمجموعة الالهيــة الشــعبية · ولا شك فى أن مدرسة هليوبولس اللاهوتية قد قامت فى ذلك بدور أساسى ·

وكان يبدو من الراجح أن الكهنة شاءوا أن يضفوا على الملك ــ قبلما يصبح مباشرة ابن رع نسبا منحدرا فى خط مستقيم من الخالق ، بوسيلة تخضــع له قانونا ليس قطــر مصر وحسب ، ولكن مجموع الكون · وكان هذا هــو الذى حدا الى تنسيق التاسوع الالهى · لقد رأينــا كيف أن أتوم جمع شمل نفسه بقدرته الذاتية فى الفوضى الســائلة لأول مرة « ليظهر للوجود من تلقاء ذاته » · ولقد بدا يخلق ، دون

عون أجنبى ، لا الآلهة المحلية التى لا طاقة لها على التخصص كثيرا . بل العناصر المكونة للعالم التى لم يكن من الممكن ان يوجد غيرها دونها وهى : الهواء المضىء « شــو » والرطوبه « تفنوت » ، اللذان أنجبا « جب » الاله ــ الارض و « نوت » الالهة ــ السماء • وقد نسب لهذين الأخيرين انجاب السـلف المباشر للملك اى أشخاص الأسطورة الأوزيرية : اوزيريس وايزيس وست ونفتيس • وعلى هذا النحو ، حدث أن تألف بما يدعو للدهشة ولكن فى دهاء ، تاسوع هليوبولس الالهى العظيم • وقد استدعت الحال أن يضاف اليه تاسوع صغير ، أكثر غموضا وتأرجحا جمع فيــه عــدد معين من المعبودات الهامة كانت قد اجتازت منذ زمن بعيد حدود مسقط راسها وهى : حورس اولا ولكن ايضـــا تحــوت وانوبيس وكذلك شخصـيات معنوية لاهوتية مثـــل ماعت • وهــذه التجمعات القيمة لأنها كانت تسمح بتصنيف هــذا العــدد الوفير من المعبودات ووضع النظام فى الفوضى التى تشيع فيه ، نجدها فى أماكن عدة • وقد تبنت طيبة ، أيضا ، التاسوع ولكنها زادته وشكلته بطريقة تختلف اختلافا يسيرا • وقد تألف فى زمن حاتشبسوت ، من « منتو » الذى كان يجىء فى المقدمة ، ثم أتوم ، وشو وتفنوت وجب ونوت وأوزيريس وســـت ونفتيس وحورس وسبك وحاتحور وتاننت ويونت •

ولم يشأ كهنة ممفيس ، وهذا راجح ، أن يظلوا فى المؤخرة ووضعوا فى احكام نظرية للخلق «بكلمة بتاح» التى كان لها دوى بعيد فى التفكير اللاهوتى المصرى ، بأجمعه • وقد بدأت بملاحظة عن كيف تسير عملية المعرفة (سيا) ، وعملية الادراك (حو) ، اللذين ألها كذلك :

« القلب (= الفكر) واللسان (= الأمر المنفذ) لهما السلطة على كل الأعضاء لهذا السبب وهو أن القلب يوجــد فى كل جسم واللسان فى كل فم عند جميع الآلهــة وجميع الناس وجميع أنواع الحيــوان وجميع الزواحف الحيــة • والقلب يفكر فى كل ما يريد واللسان يأمر بكل ما يريد••

ونظر العينين وسمع الاذنين وتنفس الآنف لها صلة بالقلب • انه هو الذى لا يكف عن انتاج كل معرفة • أما عن اللسان فانه هو الذى يردد كل ما يفكر القلب فيه • • وعلى هذا النحو يتجزا كل عمل وكل حرفة وما تصنعه الأيدى وسير السيقان وحركة كل الاعضاء الأخرى اتباعا لذاك الامر الذى فكر فيه القلب والذى عبر عنه اللسان والذى لا ينقطع عن خلق كينونة كل شيء •

ان الطرائق التى استخدمها اتوم فى القيام بالخلق تمثلت بالتصور العقلى والأمر بكلمة بتاح ، فهو قد تصور كل شيء فى قلبه وحققه بفمه « واذن فكل كلمة الهية جاءت الى الوجود بالوسيلة التى فكر فيها القلب والتى امر بها اللسان • وعلى هذا النحو خلقت « الكا آت » • • • » • ان هذه الآراء التى يرجع تاريخها على الأرجح الى الأسرة الثالثة قد هيأت للفكر الانسانى امكان ادراك العالم الذى كان يبدو له غير متناسق ، واذا كان العالم تصورا الهيا واذا كان الانسان صورة الاله الخالق ، فهذا يعنى أنه يوجد بينهما امكان لنفاذ أحدهما فى الآخر • لقد كانت هذه لعبة صعبة جميلة لا ندهش لوجودها عند معاصرى الملك زوسر • ثم اننا لا نزال نجد صدى لهذه النظريات حتى فى نقوش المعابد التى ترجع الى نهاية العهود المتأخرة •

الفصـل السـادس

● الاشراك والتوحيـد

كلما وجدنا نصوصا أكثر صراحة تتيح لنـا أن نزيد معرفة بلاهوت أحد الآلهة المحليين ممن اكتسبوا بعض الأهمية ، وجدنا أنها تطلق على صفة « الأوحد » ، ولا شك فى أن هذه الملاحظة لا يمكن أن تعبر فى أكثر من حالة الا عن رغبة فى اضفاء مزيد من الجلال على رب الاقليم على نحو ما نفعل حين نقول عن أحد الأشخاص انه « فريد » لمجرد أن يكـون لديه قليل من أصالة ملحوظة • ومع هذا ، فانه عندما يسجل أحد النقوش قائمة مفصلة بأسماء كل الالهـات التى تكـون ، أساسا ، ايزيس ، فلا شك فى أن واضعا قد تصـور الوحدة الالهية وعلى الأقل ، وحدة الالهات • ويبقى أن نعرف ما اذا كان ظنه قد ذهب الى أن كل الآلهة كانت « أوزيريس » واذا كان بذلك قد اختصر الآلهـة فى اثنين فقط ، عـلى أن من المناسب أن نشير الى أن هذه النصوص ترجع الى عهد متأخر جدا • كما أن من الممكن أن نسلم بتطور الفكر المصرى ، فى العهد الاغريقى أو الرومانى تحت تأثير المبادىء الاغريقية خلال القرن الرابع •

ولكن نوعا من الأدب يخلص من هذا اللوم : هـو أدب الوصايا الخلقية ، التى يرجع أقدمها الى الدولة القديمة • ولقد أبدى دريتون Drioton منذ زمن بعيد رأيا بأن تلك التعاليم لم تذكر على الاطلاق ، اذا صـح القـول ، أسماء « جماعة الآلهة » ولكنها تحدثت على الدوام عن الاله ، على

وجه عام • فكيف يجب فهم هذا اللفظ ؟ لقد آجاب دريتون بأن المقصود هو « الله » وذلك هو مذهب التـوحيد عنـــد الحكماء • ورد كيس Kees : ان المقصود هو الملك ، وحين أثار انتباهه ضجيج جماعة الآلهة المحلية التى كان لها بعض أعضاء الحيوان ، لجأ — لكى يعطى النصوص التى لم يكن فى استطاعته الغاؤها حقها — الى عبارة انتقاص لماسبيرو : « ان مصر عرفت عددا من الآلهة ، التى كان يطلق على كل فرد منها « آوحد » يوازى ما كان لديهـا من مدن عظيمـــة » • ترى ، هل فهم السبب اذن ؟ •

ويجب ان نلاحظ ، بادىء ذى بدء ، أن النصـــوص التعليمية عينها ، تستخدم أحيانا أسماء آلهـة معينة • ان أقدم صيغة لتعاليم بتاح حتب ، كانت تتضمن عبارة : « ان العدالة لها مكان التبجيل وتفوقها دائم ، انها لم تتبدل منذ زمن اوزيريس » • ولكن التعديل الذى طرأ عليها فى الأسرة الثانية عشرة استبدل اوزيريس بذاك الذى خلقها • ومما يجعل مغزى لهذه الواقعة التى يمكن آن تكون عرضية تماما ، هو ان التعبير « تابع حـورس » المعروف جيـدا فى اللغـة المصرية ، يستبدل فى فقرة أخـرى بعبارة « تابع الاله » وهى أعظم ندرة • ان كل شىء يمضى كما لو كان يراد تحاشى ذكر اله معين • ولا يوجد اسم علم واحد لمعبود فى تعاليم آنى • ولكن مرة واحدة ، تذكر الآلهـة فى صـيغة الجمع ومرتين يكون الموضوع « الهك » • ومما يدعو للعجب انه فى كتاب امنمؤبى ، الذى يعرض أرفع مستوى خلقى ، يوجد أعظم عدد من الآلهة • ولنترك جانبا « شاى » و «ارموثس» اللذين يعنيان المصـير وحسب ، وابوفيس وخنـوم وليسا الا وسائل للحديث ، فيتبقى أن رع وتحوت ذكرا بالاشارة الى آساطيرهما ، وتلاحظ هذه الظاهرة فى بردية انسنجر حيث يعرض مذهب للحكمة العميقة •

ومن الجهة الاخرى ، فانه في السير الروحية التي خلفها لنا كثير من الاشخاص العظام الذين عاشوا في عهد الامبراطوريه ، يدرك المرء ان فقرات عديدة ليست الا مقتطفات من اعمال تعليميه او نقلا معدلا عنها • والامر لا يتعلق بموضوع الهة فرادى ، جاءت في بقية النقش ولكن بالاله على وجه عام • يسير « بكى » في عهد امنوفيس الثالث على نهج الحكماء ، ويقول انه « وضع الله في قلبه واحاط علما بقدرته » • وعندما تظهر الوصايا التى تتعلق بالعدالة والاحسان ، منذ الدولة القديمة ، فانها تنسب ، فى معظم الأحوال، لله ، وقد أعلن حرخوف: «أرغب أن يكون اسمى قد بلغ الكمال فى حضرة الاله العظيم » • ويقول رخميرع وزير تحوتمس الثالث فى مجال نص مشابه : « لقد كنت صادق القول أمام الله » • وفى قصص من أمثال قصة رجل الواحة أو قصة سنوهى ، لا تستخدم الفقرات التى تنتسب الى الحكم الأدبية ، فى معظم الأوقات ، تعابير أخرى غير لفظ الاله •

أمام هذه الوقائع التى لا تقبل الجدل ، ترجم دريتون الكلمة المصرية بلفظ « الله » • وخلص ــ وكان على اليقين محقا ــ توحيد الحكماء • غير أنه لما لم يكن ممكنا انكار تعدد الآلهة عند المصريين على وجه عام ، أضاف أنه بسبب روح المحافظة الدينية ظل التصوران قائمين جنبا الى جنب دون شك ، وأحيانا داخل الفرد الواحد ، ولا شك فى أن هذا الراى الأخير هو الذى لا يمكن التسليم به كما هو • ان أمثلة كتلك التى ترجع لليونان القديمة أو للهند وحتى للهند الحديثة ، تبين كيف أن توحيدا حقيقيا يمكن أن يكون له وجود تحت مذهب اشراك ظاهر ، داخل وجدان دينى بلغ حدا عظيما من النقاء دون أن يثير مشكلات ما • ولسبب أقوى ، لا تجد نفوس أقل تقدما خطأ فى أن تفكر فى صيغ من الاشراك • ان جميع درجات الضمير الدينى لها وجود فى اى شعب • ترى ماذا كان تفكير سقراط ، حين طلب ،

وهو يموت ، الى قريطن criton (١) أن يقدم ذبيحه ، ديكا ابيض الى اسكلبيوس ، ذلك ان المرء يمكنه ان يتصور مذهب توحيد يقوم على انعزال عنيف ، واحتراما لتعال يكون فيه أى قبول لاقل تقليد ديني مهما كان شأنه ضئيلا ، يبدو كما لو كان وثنية • لقد كانت هذه حال التوحيد العبرى الذى كان يقوم الأنبياء على حمايته • ولكن يمكن أن يتصور المرء أيضا فكرة تبدأ من طائفة من الالهة الى تصور ميتافيزيقي للوحدة الالهية • وفي هذه المرة ، تكون عمليه تنسيميه طبيعية يمكن ان تجلب نفوسا معينة الى مذهب توحيد دون أن تقسرهم على الدخول في صراع مع كل بيئتهم الاجتماعية والتنازع مع قواعد الصيغ الدينية التى أحسوا من خلالها ما هو الهي ، بدءا ذى بدء • فهنا لا يوجد تحول ولكن بالحرى صعود صوب مكان لا يبدو فيه أن الآلهة المعينة لا تجدف على « الاله الأوحد » ، ولكنها بالحرى لا تحمل الا قدرا ضئيلا من الالهي الذى يتركز في موضع آخر • ذلك يتخطى التقليد لكنه لا يلغيه على الاطلاق • بل انه يترك قائما من أجل أولئك الذين لا يصلون الى التعالى به •

على هذا النحو كان يبدو مذهب التوحيد المصرى ، ومع هذا ، فقد جاء وقت في تاريخ مصر الديني ، أوشك أن يسود فيه التوحيد الخالص — الشبيه بالتوحيد الذى كان لدى الأنبياء العبريين — فقد كان هناك ملك يدعى أولا امنحتب (أى لتكن آمون راضيا) غير اسمه فجأة الى اخناتون وهو ما قد يعنى (ذاك الذى يسر منه آتون) وطارد اسم آمون الى حد أنه حطمه حتى في ذرى المسلات ، وعلى وجه عام ، ألغى أسماء جميع الآلهة وأرشد ، ويمكن أن يقال عن

---

(١) قريطن Criton :

كان من أثرياء أثينا وتلميذا لسقراط •

وقد أفرد أفلاطون « محاورة » أطلق عليها اسمه هى المحاورة التى جرت بين سقراط وقريطن الذى جاء ووجده فى السجن وعرض رد حريته اليه • وامتدح سقراط احترام القانون حتى لو كان غير عادل (القرن الرابع) •

طيب خاطر ، بشر المخلصين له بمبدأ عقيدة اتون • ومن الضرورى آن نضع موضع الاعتبار فى هذه الحركة عوامل كثيرة • فقد ظهر جليا ، من نصوص تل العمارنة عينهـا ، انه كان يوجد سبب سياسى : هو وضع حد لقوة كهنة امون وتقييد طموحهم السياسى بقيد جاد • ولـكن هـذا لم يكن الدافع الوحيد للملك • وما كان ليقف فى مواجهة جميـع التقاليد الدينية القديمة الراسخة ، عند شعب ، لو لم تكن لديه رسالة شخصية عليه أن يؤديها ، وتجربة فريدة كان يجب الافصاح عنها :

انك تستقر على الدوام فى قلبى ،
لا يوجد أحد آخر يعرفك
سوى ابنك •• لأنك أحطته علما بتدابيرك وقوتك •

وعـلى هـذا ، من كان اذن ذلك الاله الذى كان عنيدا وغيورا الى هذا الحد ؟ اذا جسر المرء على اطلاق هذه الصفة الغريبة من صفات يهوه (١) ، عليه • ان نشيدا رائعا وضعه فيما يرجح كثيرا ، الملك أو وضع بالهام مباشر منه ، يبينه لنا ، يتغنى به ويسبح بحمده الخلق طرا ، الذين يتهللون عندما يطلع ، القرص الساطع ، فى أفق السماء • أوليس هو الذى خلق العالم • حتى أصغر الديدان • لقـد صـنع الانسان ، ليس المصريين وحدهم بل الأجانب كذلك ولـكى يقدم لهم آية على عنـايته الربانيـة ، فانه اذا كان قد قدم للبعض مبـاشرة مياه « نون » عن طريق النهر ، فقـد فتح للآخرين نيلا فى السماء يسكب عليهم ماء • على هيئة المطر ، ثم انه وهو الخالق متعدد الشكل ، **يظل الواحد الفرد :**

انك لا تكف عن جذب ملايين الأشكال من ذاتك فى حين انك باق فى وحدانيتك •

---

(١) يهوه الاسم الأصلى لاله بنى اسرائيل فى صورة الاله القبلى والذى يشار اليه باسم « ادوناى » Adonae بعد ارتقائه الى اله عالمى — (المراجع) •

ولم يكن لاتون مظهر آخر غير مظهر قرص الشمس · لا شيء من التماثيل ولا شيء من الاشارات المعقدة · لا شيء غير أشعته الطوال التي تنتهي بأيد نحيله مستدفه ، يقدم بها الحياة الخالقة للزوجين الملكيين ، وعن طريقهما الى العالم اجمع ، ولم تكن لمعابده ، على الاطلاق ، مقادس مظلمه لا يسمح بولوجها · وكان قدس الاقداس مكشوفا لضوء الشمس وكانت تعرض فيه القرابين على المذابح · ولم تكن توجد مواكب ، بتاتا ، بما أن الصور كانت قد ألغيت · وانما أحيانا كان الملك بمفرده ، وهو النسخة الصادقة لأبيه اتون ، يقدم نفسه لشعبه الذى كان يستطيع على هذا النحو أن يتمثل فيه ، بطريقة ما ، الاله الذى يتجلى فقط فى قرص النهار ، الالهى ·

لقد نبعت كل اصالة حركة العمارنة من موقف الملك على وجه التحديد ، أما من وجهة علم اللاهوت ، فان مضمون نشيد آتون العظيم ــ اذا استثنينا التلميحات النادرة للسيرة الذاتية ــ يماثل مضمون نشيد آمون الموجود بمتحف القاهرة والذى يسبقه بخمسين عاما ونيف · واذا استثنيت الفقرات العديدة التى تتعلق بالمذهب الرمزى لزينات آمون التى أصبحت غامضة فى أيامنا وتتطلب شرحا مستفيضا ، فاننا نجد فيه نفس النغمة ونفس الجمال الأدبى ونفس الاحساس المرهف تجاه ظواهر الحياةالعجيبة · وفى الحق ، آن مفكرى طيبة ، الدينيين كانوا منذ آزمنة طوال ، قد تصوروا الوحدة الالهية وعبروا عنها تعبيرا يبلغ حد الكمال · غير أنهم كانوا يؤدون ذلك بوسيلة تصويرية وقد استخدموا لغة مشتركة فيما يبدو · على أن المرء عندما يقوم بتحليل مناهج تعبيرهم، فلا يمكن أن يتطرق شك الى ذهنه حول فكرهم · ولنأخذ مثالا لذلك · كان مهندسا العمارة سوتى وحر قد نقشا ، قبل ثورة العمارنة بزمن يسير ، على نصب نشيدا لآمون وها هو ذا شطر منه :

التحية لك يا قرص (أتون) النهار ،
الذى خلق الناس وجعلهم يعيشون ،
الصقر القوى ذو الريش المتعدد الألوان •
الذى جاء للوجود ليرفع نفسه !
الذى جاءللوجود من تلقاء ذاته دون أن ينجبه سواه
حورس الأكبر الذى يقيم فى نوت ـ السماوية ،
عند طلوعه يبتهج الانسان
وعند غيابه يحدث للمرء مثل هذا •
ذاك الذى صنع ما تنتجه التربة ،
خنوم وآمون الناس !
ذاك الذى يدير القطر المزدوج ،
من أعظم كائن الى أصغره •
أم الآلهة والناس ، صانعة الخير •
الفنان الساهر ، الذى لا يعرف الكلال ،
عندما يخلق اعماله التى لا عد لها •
الراعى القوى الذى يقود قطيعه •
حظيرته التى تجعله يعيش !
العداء السريع الذى يتقدم فى اندفاع !

لقد آثار الشاعر ببراعة ملحوظة ـ لكى يزيدنا معرفة بآمون الذى أصبح هنا قرص الشمس وهى صورته المرئية ـ ذكرى اله الشمس القديم حورس والصقر الذى يرمز اليه • ان فكرة الخلق توحى فى الحال بخنوم وبآمون • وليست هذه شخصيات الهية ، بل هى الأسماء التى تعبر لمن

يعرف تماما التقاليد الدينية عن القدرة التي تخصص فيها اله معين • ولا يمكن ان يتصور المرء دون تعسف ان يجعل من الحكمة قرينة « ليهوه » أو من القوى الفيلونية (١) آلهة لحاشيته الالهية • وكذلك يلجأ شاعرنا ، الذى لا شك فى انه على مذهب التوحيد، هنا ــ الى التعبير عادة في صيغ مشركة، غير أنه سرعان ما يصحح الها باخر ، فهو يضع آمون الى جانب خنوم ، وهو ينسب الأبدية الزمنية الى الكائن المتعدد الأسماء والاوحد : فهو لم يولد ! ثم يعرضه فى طائفة من الصور التى يستحيل أن تتراكب ، وان تقاربت عن قصد، فهو : فنان وراع وحظيرة ، انه يوحي بصفات اله خالق ، وبعناية ربانية وبملاذ • وتحمل الثقوب التى يبرزها النسيج الشعرى ، دعوة للفكر ليتملى الأله غير المعروف •

وفي الحق ، لقد افاد كهنة آمون من أعمال المدارس الدينية العظيمة في الدولة القديمة ، هليوبولس وممفيس وهرموبولس وعرفوا كيف يضعون لالههم ، بتعميق تجربتهم الدينية ، علم لاهوت صبغ بعد ذلك كل التفكير الدينى المصرى بأجمعه • ولهذا فانه سابق جدا لمذهب التلفيق (٢) المتأخر ويرجع تاريخ خطوطه الأولى فيما يرجح الى الدولة الوسطى •

ان آمون ، بداية بدء ، أوحد :

انك الأوحد الذى صنع كل ما يوجد

الواحد ، وهو يظل أوحد ، الذى صنع الكائنات •

---

(١) كان فيلون Philon فيلسوفا اغريقيا من أصل يهودى ، ولد فى الاسكندرية حوالى عام ٢٠ ق٠م • وكان تصنيفه مزيجا من افلاطون والتوراة وله أثر على الأدب المسيحى ــ (المترجم) •

(٢) مذهب التلفيق Syncrétisme ــ الجمع في تحكم بين آراء أو مذاهب مختلفة أو متعارضة لتكون مذهبا واحدا ــ مصطلحات مجمع اللغة العربية ــ (المترجم) •

وتوحي هـذه الصيغة اللفظية التى استخدمها المصرى هنا بتلك الترجمة التى نجد معادلا دقيقا لها فى اغريقيـة « يمبليك » التى لا شك فى أن النماذج المصرية الهمته بهـا ٠

;év uovotnti Tns évatoi

Evotntos Uéwv.

ولم يقنع علماء اللاهوت برفع مرتبة الههم الاوحد فوق جمهرة الآلهه الاخرى ، كما تحمل كلمة ماسبرو على الاعتقاد بذلك ٠ لقد بذلوا محاولة لارجاع الآلهـة للوحـدة ٠ وقد أتاحوا لامـون منـذ الدولة الوسطى ـ بعـد مزجه برع ـ اكتساب وحدة اله هليوبولس الشمسى ، ثم عمدوا الى وضع خطة مجملة لمذهب تلفيق يجمعه مع الآلهة الاخرى : خبرى وآتوم وحراختى و « مين » وفى عهد الامبراطورية الحديثة، اتخذ آمون بالاضافة الى هذا ، طبيعة الآلهة الثمانية وطبيعة تاتنن ٠ ولكى يبين تماما أن المسألة مسألة شـكل خارجى ، وليست الحقيقة فى قصاراها ، يكون آمون هو بتاح عينـه أحيانا ، وأحيانا آخرى هو الشكل الكامل الذى قام بصنعه بتاح ، وقد جعل منه نشيد ليدن ـ الذى يعكس آسمى مراتب الفكر ـ خالق التاسوع الذى يكون جسمه ويظل هو ، دون سواه ، الأزلى : « ان التاسـوع يبقى مجتمعا فى أعضائك ، وان صورتك هى كل اله اتحد فى جسمك : لقد كنت أول من تفجر ، لقد استهللت البداية » ٠ انه هو الذى خلق كل الآلهة « التى ظهرت للوجود من فمه » ٠ واذا تبقى الهان لم يعد بصفة خالصة وببساطة من خلق آمون وهما رع وبتاح فليس مرجـع هـذا أنهما الها الامبراطـورية ، ولكن لأن شخصيتهما كانت فريدة ٠ وفى الواقع تكون هـذه الآلهـة وحدة : « ثلاثة هى كل الآلهة : آمون ورع بتاح ، ولا توجد أشباه لها ٠ آمون هذا اسمه باعتبار أنه خفى ، ورع هـو وجهه ، وجسمه هو بتاح » ٠ ويرى المرء أنه فى مستوى معين للضمير الدينى ، لم يكونوا يقنعون بوضع الواحد الى جوار

الآخر . بل لقد بذلوا محاولة لشرح تنوع المظاهر ووحدة الكائن : « الاله الأوحد الذى جعل من ذاته ملايين » .

ان آمون اله أبدى . وكانت ألف وسيلة تصويرية تقدمه للمفكر . « لقد قام بصنع نفسه » فى البداية ، ثم صار بعد ما تمثل بالشمس الحركة الكونية التى تتكرر الى الأبد ، كما سبق أن رأينا . وها هى احدى الفقرات التى تمثل اعظم تطور وارتقاء :

ذاك الذى بدأت صيرورته أول مرة ،
آمون الذى أنجب نفسه فى البدء دون أن يعرف سره.
لم يوجد اله قبله ،
ولم يكن يوجد اله آخر معه ليحدثه عن شكله ،
ولم تكن له أم لتضع اسمه ،
ولم يكن له أب نسله وقال « هذا هو ذا أنا ! »
ذاك الذى قام بنفسه بصنع بيضته .
القوى الغامض الميلاد والذى خلق جماله ،
الاله الالهى الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته .

كل الالهة جاءت للوجود، عندما أعطى لنفسه البداية . ان آمون خالق . وفى هذا ، يسترد التقاليد المحلية التى قمنا بتحليلها فى سرعة ونحن نغشى المدن التى نشأت فيها . وقد استحوذ على غرار نايت وبتاح وعلى غرار أتون فى زمن لاحق ، على صفة جنسية مزدوجة ، فهو أبو الآباء وأم الأمهات . وفى التورية بالألفاظ كان يقال انه ذرف الدمع « ريمى » وبهذا خلق الناس « رومى » . ان كل وسائل الاله الخالق التى كانت معروفة ، نسبت اليه . ولقد استعير أهمها وهو الخلق بالكلمة Verbe من بتاح : « لقد تكلم

بعمه وجاءت انثاثات لوجود : الناس والآلهه والحيوانات الكبيرة والصغيرة ، كلها على ايه صوره كانت • وكل ما يطير وما يحطب » وقد استولى عليه مثل بتاح (« يهوه » احساس بالرضى امام صنعه : «انك راض لانك خلقت كل البشرية» •
وهو حاضر فى كل مكان ، فى مصر وفى الاقطار الاجنبية « حتى فى اطباق وحتى فى احناء الارض وحتى فى اعماق البحر » • ان له عينين وله اذنين فى كل مكان • انه يستمع للصلوات ويصغى للشكايات وهو الحامى بالغ الكمال لذاك الذى وضعه فى قلبه • وهـو لا يكف عن مد ذراعيه لذاك الذى يحبه • ان قلبه رفيق عندما يضرع المرء اليه • انه يخلص الوجل من العنيف ويفصل بين القوى والتعس » •
انه ملاذ المسجونين والمرضى • انه يشفى العميان ، أى اولئك الذين أصابتهم أمراض العيون الشائعة فى مصر ، وكذلك أيضا أولئك الذين انتابهم العمى الروحى • انه لا يجىء لانقاذ ذاك الذى يدعوه فى الظروف الخطيرة ، وحسب ، ولكنه يجىء أيضا من تلقاء ذاته لغزو القلوب :

الاله الرفيق ، ذو الأفكار الخيرة

اليه ينتمى الرجل المرن ، الطيع لارادته

انه أعظم نفعا من الاف ، لذاك الذى وضعه فى قلبه ••

الحامى الكامل ، فى الحق •

جميل الرعاية الذى يغتنم فرصة ، دون أن يرد •

انه ، كما نرى ، العناية الربانية بخلقه التى تسهر على البشرية وهى فى سبات ، ساعية للخير لأجل قطيعها •

ومع ذلك فان هذا الاله ، لا يمكن أساسا معرفته • انه ليس خفيا وحسب ، كما يوحى اسمه بذلك ، ولكنه يقع بعيدا عن وسائل البحث البشرى • « لقد استخفى عن ذاك الذى خرج منه • وهو المصباح الساطع ذو الأشعة العظيمة

الذى لا يرى الا من خلال شعيرته المحجوبة » • ويتبين نشيد ليدن هنا ، ايضا ، عمقا روحيا يدعو للاعجاب :

انه خفى عن الآلهة : لا يعرف المرء مظهره •

انه أبعد من السماء ، انه أعمق من الجحيم !

ان اى اله لا يعرف شكله الحقيقى •

ان صورته لا تبسط فى مطوى الكتب

ليس لدى المرء عنه ، أية شهادة تبلغ الكمال •

انه بالغ الخفاء حتى ان مجده لا يتكشف •

انه أكبر من أن يفحص ، وأعظم من أن يعرف

ان المرء ليسقط فى الحال ميتا من الرعب •

اذا تلفظ باسمه الخفى الذى لا يستطيع أحد معرفته •

لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه ، تجاه هذه القصيدة المعاصرة ، على وجه التقريب ، لموسى النبى من استثارة ذكرى الكلمة التى قالها له يهوه : « لا يمكن أن يرانى الانسان ويعيش » • ولقد ذكر أفلاطون ، وأعقبه فيلون الصعوبة التى يعانيها الانسان فى التقرب عقليا من الله • وكان المصريون قد رأوا الاتجاه الذى كان يجب السير فيه • وكما تستدير الأشجار والنبات صوب الضوء ، وكما ترقص الخليقة بأجمعها ابتهاجا أمام الشمس ، يجب أن يستدير الانسان صوب الاله ، المصدر الأوحد للحياة والبهجة • انه بالحب ، يرفع الاله القلوب اليه :

ان الناس سعداء ، عندما تطلع ،

يحل الوهن بالقطيع عندما تلمع

ان حبك يوجد فى سماء الجنوب

ورفقك فى سماء الشمال •

ان جمالك يخلب القلوب ،
وحبك يجعل الأذرع تهوى ،
وشكلك بالغ الكمال يسلب الأيدى القوة ،
ان القلوب تنسى كل شيء لأنها تطلعت اليك ·

* * *

لقد كان عن قصد اننا أردنا اختتام هذا الكتاب عن الهة مصر بقصائد دينية تشهد بتجربة روحية عالية · ان هذه النصوص بأجمعها ، يتراوح تاريخها بين عام ١٥٠٠ وعام ١٠٠٠ ق·م· ويوجد غيرها كثير من القصائد المعاصرة او اللاحقة · انها تقيم الدليل على العمل الجليل العجيب الذى أنجزه الفكر الدينى المصرى ، الذى لم ينقطع ، حتى انطفا نوره ، عن اثارة المشاكل اللاهوتية والروحية والخلقية · ان ارتقاء القمم هو الذى يتيح للمرء أن يصدر حكمه على أحد الشعوب ، وقد قمنا – خلال جولتنا الطويلة عبر القطر – بزيارة أكبر عدد من المعابد وحاولنا ان نفهم على قدر الاستطاعة طبيعة آلهتها · وقد رأينا أنواع الحيوان المقدس والأشكال العجيبة التى أضفيت على المعبودات التى كانت نصف حيوانية ونصف بشرية · وحاولنا أن نحيط علما ببعض الاشارات التى كانت توضع عليها والشعارات التى كانت تصحبها · وفى كل هذا الخليط التقليدى الذى ترجع عناصر معينة منه ، بكل توكيد ، الى عهد ما قبل التاريخ ، عكف علماء اللاهوت دون انقطاع على التدخل لوضع الترتيب والتنظيم · هذا هو اذن دين المصريين الذى ينير لنا طريقة دراسة هذه الآلهة المحلية ، التى تتبنى عددا مختلف القدر من الآراء التى كان يضعها فى عناية كهنة المراكز الهامة والتى كان يذيعها « بيت الحياة » · ومع هذا ، فانهم لم يكفوا – مهما بلغ المستوى الروحى الذى ارتفعنا اليه الا خلال مرحلة اخناتون الوجيزة عن المحافظة على ذخيرة

التقاليد التى استمرت تتكاتف فى ازدياد مطرد اذ كان يضاف اليها دون انقطاع • وكان الأمر يتطلب تفسير التعابير باللغة القدم وقد انضمت شروح الى شروح ، حتى انه فى العصر المتأخر تجمعت كومة من التوضيحات الرمزية والتفسيرات التى نجد عناء فى ان نشق طريقنا وسطها • وعندما وصلت المسيحية الى مصر ، لم تكن قد بقيت للدين المصرى قوة تلتقى بالتيار الداخلى الذى كان كهنة آمون قد رووه • لقد تصلب واستغلق (Elle s'était sclérosée et fermée) استخدمنا تعبيرا عزيزا لدى برجسون ، ولم يبق أمامه الا أن يتوارى ولكن دون أن يموت ، لأنه ورث الاغريق والعبريين أعز ما كان لديه ، ليعيش مرة أخرى فى المثل الأعلى الذى يسعى عالمنا ، على الدوام فى شكل أو آخر ــ الى الارتقاء اليه •

حاشيـــــة

منـــذ عشرات الأعـــوام ، أقوم ببحث عن علاقة اللغـــة المصرية القديمة باللغة العربية ، اذ كنت أؤمن بأننا نصـــل الى استجلاء التاريخ بالآثار وبفقه اللغة جميعا • ولقد أهاب الباحثون فى علم الانسان بفقهاء اللغة لتأييد آرائهم عن أصل قدماء المصريين •

وأرانى مضطرا الى التعليق على ما جاء فى هذا الكتاب الشعبى الذى وضعه عالم الآثار النابه فرانسوا دوما فيما يتصل بأسماء آلهة قدماء المصريين والى أن ينشر ما وصلت اليه فى بحثى نشرا علميا ، أحتفظ بما أذكره الآن •

فى عام ١٩٥١ ألقيت حديثا على «جمعية الآثار المصرية» عالجت فيه موضوع علاقة اللغـــة المصرية القديمة باللغـــة العربية بالمقاييس التى وضعها علماء اللغات للموازنة بين لغة وأخرى وقد نشرت مقدمته صحيفة الأهـــرام فى العـــدد الصادر بتاريخ ١٩٥٤/٧/٢٦ •

وقد أعلنت فى ذلك الحديث ما يأتى :

« والمستقبل كفيل بأن يظهر لنا أن أساس مفردات اللغة المصرية القديمة سامى محض وعـــلى وجه التخصيص عربى محض » •

ولقد تأيد هذا القول تمام التأييد من مصادر خارجية •

(١) فى مقال نشره و • فستيل W. Vycichl فى مجلة كوش Kush ، المجلد السابع عام ١٩٥٩ جاءت هذه العبارة :

« ومن وجهات النظر الجديدة هذه لا تقع اللغة المصرية القديمة كما كانت حتى الآن (فى اعتباره) فى حاشية نطاق اللغات السامية ولكن فى صميمها » • ودعاه الى هذا ما أقره ريسلر Rössler من ان لغة البربر سامية تماما » •

(٢) تحول سير الن جاردنر عن رأيه الذى ورد فى الطبعة الثالثة من أجروميته الى الرأى الذى جاء فى كتابه « مصر الفراعنة » ، اكسفورد عام ١٩٦١ وأقتبس منه ما يأتى :
« ومن الوجهة الاخرى فان العلاقة باللغات السامية (العربية والعبرية) لا يمكن كذلك أن يتطرق اليها الخطأ اذا لم تكن أعظم » •

والآن ، أقرر أن علاقة اللغة المصرية القديمة بالحامية لا سند له • وأسوق شاهدا :

فى الرسالة التى وضعها ف • كاليس F. Calice بعنوان
Grundlegen der agyptisch-semitischen Wortvergleichung. 1936

ذكر فى القائمة الرابعة الألفاظ المصرية التى يوجد ما يقابلها فى اللهجات الحامية فقط ، وقد تبين لى أنها ترجع الى اللغة العربية

ومثال ذلك :

اللفظ المصرى

mm يمسك ـ يقبض على

يقابله فى اللغة العربية لفظ لم ـ واللم الجمع الكثير الشديد واللم مصدر الشىء يلمه لما جمعه ـ اللمة الشىء المجتمع •

واللفظ 3 sh ـ منجل

يقابله فى العربية خصين وهى الفأس ذات الحد الواحد وجمعها آخصن ٠

واللفظ wsm ـ يعجن

يقابله فى العربية شوب وهو المزج والخلط الشوب وفيه قلب وابدال

واللفظ نبرى ـ الحنطة والهة الحنطة

يقابله فى العربية نبر ـ أنبار الطعام واحدها نبر مثل سدر ، قلت ومعنى الأنبار جماعة الطعام من البر والتمر والشعير ـ (مختار الصحاح) ٠

وسأقتصر الآن على أسماء الآلهة وهو موضوع الكتاب ٠

جاء فى الفصل الثانى :

« ان أصل أسماء الآلهة فيما عدا اسم «خنوم» لا يطابق أى حيوان معروف فى اللغة المصرية أو فى أية لغة أخرى من مجموعتها الحامية ـ السامية » ٠

والواقع أن أسماء الحيوان بما فيها أسماء الطيور والأسماك والحشرات ترجع الى اللغة العربية ومثال ذلك :

الاله فى اللغة المصرية	المقابل فى اللغة العربية
skr	صقر
spuw	سيد ـ طائر لين الريش (المترجم) ٠
hkt	هجاة (هجاة الضفدع قاله ابن سيده والمعروف الهاجة) (الدميرى) ٠

طير الحر أو ساق حر	hr

أبو نوفل من كنى الثعلب أبو نوفل	inpw

الخ ....

وجاء ان حابى (حعبى) اله الفيضان ليس مصريا على اليقين .

يوجد فى اللغة المصرية لفظ آخر يرادفه وهو لفظ Bch وهو الفيض وتمثيل وتاليه الوفرة ويقابل فى اللغة العربية البحر وهو « الماء الكثير ملحا كان أو عذبا سمى بذلك لعمقه واتساعه وكل نهر عظيم فهو بحر ويقال فلان بحر أى واسع المعروف » .

أما لفظ hni فقد قوبل بلفظ حفل اذ يقال حفل الوادى اذا كثر ماؤه .

و « سن » من المنة أى القوة بدليل وضعته المعروفة ونبات الخس الذى يرسم الى جواره ، جالب القوة واسم آمون مشتق منه والقوة على الدوام شيء خفى .

وأجد تأييدا لهذا ان اسم مركب آمون ، المقدسة هو وسر حات أى قوى المقدمة وقد استخدم كلقب لآمون نفسه .

ولفظ وسر ومعناه قوى يقابل لفظ أزر فى اللغة العربية .

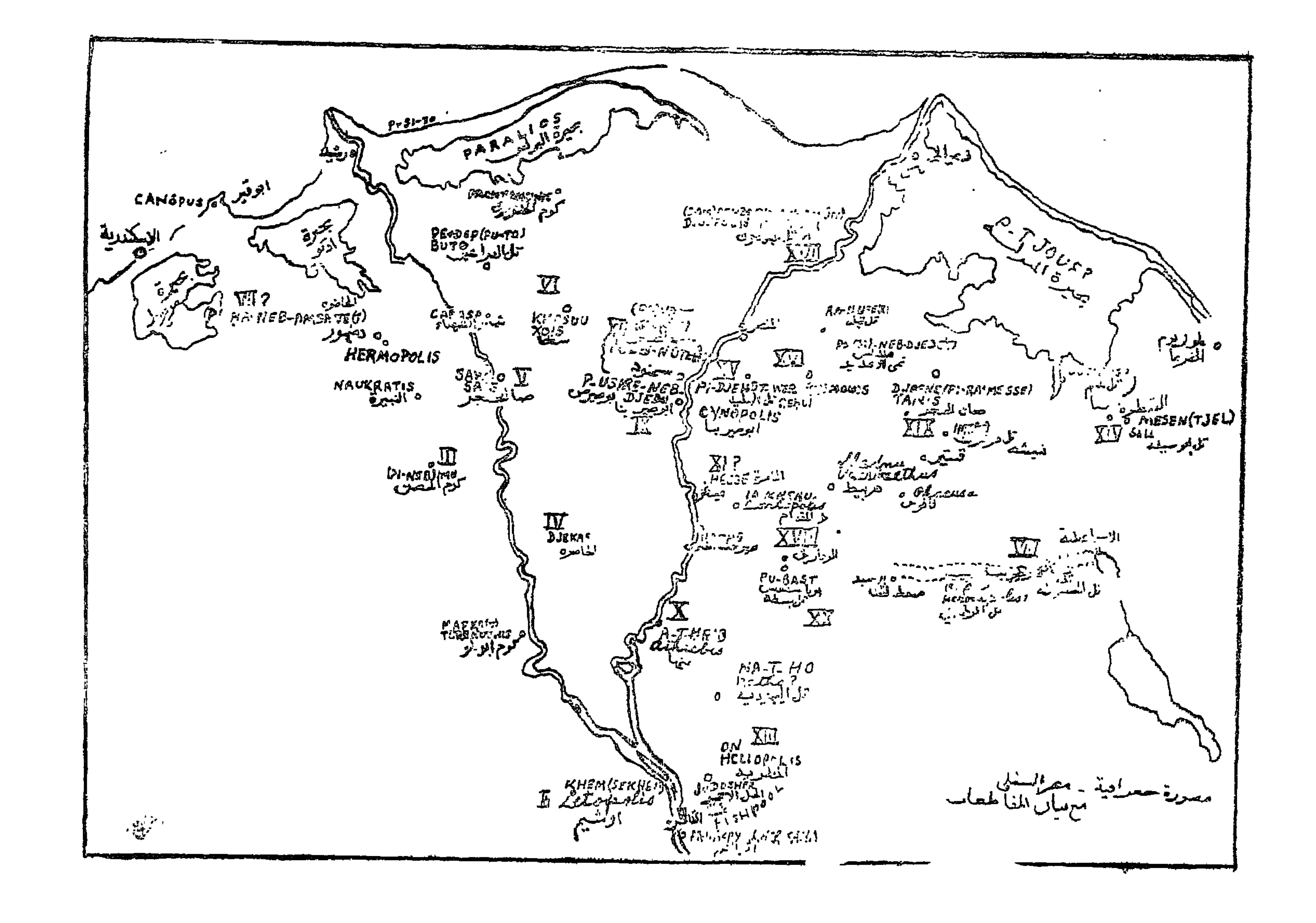
لقد تمكنت من المقابلة بين أسماء الأصنام التى عبدها العرب فى الجاهلية وآلهة مصر القديمة وقد ذكرت بعضها فيما تقدم .

والأصنام التى وصلت الينا أسماؤها يبلغ عددها حوالى ١٢٠ صنما من ٣٦٠ صنما كانت تضمها الكعبة ٠

ويرجع السبق فى هذا للمغفور له أحمد كمال باشا ، اذ نشر فى مجلة Recueil de Travaux عام ١٩٠٢ مقابلة بين ٣٢ صنما من بينها اللات والعزى ومناة وآلهة قدماء المصريين ٠

ويؤيد هذا شاهد من مصر القديمة :

أطلق التعبير «تانتر» ومعناه قطر الاله او الأرض الالهية ويرادفه «تاوى نترو» الآلهة أو أرض الآلهة ، المزدوجة، على المنطقة الصحراوية التى تقع بين النيل والبحر الأحمر ، وصحراء بلاد العرب (او صحراء سكان الكهوف) ، المنطقة التى كان قدماء المصريين يعتقدون أنها الموطن الأصلى لأهم معبوداتهم ٠ ويوجد رأى يقول ان هذا التعبير لم يكن يطلق على الصحراء التى تقع بين النيل والبحر الأحمر أو جزء منها وحسب ، أو قطر بنط أو بلاد العرب ولكن على كل النطاق القديم الذى كان ينتمى للاله حورس أى كل مناطق العالم الشرقية التى كان لقدماء المصريين علم بها من أقصى الجنوب الشرقى (بنط) حتى أقصى الشمال الشرقى (قطر الحيثيين) وفى توسع كان يشمل كريت (Kuentz B.I.F.A. Oxv p. 178) ويشرح فارينا (Farina, Aegyptus Vi p. 52-53) هذا الاسم بأنه تعبير يدل على الشرق عامة ، مجموع المناطق التى كان يبدو للمصريين آن الشمس الاله الأول يجىء منها (Gauthier noms. Geog. p. VI).



CANOPUS
ابوقير
الإسكندرية
PARALIOS
بحيرة البرلس
Pr-Ši-To
DEP-DEP (PU-TO)
BUTO
تل الفراعين
HERMOPOLIS
NAUKRATIS
النبيرة
SAIS
صا الحجر
XOIS
سخا
CYNOPOLIS
TANIS
صان الحجر
PU-BAST
HELIOPOLIS
ON
FISHPOOL
Letopolis
KHEM (SEKHEM)
MESEN (TJEL)
DJEKAS
مصورة جغرافية - مصر السفلى
مع بيان المقاطعات

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/١١/١٩٩٧

ISBN — 977 — 01 — 5483 — 0